

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### سورة الفرقان

مكية كلها في قول الجمهور. وقال ابن عباس وقتادة: إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة، وهي: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾. وقال الضحاك: هي مدنية، وفيها آيات مكية؛ قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ الآيات.

ومقصود هذه السورة ذكر موضع عظم القرآن، وذكر مطاعن الكفار في النبوة والرد على مقالاتهم؛ فمن جملتها قولهم: إن القرآن أفتراه محمد، وإنه ليس من عند الله.

- [١] ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾.
- [٢] ﴿الَّذِي لَمْ يُلَمْسْ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَنْخُذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَمْ شَرِيكَ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ نَقِيرًا﴾.
- [٣] ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾.

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾ ﴿تبارك﴾ اختلف في معناه؛ فقال الفراء: هو في العربية و«تقدس» واحد، وهما للعظمة. وقال الزجاج: «تبارك» تفاعل من البركة. قال: ومعنى البركة الكثرة من كل ذي خير. وقيل: «تبارك» تعالى. وقيل: تعالى عطاؤه، أي زاد وكثر. وقيل: المعنى دام وثبت إنعامه. قال النحاس: وهذا أولها في اللغة والاشتقاق؛ من برك الشيء إذا ثبت؛ ومنه برك الجمل والطير على الماء، أي دام

وثبت. فأما القول الأول فمخلط؛ لأن التقديس إنما هو من الطهارة وليس من ذا في شيء. قال الشعلبي: ويقال تبارك الله، ولا يقال متبارك ولا مبارك؛ لأنه ينتهي في أسمائه وصفاته إلى حيث ورد التوقيف. وقال الطرمّاح:

تَبَارَكَتْ لَا مُعْطٍ لشيءٍ مِنْهُ      وليس لما أُعْطِيَ يَا رَبَّ مانع

وقال آخر:

تَبَارَكَتْ مَا تَقْدِرُ بِقَعٍ وَلَكَ الشُّكْرُ

قلت: قد ذكر بعض العلماء في أسمائه الحسنی «المبارك» وذكرناه أيضاً في كتابنا. فإن كان وقع اتفاق على أنه لا يقال فيسلم للإجماع، وإن كان وقع فيه اختلاف فكثير من الأسماء اختلف في عدّه؛ كالدهر وغيره. وقد نبهنا على ذلك هنالك، والحمد لله.

و «الفرقان» القرآن. وقيل: إنه أسم لكل منزل؛ كما قال: «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ». وفي تسميته فرقاناً وجهان: أحدهما - لأنه فرق بين الحق والباطل، والمؤمن والكافر. الثاني - لأن فيه بيان ما شرع من حلال وحرام؛ حكاة النقاش. «عَلَى عَبْدِهِ» يريد محمداً ﷺ. «لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا» أسم «يكون» مضمّر يعود على «عبدِهِ» وهو أولى لأنه أقرب إليه. ويجوز أن يكون يعود على «الفرقان». وقرأ عبد الله بن الزبير «على عَبْدِهِ». ويقال: أنذر إذا خوف؛ وقد تقدم في أول «البقرة»<sup>(١)</sup>. والنذير: المحذّر من الهلاك. الجوهرى: والنذير المنذر، والنذير الإنذار. والمراد بـ «الْعَالَمِينَ» هنا الإنس والجن، لأن النبي ﷺ قد كان رسولاً إليهما، ونذيراً لهما، وأنه خاتم الأنبياء، ولم يكن غيره عام الرسالة إلا نوح فإنه عمّ برسالته جميع الإنس بعد الطوفان، لأنه بدأ به الخلق.

قوله تعالى: «الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» عظم تعالى نفسه. «وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا» نزه سبحانه وتعالى نفسه عما قاله المشركون من أن الملائكة أولاد الله؛ يعني بنات الله سبحانه وتعالى. وعما قالت اليهود: عزيز ابن الله؛ جلّ الله تعالى. وعما قالت النصارى: المسيح ابن الله؛ تعالى الله عن ذلك. «وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ» كما قال عبدة الأوثان.

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ لا كما قال المجوس والنسوية: إن الشيطان أو الظلمة يخلق بعض الأشياء. ولا كما يقول من قال: للمخلوق قدرة الإيجاد. فالآية ردٌّ على هؤلاء. ﴿فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ أي قدر كل شيء مما خلق بحكمته على ما أراد، لا عن سهوة وغفلة، بل جرت المقادير على ما خلق الله إلى يوم القيامة وبعد القيامة، فهو الخالق المقدر؛ فإياه فأعبدوه.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ ذكر ما صنع المشركون على جهة التعجيب في اتخاذهم الآلهة، مع ما أظهر من الدلالة على وحدانيته وقدرته. ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾ يعني الآلهة. ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ لما اعتقد المشركون فيها أنها تضر وتنفع، عبر عنها كما يعبر عما يعقل. ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِنَفْسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي لا دفع ضرر وجلب نفع، فحذف المضاف. وقيل: لا يقدر أن يضرروا أنفسهم أو ينفعوها بشيء، ولا لمن يعبدهم، لأنها جمادات. ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ أي لا يميئون أحداً، ولا يحيونه. والنشور: الإحياء بعد الموت؛ أنشر الله الموتى فنشروا. وقد تقدم<sup>(١)</sup>. وقال الأعشى:

حتى يقول الناسُ مما رأوا يا عجباً للميئتِ النَّاشِرِ

[٤] ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾.

[٥] ﴿وَقَالُوا أَسْطِطِعُ الْأُولَىٰ أَسْتَبِيحُ فِيهَا تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾.

[٦] ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُمْ كَانَ عَفْوَ رَحِيمًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني مشركي قريش. وقال ابن عباس: القائل منهم ذلك النضر بن الحرث؛ وكذا كل ما في القرآن فيه ذكر الأساطير. قال محمد بن إسحاق: وكان مؤذياً للنبي ﷺ. ﴿إِنْ هَذَا﴾ يعني القرآن. ﴿إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ﴾ أي كذب اختلقه. ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ يعني اليهود؛ قاله مجاهد. وقال ابن عباس:

المراد بقوله ﴿قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ أبو فُكَيْهَة مولى بني الحضرمي وعدّاس وجبر، وكان هؤلاء الثلاثة من أهل الكتاب. وقد مضى في ﴿النحل﴾<sup>(١)</sup> ذكرهم. ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا﴾ أي بظلم. وقيل: المعنى فقد أتوا ظلمًا. ﴿وَزُورًا﴾. وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ قال الزجاج: واحد الأساطير أسطورة؛ مثل أحداثثة وأحاديث. وقال غيره: أساطير جمع أسطار؛ مثل أقوال وأقاويل. ﴿أَكْتَتَبَهَا﴾ يعني محمداً. ﴿فَهِيَ تُنَمِّلِي عَلَيْهِ﴾ أي تلقى عليه وتقرأ. ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ حتى تحفظ. و﴿تملى﴾ أصله تُملّل؛ فأبدلت اللام الأخيرة ياء من التضعيف؛ كقولهم: تَقَضَّى البازي؛ وشبهه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي قل يا محمد أنزل هذا القرآن الذي يعلم السر، فهو عالم الغيب، فلا يحتاج إلى معلم. وذكر ﴿السر﴾ دون الجهر؛ لأنه من علم السر فهو في الجهر أعلم. ولو كان القرآن مأخوذاً من أهل الكتاب وغيرهم لما زاد عليها، وقد جاء بفنون تخرج عنها، فليس مأخوذاً منها. وأيضاً ولو كان مأخوذاً من هؤلاء لتمكن المشركون منه أيضاً كما تمكن محمد ﷺ؛ فهلا عارضوه فبطل أعتراضهم من كل وجه. ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ يريد غفوراً لأوليائه رحيماً بهم.

[٧] ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَهُهُ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾.

[٨] ﴿أَوْ يُنْفَخِ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾. فيه مسألتان:

الأولى - قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا﴾ ذكر شيئاً آخر من مطاعنهم. والضمير في ﴿قالوا﴾ لقريش؛ وذلك أنهم كان لهم مع رسول الله ﷺ مجلس مشهور، وقد تقدّم

في ﴿سَبْحَانَ﴾<sup>(١)</sup>. ذكره ابن إسحاق في السيرة وغيره. مضمونه - أن سادتهم عتبة بن ربيعة وغيره اجتمعوا معه فقالوا: يا محمدا! إن كنت تحب الرياسة وليناك علينا، وإن كنت تحب المال جمعنا لك من أموالنا؛ فلما أبى رسول الله ﷺ عن ذلك رجعوا في باب الاحتجاج معه فقالوا: ما بالك وأنت رسول الله تأكل الطعام، وتقف بالأسواق! فعبروه بأكل الطعام؛ لأنهم أرادوا أن يكون الرسول ملكاً، وعبروه بالمشي في الأسواق حين رأوا الأكاسرة والقيصرة والملوك الجبابرة يترفعون عن الأسواق، وكان عليه السلام يخالطهم في أسواقهم، ويأمرهم وينهاهم؛ فقالوا: هذا يطلب أن يملك علينا، فما له يخالف سيرة الملوك؛ فأجابهم الله بقوله، وأنزل على نبيه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ فلا تغتم ولا تحزن، فإنها شكاة ظاهر عنك عارها.

الثانية - دخول الأسواق مباح للتجارة وطلب المعاش. وكان عليه السلام يدخلها لحاجته، ولتذكرة الخلق بأمر الله ودعوته، ويعرض نفسه فيها على القبائل، لعل الله أن يرجع بهم إلى الحق. وفي البخاري في صفته عليه السلام: «ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق» وقد تقدّم في ﴿الأعراف﴾<sup>(٢)</sup>. وذكر السوق مذكور في غير ما حديث، ذكره أهل الصحيح. وتجارة الصحابة فيها معروفة، وخاصة المهاجرين؛ كما قال أبو هريرة: وإن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصَّفَقُ<sup>(٣)</sup> بالأسواق؛ خرج به البخاري. وسيأتي لهذه المسألة زيادة بيان في هذه السورة إن شاء الله.

قوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾ أي هلاً. ﴿فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ جواب الاستفهام. ﴿أَوْ يُلْقَى﴾ في موضع رفع؛ والمعنى: أو هلاً يلقي ﴿إِلَيْهِ كَثْرًا﴾ ﴿أَوْ﴾ هلاً ﴿تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ ﴿يَأْكُلُ﴾ بالياء قرأ المدنيون وأبو عمرو وعاصم. وقرأ سائر الكوفيين بالنون، والقراءتان حسنتان تؤديان عن معنى، وإن كانت القراءة بالياء أبين؛ لأنه

(١) راجع ٣٢٨/١٠ طبعة أولى أو ثانية. (٢) راجع ٢٩٩/٧ طبعة أولى أو ثانية.

(٣) الصَّفَق: التبايع.

قد تقدم ذكر النبي ﷺ وحده فإن يعود الضمير عليه أبين؛ ذكره النحاس. ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنَّا تَبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ تقدم في ﴿سبحان﴾<sup>(١)</sup> والقائل عبد الله بن الزبير في ما ذكره الماوردي.

[٩] ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾.

[١٠] ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيجعلُ لَكَ قَصُورًا﴾.

قوله تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ أي ضربوا لك هذه الأمثال ليتوصلوا إلى تكذيبك. ﴿فَضَلُّوا﴾ عن سبيل الحق وعن بلوغ ما أرادوا. ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ إلى تصحيح ما قالوه فيك.

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ﴾ شرط ومجازاة، ولم يدغم ﴿جَعَلَ لَكَ﴾ لأن الكلمتين منفصلتان، ويجوز الإدغام لاجتماع المثليين. ﴿وَيَجْعَلُ لَكَ﴾ في موضع جزم عطفاً على موضع ﴿جَعَلَ﴾. ويجوز أن يكون في موضع رفع مقطوعاً من الأول. وكذلك قرأ أهل الشام. ويروى عن عاصم أيضاً ﴿وَيَجْعَلُ لَكَ﴾ بالرفع؛ أي وسيجعل لك في الآخرة قصوراً. قال مجاهد: كانت قريش ترى البيت من حجارة قصراً كائناً ما كان. والقصر في اللغة الحبس، وسمي القصر قصراً لأن من فيه مقصور عن أن يوصل إليه. وقيل: العرب تسمي بيوت الطين القصر. وما يتخذ من الصوف والشعر البيت. حكاه القشيري. وروى سفيان عن حبيب بن أبي ثابت عن خيثمة قال: قيل للنبي ﷺ: إن شئت أن نعطيك خزائن الدنيا ومفاتيحها ولم يعطَ ذلك من قبلك ولا يعطاه أحد بعدك، وليس ذلك بناقصك في الآخرة شيئاً؛ وإن شئت جمعنا لك ذلك في الآخرة؛ فقال: «يجمع ذلك لي في الآخرة» فأنزل الله عز وجل: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا

مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا. ويروى أن هذه الآية أنزلها رضوان خازن الجنان إلى النبي ﷺ ؛ وفي الخبر : إن رضوان لما نزل سلم على النبي ﷺ ؛ ثم قال : يا محمدا رب العزة يقرئك السلام، وهذا سَفَطٌ <sup>(١)</sup> - فإذا سَفَط من نور يتلألأ - يقول لك ربك : هذه مفاتيح خزائن الدنيا، مع أنه لا ينقص مالك في الآخرة مثل جناح بعوضة؛ فنظر النبي ﷺ إلى جبريل كالمستشير له؛ فضرب جبريل بيده الأرض يشير أن تواضع؛ فقال : «يا رضوان لا حاجة لي فيها الفقر أحب إليّ وأن أكون عبداً صابراً شكوراً». فقال رضوان: أصبت! الله لك. وذكر الحديث.

[١١] ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ <sup>(١١)</sup>.

[١٢] ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا﴾ <sup>(١٢)</sup>.

[١٣] ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّبِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ <sup>(١٣)</sup>.

[١٤] ﴿لَا نَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ <sup>(١٤)</sup>.

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ يريد يوم القيامة. ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ يريد جهنم تتلظى عليهم. ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي من مسيرة خمسمائة عام. ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا﴾ قيل: المعنى إذا رأتهم جهنم سمعوا لها صوت التغيظ عليهم. وقيل: المعنى إذا رأتهم خزائنها سمعوا لهم تغيظاً وزفيراً حرصاً على عذابهم. والأول أصح؛ لما روي مرفوعاً أن رسول الله ﷺ قال: «من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ بين عيني جهنم مقعداً» قيل: يا رسول الله! ولها عينان؟ قال: «أما سمعتم الله عز وجل يقول: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا﴾ يخرج عُق من النار له عينان تبصران ولسان ينطق فيقول وُكَلَّتْ بكل من جعل مع الله إلهاً آخر فلهو أبصر بهم من الطير يحب السمسم فيلتقطه» في رواية «فيخرج عُق من النار فيلتقط الكفار لقط الطائر حب

(١) السفط: الذي يعى فيه الطيب وما أشبهه من أدوات النساء. وقيل: كالجوالق.



فتوضع على حاجبيه ويسحبها من خلفه وذريته من خلفه وهو يقول واثبورا<sup>(١)</sup>.  
وأنصب على المصدر، أي ثبورا ثبوراً؛ قاله الزجاج. وقال غيره: هو مفعول به.

قوله تعالى: ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً﴾ فإن هلاككم أكثر من أن تدعوا مرة واحدة. وقال ثبوراً لأنه مصدر يقع للقليل والكثير فلذلك لم يجمع؛ وهو كقولك: ضربته ضرباً كثيراً، وقعد قعوداً طويلاً. ونزلت الآيات في ابن خطل وأصحابه.

[١٥] ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيراً﴾.

[١٦] ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَتْ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولا﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾. إن قيل: كيف قال ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ﴾ ولا خير في النار؛ فالجواب أن سيويه حكى عن العرب: الشقاء أحب إليك أم السعادة، وقد علم أن السعادة أحب إليه. وقيل: ليس هو من باب أفعل منك، وإنما هو كقولك: عنده خير. قال النحاس: وهذا قول حسن؛ كما قال<sup>(١)</sup>:

فشَرُّكُمْا لخيرٍ كَمَا الْفِدَاءُ

قيل: إنما قال ذلك لأن الجنة والنار قد دخلتا في باب المنازل؛ فقال ذلك لتفاوت ما بين المنزلتين. وقيل: هو مردود على قوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذَلِكَ﴾ الآية. وقيل: هو مردود على قوله: ﴿أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾. وقيل: إنما قال ذلك على معنى علمكم واعتقادكم أيها الكفار؛ وذلك أنهم لما كانوا يعملون عمل أهل النار صاروا كأنهم يقولون إن في النار خيراً.

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ أي من النعيم. ﴿خَالِدِينَ كَانَتْ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولا﴾ قال الكلبي: وعد الله المؤمنين الجنة جزاء على أعمالهم، فسألوه ذلك الوعد فقالوا: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾. وهو معنى قول ابن عباس. وقيل: إن الملائكة تسأل لهم

(١) هو حسان بن ثابت - رضي الله عنه - يمدح النبي ﷺ ويهجو أبا سفيان، وصدر البيت:

أتهجروه ولسنت له بكف

الجنة؛ دليله قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾ الآية. وهذا قول محمد بن كعب القرظي. وقيل: معنى ﴿وَعَدَا مَسْؤُولًا﴾ أي واجباً وإن لم يكن يسأل كالذين؛ حكى عن العرب: لأعطينك ألفاً. وقيل: ﴿وَعَدَا مَسْؤُولًا﴾ يعني أنه واجب لك فتسأله. وقال زيد بن أسلم: سألوا الله الجنة في الدنيا ورغبوا إليه بالدعاء، فأجابهم في الآخرة إلى ما سألوا وأعطاهم ما طلبوا. وهذا يرجع إلى القول الأول.

[١٧] ﴿وَيَوْمَ يَخْشَرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ۝﴾.

[١٨] ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ۝﴾.

[١٩] ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمِ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَخْشَرُهُمْ﴾ قرأ ابن محيصن وحמיד وأبن كثير وحفص ويعقوب وأبو عمرو في رواية الدوري ﴿يَخْشَرُهُمْ﴾ بالياء. وأختره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لقوله في أول الكلام ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ﴾ وفي آخره ﴿أَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ﴾. الباقيون بالنون على التعظيم. ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الملائكة والإنس والجن والمسيح وعُزير؛ قاله مجاهد وأبن جريج. الضحاك وعكرمة: الأصنام. ﴿فَيَقُولُ﴾ قراءة العامة بالياء وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم. وقرأ ابن عامر وأبو حيوة بالنون على التعظيم. ﴿أَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ وهذا أستفهام توبيخ للكفار. ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ أي قال المعبودون من دون الله سبحانه؛ أي تنزيهاً لك ﴿مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾. فإن قيل: فإن كانت الأصنام التي تعبد تحشر فكيف تنطق وهي جماد؟ قيل له: ينطقها الله تعالى يوم القيامة كما ينطق الأيدي والأرجل. وقرأ الحسن وأبو جعفر ﴿أَنْ نَتَّخِذَ﴾ بضم النون وفتح الخاء على الفعل المجهول. وقد تكلم في هذه القراءة النحويون؛ فقال أبو عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر:

لا يجوز ﴿تُتَّخَذَ﴾. وقال أبو عمرو: لو كانت ﴿تُتَّخَذَ﴾ لحذفت ﴿مِنْ﴾ الثانية فقلت: أن تُتَّخَذَ من دونك أولياء. كذلك قال أبو عبيدة: لا يجوز ﴿تُتَّخَذَ﴾ لأن الله تعالى ذكر ﴿مِنْ﴾ مرتين، ولو كان كما قرأ لقال: أن تُتَّخَذَ من دونك أولياء. وقيل: إن ﴿مِنْ﴾ الثانية صلة؛ قال النحاس: ومثل أبي عمرو على جلالته ومحلّه يستحسن ما قال؛ لأنه جاء بيينة. وشرح ما قال أنه يقال: ما أتخذت رجلاً وليّاً؛ فيجوز أن يقع هذا للواحد بعينه؛ ثم يقال: ما أتخذت من رجل وليّاً فيكون نفيّاً عاماً، وقولك ﴿ولياً﴾ تابع لما قبله فلا يجوز أن تدخل فيه ﴿مِنْ﴾ لأنه لا فائدة في ذلك. ﴿وَلَكِنْ مَتَّعْتُهُمْ وَآبَاءَهُمْ﴾ أي في الدنيا بالصحة والغنى وطول العمر بعد موت الرسل صلوات الله عليهم. ﴿حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ﴾ أي تركوا ذكرك فأشركوا بك بطراً وجهلاً فعبدونا من غير أن أمرناهم بذلك. وفي الذكر قولان: أحدهما - القرآن المنزل على الرسل؛ تركوا العمل به؛ قاله ابن زيد. الثاني - الشكر على الإحسان إليهم والإنعام عليهم. إنهم ﴿كَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ أي هلكى؛ قاله ابن عباس. مأخوذ من البوار وهو الهلاك. وقال أبو الدرداء رضي الله عنه وقد أشرف على أهل حمص: يا أهل حمص! هلم إلى أخ لكم ناصح، فلما اجتمعوا حوله قال: ما لكم لا تستحون! تبون ما لا تسكنون، وتجمعون ما لا تأكلون، وتأملون ما لا تدركون، إن من كان قبلكم بنوا مشيداً وجمعوا عبيداً، وأملوا بعيداً، فأصبح جمعهم بوراً، وآمالهم غروراً، ومسكنهم قبوراً؛ فقلوه ﴿بوراً﴾ أي هلكى. وفي خبر آخر: فأصبحت منازلهم بوراً؛ أي خالية لا شيء فيها. وقال الحسن: ﴿بوراً﴾ لا خير فيهم. مأخوذ من بوار الأرض، وهو تعطيلها من الزرع فلا يكون فيها خير. وقال شهر بن حوشب: البوار الفساد والكساد؛ مأخوذ من قولهم: بارت السلعة إذا كسدت كساد الفاسد؛ ومنه الحديث «نعوذ بالله من بوار الأيام». وهو أسم مصدر كالزور يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع والمذكر والمؤنث. قال ابن الزبعرى:

يا رسولَ الملِكِ إنَّ لسانِي	رَأَيْتُ مَا فَتَقْتُ إِذْ أَنَا بُورُ
إِذَا بَارِي الشَّيْطَانِ فِي سَنَنِ الْغَدِ	نَسِيَّ وَمَنْ مَالَ مَيْلَهُ مَبُورُ

وقال بعضهم: الواحد باثر والجمع بُور. كما يقال: عائد وعُود، وهائد وهُود. وقيل: «بُوراً» عمياً عن الحق.

قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ﴾ أي يقول الله تعالى عند تبري المعبودين: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ﴾ أي في قولكم إنهم آلهة. ﴿فَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ يعني الآلهة صرف العذاب عنكم ولا نصركم. وقيل: فما يستطيع هؤلاء الكفار لما كذبهم المعبودون ﴿صَرَفًا﴾ للعذاب ﴿وَلَا نَصْرًا﴾ من الله. وقال ابن زيد: المعنى فقد كذبكم أيها المؤمنون هؤلاء الكفار بما جاء به محمد؛ وعلى هذا فمعنى ﴿بما تقولون﴾ بما تقولون من الحق. وقال أبو عبيد: المعنى؛ فيما تقولون فما يستطيعون لكم صرفاً عن الحق الذي هداكم الله إليه، ولا نصراً لأنفسهم مما ينزل بهم من العذاب بتكذيبهم إياكم. وقراءة العامة ﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾ بالياء على الخطاب. وقد بينا معناه. وحكى الفراء أنه يقرأ ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ﴾ مخففاً، ﴿بِمَا يَقُولُونَ﴾. وكذا قرأ مجاهد والبرقي بالياء، ويكون معنى ﴿يَقُولُونَ﴾ بقولهم. وقرأ أبو حنيفة ﴿بِمَا يَقُولُونَ﴾ بياء ﴿فَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ بياء على الخطاب لمتخذي الشركاء. ومن قرأ بالياء فالمعنى: فما يستطيع الشركاء. ﴿وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ﴾ قال ابن عباس: من يشرك منكم ثم مات عليه. ﴿نَذْفُهُ﴾ أي في الآخرة. ﴿عَذَابًا كَبِيرًا﴾ أي شديداً؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَنَّ عُلُوقًا كَبِيرًا﴾ أي شديداً.

[٢٠] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَشْرَبُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾

فيه تسع مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ نزلت جواباً للمشركين حيث قالوا: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾. وقال ابن عباس: لما عيّر المشركون رسول الله ﷺ بالفاقة وقالوا: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾

الآية حزن النبي ﷺ لذلك فنزلت تعزية له؛ فقال جبريل عليه السلام: السلام عليك يا رسول الله! الله ربك يقرئك السلام ويقول لك: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ أي يبتغون المعاش في الدنيا.

الثانية - قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ إذا دخلت اللام لم يكن في ﴿إِنْ﴾ إلا الكسر، ولو لم تكن اللام ما جاز أيضاً إلا الكسر؛ لأنها مستأنفة. هذا قول جميع النحويين. قال النحاس: إلا أن علي بن سليمان حكى لنا عن محمد بن يزيد قال: يجوز في ﴿إِنْ﴾ هذه الفتح وإن كان بعدها اللام؛ وأحسبه وهما منه. قال أبو إسحاق الزجاج: وفي الكلام حذف؛ والمعنى وما أرسلنا قبلك رسلاً إلا إنهم لَيَأْكُلُونَ الطعام، ثم حذف رسلاً، لأن في قوله: ﴿مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ما يدل عليه. فالموصوف محذوف عند الزجاج. ولا يجوز عنده حذف الموصول وتبقيّة الصلة كما قال الفراء. قال الفراء: والمحذوف ﴿مَنْ﴾ والمعنى إلا مَنْ إنهم لَيَأْكُلُونَ الطعام. وشبهه بقوله: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾، وقوله: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ أي ما منكم إلا من هو واردها. وهذا قول الكسائي أيضاً. وتقول العرب: ما بعثت إليك من الناس إلا مَنْ إنه ليطيعك. فقولك: إنه ليطيعك صلة من. قال الزجاج: هذا خطأ؛ لأن من موصولة فلا يجوز حذفها. وقال أهل المعاني: المعنى؛ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا قيل إنهم لَيَأْكُلُونَ؛ دليله قوله تعالى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾. وقال ابن الأنباري: كسرت ﴿إِنَّهُمْ﴾ بعد ﴿إِلَّا﴾ للاستئناف بإضمار واو. أي إلا وإنهم. وذهبت فرقة إلى أن قوله: ﴿لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ كناية عن الحدث.

قلت: وهذا بليغ في معناه، ومثله ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾. ﴿وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ قرأ الجمهور ﴿يَمْشُونَ﴾ بفتح الياء وسكون الميم وتخفيف الشين. وقرأ علي وأبن عوف وأبن مسعود بضم الياء وفتح الميم وشد الشين المفتوحة، بمعنى يُدْعَوْنَ إلى المشي ويحملون عليه. وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمِيُّ بضم الياء وفتح الميم وضم الشين المشددة، وهي بمعنى يَمْشُونَ؛ قال الشاعر:

وَمَشَى بِأَعْطَانِ الْمَبَاءَةِ وَأَبْتَنَى قَلَانَصَ مِنْهَا صَعْبَةً وَرَكُوبٌ<sup>(١)</sup>

وقال كعب بن زهير:

منه تظل سباع الجوّ ضامزة<sup>(٢)</sup> ولا تُمشي بواديه الأراجيلُ

بمعنى تمشي.

الثالثة - هذه الآية أصل في تناول الأسباب وطلب المعاش بالتجارة والصناعة وغير ذلك. وقد مضى هذا المعنى في غير موضع، لكننا نذكر هنا من ذلك ما يكفي فنقول: قال لي بعض مشايخ هذا الزمان في كلام جرى: إن الأنبياء عليهم السلام إنما بعثوا ليسنوا الأسباب للضعفاء؛ فقلت مجيباً له: هذا قول لا يصدر إلا من الجهال والأغبياء، والرعاع السفهاء، أو من طاعن في الكتاب والسنة العليا؛ وقد أخبر الله تعالى في كتابه عن أصفياه ورسله وأنبيائه بالأسباب والاختراف فقال وقوله الحق: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ﴾ وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ قال العلماء: أي يتجرون ويحترفون. وقال عليه الصلاة والسلام: «جُعِلَ رزقي تحت ظل رُمحي» وقال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ وكان الصحابة رضي الله عنهم يتجرون ويحترفون وفي أموالهم يعملون، ومن خالفهم من الكفار يقاتلون؛ أترأهم ضعفاء! بل هم كانوا والله الأقوياء، وبهم الخلف الصالح أقتدى، وطريقهم فيه الهدى والاهتداء. قال: إنما تناولوها لأنهم أئمة الاقتداء، فتناولوها مباشرة في حق الضعفاء، فأما في حق أنفسهم فلا؛ وبيان ذلك أصحاب الصفة.

قلت: لو كان ذلك لوجب عليهم وعلى الرسول معهم البيان؛ كما ثبت في القرآن ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى﴾ الآية. وهذا من البيّنات والهدى. وأما أصحاب الصفة فإنهم كانوا ضيف الإسلام

(١) في «روح المعاني»: «ذلّول» بدل «ركوب». (٢) الجوّ: البر الواسع. وضامزة: ساكنة، وكل ساكن فهو ضامز. والأراجيل: جمع أرجال كأنواعهم جمع أنعام، وأرجال جمع رجل. يصف الشاعر أسداً بأن الأسود والرجال تخافه، فالأسود ساكنة من هيئته والرجال ممّتنعة عن المشي بواديه.

عند ضيق الحال، فكان عليه السلام إذا أتته صدقة خصهم بها، وإذا أتته هدية أكلها معهم، وكانوا مع هذا يحتطبون ويسوقون الماء إلى أبيات رسول الله ﷺ. كذا وصفهم البخاري وغيره. ثم لما أفتتح الله عليهم البلاد ومهد لهم المهاد تأثروا، وبالأسباب أمروا. ثم إن هذا القول يدل على ضعف النبي ﷺ وأصحابه؛ لأنهم أيدوا بالملائكة وثبتوا بهم، فلو كانوا أقوياء ما احتاجوا إلى تأييد الملائكة وتأييدهم إذ ذلك سبب من أسباب النصر؛ نعوذ بالله من قول وإطلاق يؤول إلى هذا، بل القول بالأسباب والوسائط سنة الله وسنة رسوله، وهو الحق المبين، والطريق المستقيم الذي أنعقد عليه إجماع المسلمين؛ وإلا كان يكون قوله الحق: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ - الآية - مقصوراً على الضعفاء، وجميع الخطابات كذلك. وفي التنزيل حيث خاطب موسى الكليم ﴿اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ وقد كان قادراً على فلق البحر دون ضرب عصا. وكذلك مريم عليها السلام ﴿وَهْزِي إِلَيْكَ إِلْحَةً﴾ وقد كان قادراً على سقوط الرطب دون هز ولا تعب؛ ومع هذا كله فلا ننكر أن يكون رجل يلطف به ويعان، أو تجاب دعوته، أو يكرم بكرامة في خاصة نفسه أو لأجل غيره، ولا تهّد لذلك القواعد الكلية والأمور الجمالية. هيهات هيهات! لا يقال فقد قال الله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ فإنا نقول: صدق الله العظيم، وصدق رسوله الكريم، وأن الرزق هنا المطر بإجماع أهل التأويل؛ بدليل قوله: ﴿وَيَنْزِلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ وقال: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ ولم يشاهد ينزل من السماء على الخلق أطباق الخبز ولا جفان اللحم، بل الأسباب أصل في وجود ذلك؛ وهو معنى قوله عليه السلام: «أطلبوا الرزق في خبايا الأرض» أي بالحرث والحفر والغرس. وقد يسمى الشيء بما يؤول إليه، وسمي المطر رزقاً لأنه عنه يكون الرزق، وذلك مشهور في كلام العرب. وقال عليه السلام: «لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يسأل أحداً أعطاه أو منعه» وهذا فيما خرج من غير تعب من الحشيش والحطب. ولو قُدِّرَ رجل بالجبال منقطعاً عن الناس لما كان له بد من الخروج إلى ما تخرجه الآكام وظهور الأعلام حتى يتناول من ذلك ما يعيش به؛

وهو معنى قوله عليه السلام: «لو أنكم كنتم تاكلون على الله حق توكله لرزقتم كما تُرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً» فغدوها ورواحها سبب؛ فالعجب العجب ممن يدعي التجريد والتوكل على التحقيق، ويقعد على ثنيات الطريق، ويدع الطريق المستقيم، والمنهج الواضح القويم. ثبت في «البخاري» عن ابن عباس قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون نحن المتوكلون، فإذا قدموا سألوا الناس؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا﴾. ولم ينقل عن النبي ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم أنهم خرجوا إلى أسفارهم بغير زاد، وكانوا المتوكلين حقاً. والتوكل اعتماد القلب على الرب في أن يلم شعثه ويجمع عليه أربه؛ ثم يتناول الأسباب بمجرد الأمر. وهذا هو الحق. سأل رجل الإمام أحمد بن حنبل فقال: إني أريد الحج على قدم التوكل. فقال: أخرج وحدك؛ فقال: لا، إلا مع الناس. فقال له: أنت إذن متكل على أجريتهم. وقد أتينا على هذا في كتاب «قمع الحرص بالزهد والقناعة وردّ ذلّ السؤال بالكتب والشفاعة».

الرابعة - خرج مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أحب البلاد إلى الله مساجدها وأبغض البلاد إلى الله أسواقها». وخرج البزار عن سلمان الفارسي قال قال رسول الله ﷺ: «لا تكونن إن أستطعت أوّل من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها فإنها معركة الشيطان وبها ينصب رايته». أخرجه أبو بكر البرقاني مسنداً عن أبي محمد عبد الغني بن سعيد الحافظ - من رواية عاصم - عن أبي عثمان النهدي عن سلمان قال قال رسول الله ﷺ: «لا تكن أوّل من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها فبها باض الشيطان وفرخ». ففي هذه الأحاديث ما يدل على كراهة دخول الأسواق، لا سيما في هذه الأزمان التي يخالط فيها الرجال النسوان. وهكذا قال علماؤنا لما كثر الباطل في الأسواق وظهرت فيها المناكر: كره دخولها لأرباب الفضل والمقتدى بهم في الدين تنزيهاً لهم عن البقاع التي يُعصى الله فيها. فحق على من ابتلاه الله بالسوق أن يخطر بباله أنه قد دخل محلّ الشيطان ومحل جنوده، وأنه إن أقام هناك هلك، ومن كانت هذه حاله أقنصر منه على قدر ضرورته، وتحرز من سوء عاقبته وبليته.

الخامسة - تشبيه النبي ﷺ السوق بالمعركة تشبيه حسن؛ وذلك أن المعركة موضع القتال، سمي بذلك لتعارك الأبطال فيه، ومصارعة بعضهم بعضاً. فشبه السوق وفعل الشيطان بها ونيله منهم مما يحملهم من المكر والخديعة، والتساهل في البيوع الفاسدة والكذب والأيمان الكاذبة، واختلاط الأصوات وغير ذلك بمعركة الحرب ومن يصرع فيها.

السادسة - قال ابن العربي: أما أكل الطعام فضرورة الخلق لا عار ولا درك<sup>(١)</sup> فيه، وأما الأسواق فسمعت مشيخة أهل العلم يقولون: لا يدخل إلا سوق الكتب والسلاح، وعندي أنه يدخل كل سوق للحاجة إليه ولا يأكل فيها؛ لأن ذلك إسقاط للمروءة وهدم للحشمة؛ ومن الأحاديث الموضوعة<sup>(٢)</sup> «الأكل في السوق دناءة».

قلت: ما ذكرته مشيخة أهل العلم فنعماً هو؛ فإن ذلك خالٍ عن النظر إلى النسوان ومخالطتهن؛ إذ ليس بذلك من حاجتهن. وأما غيرهما من الأسواق فمشحونة منهن، وقلة الحياء قد غلبت عليهن، حتى ترى المرأة في القيساريات وغيرهن قاعدة متبرجة بزينتها، وهذا من المنكر الفاشي في زماننا هذا. نعوذ بالله من سخطه.

السابعة - خرج أبو داود الطيالسي في مسنده حدثنا حماد بن زيد قال حدثنا عمرو بن دينار قهرمان<sup>(٣)</sup> آل الزبير عن سالم عن أبيه عن عمر بن الخطاب قال: «من دخل سوقاً من هذه الأسواق فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير كتب الله له ألف ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف سيئة وبنى له قصرًا في الجنة» خرجه الترمذي أيضاً وزاد بعد «ومحا عنه ألف ألف سيئة»: «ورفع له ألف ألف درجة وبنى له بيتاً في الجنة». وقال: هذا حديث غريب. قال ابن العربي: وهذا إذا لم يقصد في تلك البقعة سواه<sup>(٤)</sup> ليعمرها بالطاعة إذ عمرت بالمعصية، وليحليها بالذكر إذ عطلت بالغفلة، وليعلم الجهلة ويذكر الناسين.

(١) الدرك (يسكن ويحرك): التبعة.

(٢) الحديث رواه الطبراني عن أبي أمامة والخطيب عن أبي هريرة وضعفه السيوطي.

(٣) القهرمان: هو كالحازن والوكيل الحافظ لما تحت يده والقائم بأمور الرجل، بلغة الفرس.

(٤) سواه: أي سوى الله تعالى.

الثامنة - قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ أي إن الدنيا دار بلاء وأمتحان، فأراد سبحانه أن يجعل بعض العبيد فتنة لبعض على العموم في جميع الناس مؤمن وكافر، فالصحيح فتنة للمريض، والغني فتنة للفقير، والفقير الصابر فتنة للغني. ومعنى هذا أن كل واحد مختبر بصاحبه؛ فالغني ممتحن بالفقير، عليه أن يواسيه ولا يسخر منه. والفقير ممتحن بالغني، عليه ألا يحسده ولا يأخذ منه إلا ما أعطاه، وأن يصبر كل واحد منهما على الحق؛ كما قال الضحاك في معنى ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾: أي على الحق. وأصحاب البلايا يقولون: لِمَ لم نعاف؟ والأعمى يقول: لم لم أجعل كالبصير؟ وهكذا صاحب كل آفة. والرسول المخصوص بكرامة النبوة فتنة لأشراف الناس من الكفار في عصره. وكذلك العلماء وحكام العدل. ألا ترى إلى قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾. فالفتنة أن يحسد المبتلى المعافى، ويحقّر المعافى المبتلى. والصبر: أن يحبس كلاهما نفسه، هذا عن البطر، وذاك عن الضجر. ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ محذوف الجواب، يعني أم لا تصبرون. فيقتضي جواباً كما قاله المزني، وقد أخرجه الفاقة فرأى خصياً في مراكب ومناكب، فخطر بباله شيء فسمع من يقرأ الآية ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ فقال: بلى ربنا! نصبر ونحتسب. وقد تلا ابن القاسم صاحب مالك هذه الآية حين رأى أشهب بن عبد العزيز في مملكته عابراً عليه، ثم أجاب نفسه بقوله: سنصبر. وعن أبي الدرداء أنه سمع النبي ﷺ أنه قال: «ويل للعالم من الجاهل وويل للجاهل من العالم وويل للمالك من المملوك وويل للمملوك من المالك وويل للشديد من الضعيف وويل للضعيف من الشديد وويل للسلطان من الرعية وويل للرعية من السلطان وبعضهم لبعض فتنة وهو قوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ أسنده الثعلبي تغمده الله برحمته. وقال مقاتل: نزلت في أبي جهل بن هشام والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل، وعقبة بن أبي معيط وعُتْبة بن ربيعة والنضر بن الحرث حين رأوا أبا ذرّ وعبد الله بن مسعود، وعماراً وبلالاً وصُهَيْباً وعامر بن فهيرة، وسالمأ مولى أبي حذيفة ومُهْجَعاً مولى عمر بن الخطاب وجبراً مولى الحَضْرَمي، وذويهم؛ فقالوا على سبيل الاستهزاء: أنسلم فنكون مثل هؤلاء؟ فأنزل الله تعالى يخاطب هؤلاء

المؤمنين: ﴿اتَّصِرُونَ﴾ على ما ترون من هذه الحال الشديدة والفقر؛ فالتوقيف بـ ﴿اتَّصِرُونَ﴾ خاص للمؤمنين المحققين من أمة محمد ﷺ. كأنه جعل إمهال الكفار والتوسعة عليهم فتنة للمؤمنين، أي اختباراً لهم. ولما صبر المسلمون أنزل الله فيهم ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾.

الناسعة - قوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بِصِيرًا﴾ أي بكل أمرىء ويمن يصبر أو يجزع، ومن يؤمن ومن لا يؤمن، ويمن أدى ما عليه من الحق ومن لا يؤدى. وقيل: ﴿اتَّصِرُونَ﴾ أي أصبروا. مثل ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ أي انتهوا؛ فهو أمر للنبي ﷺ بالصبر.

[٢١] ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُوتُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾.

[٢٢] ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَّحْجُورًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ يريد لا يخافون البعث ولقاء الله، أي لا يؤمنون بذلك. قال:

إذا لَسَعَتْهُ النحلُ لم يَرْجُ لَسَعَهَا  
وخالَفَهَا في بيت نُوبٍ عَوامِلُ<sup>(١)</sup>  
وقيل: ﴿لَا يَرْجُونَ﴾ لا يبالون. قال:

لعمرك ما أرجو إذا كنتُ مُسْلِمًا  
على أيِّ جَنبٍ كان في الله مَضْرَعِي<sup>(٢)</sup>  
أبن شجرة: لا يأملون؛ قال:

اترجو أُمَّةً قَتَلَتْ حَسِينًا  
شفاعةَ جدّه يومَ الحسابِ  
﴿لَوْلَا أُنْزِلَ﴾ أي هلا أنزل. ﴿عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ﴾ فيخبروا أن محمداً صادق. ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ عياناً فيخبرنا برسالته. نظيره قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ

(١) البيت لأبي ذؤيب وتقدّم شرحه في ٣١١/٨ طبعة أولى أو ثانية.

(٢) البيت من قصيدة لخبيب بن عدي قالها حين بلغه أن الكفار قد اجتمعوا للصلبه.



وقال آخر:

حَتَّتْ إِلَى النَّخْلَةِ الْقُصْوَى فَقَلَّتْ لَهَا حِجْرٌ حَرَامٌ أَلَّا تِلْكَ الدَّهَارِيسُ<sup>(١)</sup>

وروي عن الحسن أنه قال: ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا﴾ وقفت من قول المجرمين؛ فقال الله عز وجل: ﴿مَحْجُورًا﴾ عليهم أن يعاذوا أو يجاروا؛ فحجر الله ذلك عليهم يوم القيامة. والأول قول ابن عباس وبه قال الفراء؛ قاله ابن الأنباري. وقرأ الحسن وأبو رجاء ﴿حُجْرًا﴾ بضم الحاء والناس على كسر ها. وقيل: إن ذلك من قول الكفار قالوه لأنفسهم؛ قاله قتادة فيما ذكر الماوردي. وقيل: هو من قول الكفار للملائكة. وهي كلمة أستعاذة وكانت معروفة في الجاهلية؛ فكان إذا لقي الرجل من يخافه قال: حجراً محجوراً؛ أي حراماً عليك التعرض لي. وأنتصابه على معنى: حجرت عليك، أو حجر الله عليك؛ كما تقول: سقياً ورعياً. أي إن المجرمين إذا رأوا الملائكة يلقونهم في النار قالوا: نعوذ بالله منكم؛ ذكره القشيري، وحكى معناه المهدوي عن مجاهد. وقيل: ﴿حِجْرًا﴾ من قول المجرمين. ﴿مَحْجُورًا﴾ من قول الملائكة؛ أي قالوا للملائكة نعوذ بالله منكم أن تتعرضوا لنا. فتقول الملائكة: ﴿مَحْجُورًا﴾ أن تعاذوا من شر هذا اليوم؛ قاله الحسن.

[٢٣] ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾.

[٢٤] ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ ذَلِكَ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ﴾ هذا تنبيه على عظم قدر يوم القيامة؛ أي قصدنا في ذلك إلى ما كان يعمل المجرمون من عمل بر عند أنفسهم. يقال: قدم فلان إلى أمر كذا أي قصده. وقال مجاهد: ﴿قَدِمْنَا﴾ أي عمدنا. وقال الراجز:

وَقَدِمَ الْخَوَارِجُ الضُّلَالُ إِلَى عِبَادِ رَبِّهِمْ فَقَالُوا  
إِنْ دِمَاءُكُمْ لَنَا حَلَالٌ

(١) البيت للمتلئس؛ والنخلة القصوى: واد. والدهاريس: الدواهي. يقول لناقته: هذا الذي حنت

إليه ممنوع. وبعده:

أُمِّي شَامِيَةٌ إِذَا عَرَأَقَ لَنَا قَوْمًا نُوَدِّعُهُمْ إِذْ قَوْمُنَا شَوْسُ



من النصراني؛ فعلى هذا كلام العرب. و ﴿مُسْتَقَرًّا﴾ نصب على الظرف إذا قدر على غير باب «أفعل منك» والمعنى لهم خير في مستقر. وإذا كان من باب «أفعل منك» فانتصابه على البيان؛ قاله النحاس والمهدوي. قال قتادة ﴿وأحسن مقيلاً﴾ منزلاً وماوى. وقيل: هو على ما تعرفه العرب من مقييل نصف النهار. ومنه الحديث المرفوع «إن الله تبارك وتعالى يفرغ من حساب الخلق في مقدار نصف يوم فيَقِيلُ أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار» ذكره المهدوي. وقال ابن مسعود: لا ينتصف النهار يوم القيامة من نهار الدنيا حتى يقيل هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار، ثم قرأ ﴿ثم إن مقيلهم لإلى الجحيم﴾ كذا هي في قراءة ابن مسعود. وقال ابن عباس: الحساب من ذلك اليوم في أوله، فلا ينتصف النهار من يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار. ومنه ما روى «قِيلُوا فَإِن الشياطين لا تَقِيلُ». وذكر قاسم بن أصبغ من حديث أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ: «في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة» فقلت: ما أطول هذا اليوم. فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده إنه ليخفف عن المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة المكتوبة يصلها في الدنيا».

[٢٥] ﴿وَيَوْمَ تَشْقُقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَتُزَلُّ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾.

[٢٦] ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشْقُقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ﴾ أي وأذكر يوم تشقق السماء بالغمام. وقرأه عاصم والأعمش ويحيى وحمزة والكسائي وأبو عمرو ﴿تَشْقُقُ﴾ بتخفيف الشين وأصله تشقق بتائين فحذفوا الأولى تخفيفاً، وأختره أبو عبيد. الباكون ﴿تَشْقُقُ﴾ بتشديد الشين على الإدغام، وأختره أبو حاتم. وكذلك في ﴿ق﴾<sup>(١)</sup>. ﴿بِالْغَمَامِ﴾ أي عن الغمام. والباء وعن يتعاقبان؛ كما تقول: رميت بالقوس وعن القوس. روي أن السماء تشقق عن سحب

(١) في قوله تعالى: ﴿يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً...﴾ آية ٤٤.

أبيض رقيق مثل الضباب، ولم يكن إلا لبني إسرائيل في تبهم فتشق السماء عنه؛ وهو الذي قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾. ﴿وَنَزَلَ الْمَلَائِكَةُ﴾ من السموات، ويأتي الرب جل وعز في الثمانية الذين يحملون العرش لفصل القضاء، على ما يجوز أن يحمل عليه إتيانه؛ لا على ما تحمل عليه صفات المخلوقين من الحركة والانتقال. وقال ابن عباس: تشقق سماء الدنيا فينزل أهلها وهم أكثر ممن في الأرض من الجن والإنس، ثم تشقق السماء الثانية فينزل أهلها وهم أكثر ممن في سماء الدنيا، ثم كذلك حتى تشقق السماء السابعة، ثم ينزل الكروبيون<sup>(١)</sup> وحملة العرش؛ وهو معنى قوله: ﴿وَنَزَلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾ أي من السماء إلى الأرض لحساب الثقلين. وقيل: إن السماء تشقق بالغمام الذي بينها وبين الناس؛ فتشق الغمام تشقق السماء، فإذا أنشقت السماء أنتقض تركيبها وطويت ونزلت الملائكة إلى مكان سواها. وقرأ ابن كثير ﴿وَتُنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ﴾ بالنصب من الإنزال. الباقون ﴿وَنَزَلَ الْمَلَائِكَةُ﴾ بالرفع. دليله ﴿تَنْزِيلًا﴾ ولو كان على الأول لقال إنزالا. وقد قيل: إن نزل وأنزل بمعنى؛ فجاء ﴿تَنْزِيلًا﴾ على ﴿نَزَلَ﴾ وقد قرأ عبد الوهاب عن أبي عمرو ﴿وَنَزَلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾. وقرأ ابن مسعود ﴿وَأَنْزَلَ الْمَلَائِكَةُ﴾. أبي بن كعب: ﴿وَنَزَلَتِ الْمَلَائِكَةُ﴾. وعنه ﴿وتنزلت الملائكة﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ لِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ ﴿الملك﴾ مبتدأ و ﴿الحق﴾ صفة له و ﴿لِلرَّحْمَنِ﴾ الخبر؛ لأن الملك الذي يزول وينقطع ليس بملك؛ فبطلت يومئذ أملاك المالكيين وأنقطعت دعاويهم، وزال كل ملك وملكه، وبقي الملك الحق لله وحده. ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ أي لما ينالهم من الأهوال ويلحقهم من الخزي والهوان، وهو على المؤمنين أخف من صلاة مكتوبة؛ على ما تقدم في الحديث. وهذه الآية دالة عليه؛ لأنه إذا كان على الكافرين عسيراً فهو على المؤمنين يسير. يقال: عَسِرَ يَعْسُرُ، وَعَسُرَ يَعْسُرُ.

(١) الكروبيون (بفتح الكاف): سادة الملائكة، منهم جبريل وميكائيل وإسرافيل هم المقربون والكراب القرب.

[٢٧] ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَكْفُلُ يَلْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سِيبًا﴾ ٢٧

[٢٨] ﴿يَنوَلِّتُنِي لِتَنِيَ لَمْ أَخْذْ فَلَنَا خِلِيلًا﴾ ٢٨

[٢٩] ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ ٢٩

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ الماضي عَضَضْتُ. وحكى الكسائي عَضَضْتُ بفتح الضاد الأولى. وجاء التوقيف عن أهل التفسير، منهم ابن عباس وسعيد بن المسيب أن الظالم هاهنا يراد به عقبة بن أبي معيط، وأن خليله أمية بن خلف؛ فعقبة قتله علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ وذلك أنه كان في الأسارى يوم بدر فأمر النبي ﷺ بقتله؛ فقال: أقتل دونهم؟ فقال: نعم، بكفرك وعتوك. فقال: من للصبيّة؟ فقال: النار. فقام علي رضي الله عنه فقتله. وأمّية قتله النبي ﷺ، فكان هذا من دلائل نبوة النبي ﷺ؛ لأنه خبر عنهما بهذا فتلا على الكفر. ولم يسميا في الآية لأنه أبلغ في الفائدة، ليعلم أن هذا سبيل كل ظالم قبل من غيره في معصية الله عز وجل. قال ابن عباس وقتادة وغيرهما: وكان عقبة قد همّ بالإسلام فمنعه منه أبي بن خلف وكانا خدنين، وأن النبي ﷺ قتلتهما جميعاً: قُتل عقبة يوم بدر صبراً، وأبي بن خلف في المبارزة يوم أحد؛ ذكره القشيري والثعلبي، والأول ذكره النحاس. وقال السهيلي: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ هو عقبة بن أبي معيط، وكان صديقاً لأمية بن خلف الجمحي ويروى لأبي بن خلف أخ أمية، وكان قد صنع وليمة فدعا إليها قريشاً، ودعا رسول الله ﷺ فأبى أن يأتيه إلا أن يسلم. وكره عقبة أن يتأخر عن طعامه من أشراف قريش أحد فأسلم ونطق بالشهادتين، فاتاه رسول الله ﷺ وأكل من طعامه، فعاتبه خليله أمية بن خلف، أو أبي بن خلف وكان غائباً. فقال عقبة: رأيت عظيماً ألا يحضر طعامي رجل من أشراف قريش. فقال له خليله: لا أرضى حتى ترجع وتبصق في وجهه وتطأ عنقه وتقول كيت وكيت. ففعل



وفي الصحيح من حديث أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «إنما مثل المجلس الصالح والمجلس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يُحذيك<sup>(١)</sup> وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد ريحاً طيبة ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد ريحاً خبيثة» لفظ مسلم. وأخرجه أبو داود من حديث أنس. وذكر أبو بكر البزار عن ابن عباس قال: قيل يا رسول الله؛ أي جلسائنا خير؟ قال: «من ذكركم بالله رؤيته وزاد في علمكم منطقهم وذكركم بالآخرة عمله». وقال مالك بن دينار: إنك إن تنقل الأحجار مع الأبرار خير لك من أن تأكل الخبيص<sup>(٢)</sup> مع الفجار. وأنشد:

وصاحب خيار الناس تنج مسلماً      وصاحب شرار الناس يوماً فتندما

[٣٠] ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾.

[٣١] ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ﴾ يريد محمداً ﷺ، يشكوهم إلى الله تعالى: ﴿إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ أي قالوا فيه غير الحق من أنه سحر وشعر؛ عن مجاهد والنخعي. وقيل: معنى ﴿مَهْجُورًا﴾ أي متروكاً؛ فعزاه الله تبارك وتعالى وسلاه بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي كما جعلنا لك يا محمد عدواً من مشركي قومك - وهو أبو جهل في قول ابن عباس - فكَذَلِكَ جعلنا لكل نبي عدواً من مشركي قومه، فأصبر لأمري كما صبروا، فإني هاديك وناصرك على كل من ناوك. وقد قيل: إن قول الرسول ﴿يَا رَبِّ﴾ إنما يقوله يوم القيامة؛ أي هجروا القرآن وهجروني وكذبوني. وقال أنس قال النبي ﷺ: «من<sup>(٣)</sup> تعلّم القرآن وعلّق مصحفه لم يتعاهده ولم ينظر فيه جاء

(١) أحذاه: أعطاه.

(٢) الخبيص: حلواء تعمل من التمر والسمن.

(٣) في الأصل: «من تعلم القرآن وعلمه وعلّق مصحفاً...» وتصحيح هذا الأثر من «روح المعاني والبيضاوي والشهاب على أنهم تكلموا في صحته إذ في سنده أبو هذبة وهو كذاب.

يوم القيامة متعلقاً به يقول يا رب العالمين إن عبدك هذا آتخذني مهجوراً فأقض بيني وبينه. ذكره الثعلبي. ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ نصب على الحال أو التمييز، أي يهديك وينصرك فلا تبال بمن عاداك. وقال ابن عباس: عدو النبي ﷺ أبو جهل لعنه الله.

[٣٢] ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾.

[٣٣] ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَلَحْسَنَ تَقْسِيرًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ اختلف في قائل ذلك على قولين: أحدهما - أنهم كفار قريش؛ قاله ابن عباس. الثاني - أنهم اليهود حين رأوا نزول القرآن مفزاً قالوا: هلا أنزل عليه جملة واحدة كما أنزلت التوراة على موسى والإنجيل على عيسى والزبور [على داود]<sup>(١)</sup>. فقال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي فعلنا ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ نقوي به قلبك فتعيه وتحمله؛ لأن الكتب المتقدمة أنزلت على أنبياء يكتبون ويقرؤون، والقرآن أنزل على نبي أمي؛ ولأن من القرآن الناسخ والمنسوخ، ومنه ما هو جواب لمن سأل عن أمور، ففرقناه ليكون أوعى للنبي ﷺ، وأيسر على العامل به؛ فكان كلما نزل وحي جديد زاده قوة قلب.

قلت: فإن قيل هلا أنزل القرآن دفعة واحدة وحفظه إذا كان ذلك في قدرته؟ قيل: في قدرة الله أن يعلمه الكتاب والقرآن في لحظة واحدة، ولكنه لم يفعل ولا معترض عليه في حكمه، وقد بينا وجه الحكمة في ذلك. وقد قيل: إن قوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ من كلام المشركين، أي لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك، أي كالتوراة والإنجيل، فيتم الوقف على ﴿كَذَلِكَ﴾ ثم يتدىء ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾. ويجوز أن يكون الوقف على قوله: ﴿جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ ثم يتدىء ﴿كَذَلِكَ﴾ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ على معنى أنزلناه عليك كذلك متفرقاً لنثبت به فؤادك. قال



والتبديل، فكان ما يأتي به النبي ﷺ أحسن تفسيراً مما عندهم؛ لأنهم كانوا يخلطون الحق بالباطل، والحق المحض أحسن من حق مختلط بباطل، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾. وقيل: ﴿لَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ كقولهم في صفة عيسى إنه خلق من غير أب. ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أي بما فيه نقض حجتهم كآدم إذ خلق من غير أب وأم.

[٣٤] ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ تقدم في ﴿سبحان﴾<sup>(١)</sup>. ﴿أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ لأنهم في جهنم. وقال مقاتل: قال الكفار لأصحاب محمد ﷺ هو شر الخلق؛ فنزلت الآية. ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي دينا وطريقا. ونظم الآية: ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق، وأنت منصور عليهم بالحجج الواضحة، وهم محشورون على وجوههم.

[٣٥] ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا﴾.

[٣٦] ﴿فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْرِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَتِنَا فَمَرْئُهُمْ نَذِيرٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يريد التوراة. ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا﴾ تقدم في ﴿طه﴾<sup>(١)</sup>. ﴿فَقُلْنَا أَذْهَبَا﴾ الخطاب لهما. وقيل: إنما أمر موسى ﷺ بالذهاب وحده في المعنى. وهذا بمنزلة قوله: ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾. وقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ وإنما يخرج من أحدهما. قال النحاس: وهذا مما لا ينبغي أن يجترأ به على كتاب الله تعالى، وقد قال جل وعز: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾. قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَقْرُقَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى. قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى. فَأَتِيَاهُ فَقُولَا

إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴿٣٥﴾ . ونظير هذا ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ . وقد قال جل ثناؤه ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا﴾ قال القشيري: وقوله في موضع آخر: ﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ لا ينافي هذا؛ لأنهما إذا كانا مأمورين فكل واحد مأمور. ويجوز أن يقال: أمر موسى أولاً، ثم لما قال: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي﴾ قال: ﴿أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ﴾. ﴿إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يريد فرعون وهامان والقبط. ﴿فَدَمَّرْنَاَهُمْ﴾ في الكلام إضمار؛ أي فكذبوهما ﴿فَدَمَّرْنَاَهُمْ تَذْمِيرًا﴾ أي أهلكناهم إهلاكاً.

[٣٧] ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (٣٧).

قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ في نصب «قوم» أربعة أقوال: العطف على الهاء والميم في ﴿دَمَّرْنَاَهُمْ﴾. الثاني - بمعنى أذكر. الثالث - بإضمار فعل يفسره ما بعده؛ والتقدير: وأغرقنا قوم نوح أغرقناهم. الرابع - أنه منصوب بـ ﴿أَغْرَقْنَاهُمْ﴾ قاله الفراء. ورده النحاس قال: لأن ﴿أَغْرَقْنَا﴾ ليس مما يتعدى إلى مفعولين فيعمل في المضمر وفي ﴿قَوْمَ نُوحٍ﴾. ﴿لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ﴾ ذكر الجنس والمراد نوح وحده؛ لأنه لم يكن في ذلك الوقت رسول إليهم إلا نوح وحده؛ فنوح إنما بعث بلا إله إلا الله، وبالإيمان بما ينزل الله، فلما كذبوه كان في ذلك تكذيب لكل من بعث بعده بهذه الكلمة. وقيل: إن من كذب رسولاً فقد كذب جميع الرسل؛ لأنهم لا يفرق بينهم في الإيمان، ولأنه ما من نبي إلا يصدق سائر أنبياء الله، فمن كذب منهم نبياً فقد كذب كل من صدقه من النبيين. ﴿أَغْرَقْنَاَهُمْ﴾ أي بالطوفان، على ما تقدم في ﴿هُودٍ﴾. ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾ أي علامة ظاهرة على قدرتنا ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ﴾ أي المشركين من قوم نوح ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي في الآخرة. وقيل: أي هذه سبيلي في كل ظالم.

[٣٨] ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ (٣٨).

قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ كله معطوف على ﴿قَوْمَ نُوحٍ﴾ إذا كان ﴿قوم نوح﴾ منصوباً على العطف، أو بمعنى أذكر. ويجوز أن يكون كله منصوباً على أنه معطوف على المضممر في ﴿دَمَرْنَاَهُمْ﴾ أو على المضممر في ﴿جَعَلْنَاهُمْ﴾ وهو اختيار النحاس؛ لأنه أقرب إليه. ويجوز أن يكون منصوباً بإضمار فعل؛ أي أذكر عاداً الذين كذبوا هوداً فأهلكهم الله بالريح العقيم، وثموداً كذبوا صالحاً فأهلكوا بالرجفة. و﴿أَصْحَابَ الرَّسِّ﴾ والرس في كلام العرب البثر التي تكون غير مطوية، والجمع رساس. قال<sup>(١)</sup>:

تَنَابِلَةٌ يَخْفِرُونَ الرُّسَّاسَا

يعني آبار المعادن. قال ابن عباس: سألت كعباً عن أصحاب الرس قال: صاحب ﴿يس﴾ الذي قال: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ قتله قومه ورثوه في بثر لهم يقال له الرس طرحوه فيها، وكذا قال مقاتل. السدي: هم أصحاب قصة ﴿يس﴾ أهل أنطاكية، والرس بثر بأنطاكية قتلوا فيها حبيباً النجار مؤمن آل ﴿يس﴾ فنسبوا إليها. وقال علي رضي الله عنه: هم قوم كانوا يعبدون شجرة صنوبر فدعا عليهم نبيهم؛ وكان من ولد يهوذا، فبيست الشجرة فقتلوه ورثوه في بثر، فأظلمت سحابة سوداء فأحرقتهم. وقال ابن عباس: هم قوم بأذربيجان قتلوا أنبياء فجفت أشجارهم وزرعهم فماتوا جوعاً وعطشاً. وقال وهب بن منبه: كانوا أهل بثر يقعدون عليها وأصحاب مواشي، وكانوا يعبدون الأصنام، فأرسل الله إليهم شعبياً فكذبوه وآذوه، وتمادوا على كفرهم وطغيانهم، فبينما هم حول البثر في منازلهم أنهارت بهم وبديارهم؛ خسف الله بهم فهلكوا جميعاً. وقال قتادة: أصحاب الرس وأصحاب الأيكة أمتان أرسل الله إليهما شعبياً فكذبوه فعذبهما الله بعذابين. قال قتادة: والرس قرية بفلج اليمامة. وقال عكرمة: هم قوم رسوا نبيهم في بثر حيّاً. دليله ما روى محمد بن كعب القرظي عن حذثه أن النبي ﷺ قال: «أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة عبد أسود وذلك أن الله تعالى بعث نبياً إلى قومه فلم يؤمن به إلا ذلك الأسود فحفر أهل القرية بئراً وألقوا فيه نبيهم حيّاً وأطبقوا عليه حجراً ضخماً

وكان العبد الأسود يحتطب على ظهره ويبيعه ويأتيه بطعامه وشرابه فيعيته الله على رفع تلك الصخرة حتى يديه إليه فبينما هو يحتطب إذ نام فضرب الله على أذنه سبع سنين نائماً ثم هبّ من نومه فتمطى واتكأ على شقه الآخر فضرب الله على أذنه سبع سنين ثم هبّ فأحتمل حُزمة الحطب فباعها وأتى بطعامه وشرابه إلى البئر فلم يجده وكان قومه قد أراهم الله آية فاستخرجوه وآمنوا به وصدّقوه ومات ذلك النبي. قال النبي ﷺ: «إن ذلك العبد الأسود لأول من يدخل الجنة» وذكر هذا الخبر المهدوي والثعلبي، واللفظ للثعلبي، وقال: هؤلاء آمنوا بنبيهم فلا يجوز أن يكونوا أصحاب الرس؛ لأن الله تعالى أخبر عن أصحاب الرس أنه دمرهم، إلا أن يدمروا بأحداث أحدثوها بعد نبيهم. وقال الكلبي: أصحاب الرس قوم أرسل الله إليهم نبياً فأكلوه. وهم أول من عمل نساؤهم السَّخَق؛ ذكره الماوردي. وقيل: هم أصحاب الأخدود الذين حفروا الأخاديد وحرّقوا فيها المؤمنين، وسيأتي. وقيل: هم بقايا من قوم ثمود، وأن الرّس البئر المذكورة في «الحج» في قوله: «وَبِئْرٍ مُّعْظَلَةٍ» على ما تقدم<sup>(١)</sup>. وفي «الصّحاح» والرس أسم بئر كانت لبقية من ثمود. وقال جعفر بن محمد عن أبيه: أصحاب الرس قوم كانوا يستحسنون لنسائهم السَّخَق، وكان نساؤهم كلهم سحاقات. وروي من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إن من أشراط الساعة أن يكتفي الرجال بالرجال والنساء بالنساء وذلك السَّخَق» وقيل: الرس ماء ونخيل لبني أسد. وقيل: الثلج المتراكم في الجبال؛ ذكره القشيري. وما ذكرناه أولاً هو المعروف، وهو كل حفر أحفر كالقبر والمعدن والبئر. قال أبو عبيدة: الرس كل ركيّة لم تطو؛ وجمعها رساس. قال الشاعر:

وهم سائرون إلى أرضهم      فيا ليتهم يحفرون الرّساسا

والرّس أسم واد في قول زهير:

بَكَرْنَ بُكُوراً وَأَسْتَحَرْنَ بِسُخْرَةٍ      فهنّ لوادي الرّس كاليد للهم

ورسست رسّاً: حفرت بئراً. ورّس الميث أي قبر. والرّس: الإصلاح بين الناس، والإفساد أيضاً وقد رسّنت بينهم؛ فهو من الأضداد. وقد قيل في أصحاب الرس غير ما ذكرناه، ذكره

الثعلبي وغيره. ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ أي أمماً لا يعلمهم إلا الله بين قوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرس. وعن الربيع بن خيثم أشتكى فقيل له: ألا تتداوى فإن رسول الله ﷺ قد أمر به؟ قال: لقد هممت بذلك ثم فكرت فيما بيني وبين نفسي فإذا عاد وثمود وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً كانوا أكثر وأشدّ حرصاً على جمع المال، فكان فيهم أطباء، فلا الناعت منهم بقي ولا المنعوت؛ فأبى أن يتداوى فما مكث إلا خمسة أيام حتى مات، رحمه الله.

[٣٩] ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَاهُ الْأَمْثَلُ وَكُلًّا تَبَرَّأْنَا تَتْبِيرًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَاهُ الْأَمْثَلُ﴾ قال الزجاج. أي وأنذرنا كلاً ضربنا له الأمثال وبيننا لهم الحجة، ولم نضرب لهم الأمثال الباطلة كما يفعله هؤلاء الكفرة. وقيل: أنتصب على تقدير ذكرنا كلاً ونحوه؛ لأن ضرب الأمثال تذكير ووعظ؛ ذكره المهدوي. والمعنى واحد. ﴿وَكُلًّا تَبَرَّأْنَا تَتْبِيرًا﴾ أي أهلكنا بالعذاب. وتبرت الشيء كسرتة. وقال المؤرج والأخفش: دمرناهم تدميراً. تبدل التاء والباء من الدال والميم.

[٤٠] ﴿وَلَقَدْ أَنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْتُ مَطَرَ السَّوءِ أَفْكَمَ يَكُونُوا يَرْوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنَا عَلَى الْقَرْيَةِ﴾ يعني مشركي مكة. والقرية قرية قوم لوط. و﴿مَطَرَ السَّوءِ﴾ الحجارة التي أمطروا بها. ﴿أَفْكَمَ يَكُونُوا يَرْوْنَهَا﴾ أي في أسفارهم ليعتبروا. قال ابن عباس: كانت قريش في تجارتها إلى الشام تمر بمدائن قوم لوط كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ لَتَمُرُونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ﴾ وقال: ﴿وَأَنْتَهُمَا لِيَأْمَامِ مُّبِينٍ﴾ وقد تقدّم<sup>(١)</sup>. ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ أي لا يصدقون بالبعث. ويجوز أن يكون معنى ﴿يَرْجُونَ﴾ يخافون. ويجوز أن يكون على بابه ويكون معناه: بل كانوا لا يرجون ثواب الآخرة.

[٤١] ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُوكَ إِلَّا هُزُوءًا أَلَمْ يَلْمِزُوكَ اللَّهُ رَسُولًا ۖ﴾ .

[٤٢] ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ إِلَهِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ۖ﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُوكَ إِلَّا هُزُوءًا﴾ جواب ﴿إِذَا﴾ «إِنْ» يتخذونك» لأن معناه يتخذونك. وقيل: الجواب محذوف وهو قالوا أو يقولون: «أَهَذَا الَّذِي» وقوله: «إِنْ يَتَّخِذُوكَ إِلَّا هُزُوءًا» كلام معترض. ونزلت في أبي جهل كان يقول للنبي ﷺ مستهزئاً: «أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا» والعائد محذوف، أي بعثه الله. «رَسُولًا» نصب على الحال والتقدير: أهذا الذي بعثه الله مرسلًا. «أَهَذَا» رفع بالابتداء و «الَّذِي» خبره. «رَسُولًا» نصب على الحال. و «بَعَثَ» في صلة «الَّذِي» واسم الله عز وجل رفع بـ «بَعَثَ». ويجوز أن يكون مصدرًا؛ لأن معنى «بَعَثَ» أرسل ويكون معنى «رَسُولًا» رسالة على هذا. والألف للاستفهام على معنى التقرير والاحتقار. «إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا» أي قالوا قد كاد أن يصرفنا. «عَنْ إِلَهِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا» أي حبسنا أنفسنا على عبادتها. قال الله تعالى: «وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا» يريد من أضل ديناً أهم أم محمد، وقد رأوه في يوم بدر.

[٤٣] ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۖ﴾ .

قوله تعالى: «أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ» عَجَب نبيه ﷺ من إضمارهم على الشرك وإصرارهم عليه مع إقرارهم بأنه خالقهم ورازقهم، ثم يعمد إلى حجر يعبدونه من غير حجة. قال الكلبي وغيره: كانت العرب إذا هوى الرجل منهم شيئاً عبده من دون الله، فإذا رأى أحسن منه ترك الأول وعبد الأحسن؛ فعلى هذا يعني: أرايت من اتخذ إلهه بهواه؛ فحذف الجار. وقال ابن عباس: الهوى إله يعبد من دون الله، ثم تلا هذه الآية.

قال الشاعر:

لعمري أبيعها لو تبدت لناسك      قد أعتزل الدنيا بإحدى المناسك  
لصلّى لها قبل الصلاة لربه      ولا أرتد في الدنيا بأعمال فاتك

وقيل: ﴿أَتَخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ أي أطاع هواه. وعن الحسن لا يهوى شيئاً إلا أتبعه، والمعنى واحد. ﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ أي حفيظاً وكفيلًا حتى تردّه إلى الإيمان وتخرجه من هذا الفساد. أي ليست الهداية والضلالة موكولتين إلى مشيئتك، وإنما عليك التبليغ. وهذا رد على القدرية. ثم قيل إنها منسوخة بآية القتال. وقيل لم تنسخ؛ لأن الآية تسلية للنبي ﷺ.

[٤٤] ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ ولم يقل أنهم لأن منهم من قد علم أنه يؤمن. وذمهم جل وعز بهذا. ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾ سماع قبول أو يفكرون فيما تقول فيعقلونه؛ أي هم بمنزلة من لا يعقل ولا يسمع. وقيل: المعنى أنهم لما لم ينتفعوا بما يسمعون فكأنهم لم يسمعوا؛ والمراد أهل مكة. وقيل: ﴿أَمْ﴾ بمعنى بل في مثل هذا الموضع. ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ أي في الأكل والشرب لا يفكرون في الآخرة. ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ إذ لا حساب ولا عقاب على الأنعام. وقال مقاتل: البهائم تعرف ربها وتهتدي إلى مراعيها وتنقاد لأربابها التي تعقلها، وهؤلاء لا ينقادون ولا يعرفون ربهم الذي خلقهم ورزقهم. وقيل: لأن البهائم إن لم تعقل صحة التوحيد والنبوة لم تعتقد بطلان ذلك أيضاً.

[٤٥] ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾.

[٤٦] ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ يجوز أن تكون هذه الرؤية من رؤية العين، ويجوز أن تكون من العلم. وقال الحسن وقتادة وغيرهما: مدّ الظل من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس. وقيل: هو من غيوبة الشمس إلى طلوعها. والأوّل أصح؛ والدليل على ذلك أنه ليس من ساعة أطيب من تلك الساعة؛ فإن فيها يجد المريض راحة والمسافر وكل ذي علة، وفيها ترد نفوس الأموات والأرواح منهم إلى الأجساد، وتطيب نفوس الأحياء فيها. وهذه الصفة مفقودة بعد المغرب. وقال أبو العالية: نهار الجنة هكذا؛ وأشار إلى ساعة المصلين صلاة الفجر. أبو عبيدة: الظل بالغداة والفيء بالعشي؛ لأنه يرجع بعد زوال الشمس؛ سمي فيئاً لأنه فاء من المشرق إلى جانب المغرب. قال الشاعر، وهو حميد بن ثور يصف سرحة<sup>(١)</sup> وكنى بها عن امرأة:

فلا الظلُّ من بَرَدِ الضُّحَا تَسْتَطِيعُهُ      ولا الفيءُ من بَرَدِ العِشِيِّ تَذَوُّقُ

وقال ابن السكيت: الظل ما نسخته الشمس والفيء ما نسخ الشمس. وحكى أبو عبيدة عن رؤية قال: كل ما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو فيء وظل، وما لم تكن عليه الشمس فهو ظل. ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلْنَاهُ سَاكِنًا﴾ أي دائماً مستقراً لا تنسخه الشمس. ابن عباس: يريد إلى يوم القيامة، وقيل: المعنى لو شاء لمنع الشمس الطلوع. ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ أي جعلنا الشمس بنسخها الظل عند مجيئها دالة على أن الظل شيء ومعنى؛ لأن الأشياء تعرف بأضدادها ولولا الشمس ما عرف الظل، ولولا النور ما عرفت الظلمة. فالدليل فعيل بمعنى الفاعل. وقيل بمعنى المفعول كالقتيل والدهين والخضيب. أي دللنا الشمس على الظل حتى ذهبت به؛ أي أتبعناها إياه. فالشمس دليل أي حجة وبرهان، وهو الذي يكشف المشكل ويوضحه. ولم يؤنث الدليل وهو صفة الشمس لأنه في معنى الاسم؛ كما يقال: الشمس برهان والشمس حق. ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ﴾ يريد ذلك الظل الممدود. ﴿إِنَّا قَبَضْنَا يَسِيرًا﴾ أي يسيراً قبضه علينا. وكل أمر ربنا عليه يسير. فالظل مكثه في هذا الجو بمقدار طلوع

(١) السرحة: واحدة السرح، وهو شجر كبار عظام لا ترعى وإنما يستظل فيه.

الفجر إلى طلوع الشمس، فإذا طلعت الشمس صار الظل مقبوضاً، وخلفه في هذا الجو شعاع الشمس فأشرق على الأرض وعلى الأشياء إلى وقت غروبها، فإذا غربت فليس هناك ظل، إنما ذلك بقية نور النهار. وقال قوم: قبضه بغروب الشمس؛ لأنها ما لم تغرب فالظل فيه بقية، وإنما يتم زواله بمجيء الليل ودخول الظلمة عليه. وقيل: إن هذا القبض وقع بالشمس؛ لأنها إذا طلعت أخذ الظل في الذهاب شيئاً فشيئاً؛ قاله أبو مالك وإبراهيم التيمي. وقيل: ﴿ثُمَّ قَبْضَتَاهُ﴾ أي قبضنا ضياء الشمس بالفيء ﴿قَبْضاً يَسِيراً﴾. وقيل: ﴿يَسِيراً﴾ أي سريعاً؛ قاله الضحاك. قتادة: خفياً؛ أي إذا غابت الشمس قبض الظل قبضاً خفياً؛ كلما قبض جزء منه جعل مكانه جزءاً من الظلمة، وليس يزول دفعة واحدة. فهذا معنى قول قتادة، وهو قول مجاهد:

[٤٧] ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ يعني سترًا للخلق يقوم مقام اللباس في ستر البدن. قال الطبري: وصف الليل باللباس تشبيهاً من حيث يستر الأشياء ويغشاها.

الثانية - قال ابن العربي: ظن بعض الغفلة أن من صلى عرياناً في الظلام أنه يجزئه؛ لأن الليل لباس. وهذا يوجب أن يصلي في بيته عرياناً إذا أغلق عليه بابه. والستر في [الصلاة]<sup>(١)</sup> عبادة تختص بها ليست لأجل نظر الناس. ولا حاجة إلى الإطناب في هذا.

الثالثة - قوله تعالى: ﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ أي راحة لأبدانكم بأنقطاعكم عن الأشغال. وأصل السبات من التمدد. يقال: سبت المرأة شعرها أي نقضته وأرسلته. ورجل مسبوت أي ممدود الخلقة. وقيل للنوم سبات لأنه بالتمدد يكون، وفي التمدد معنى الراحة. وقيل:

(١) في «الأصول»: «في الظلام». والتصويب من «أحكام القرآن» لابن العربي.

السبت القطع؛ فالنوم أنقطاع عن الاشتغال؛ ومنه سبت اليهود لانقطاعهم عن الأعمال فيه. وقيل: السبت الإقامة في المكان؛ فكأن السبات سكون ما وثبت عليه؛ فالنوم سبات على معنى أنه سكون عن الاضطراب والحركة. وقال الخليل: السبات نوم ثقيل؛ أي جعلنا نومكم ثقيلاً ليكمل الإجمام والراحة.

الرابعة - قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ من الانتشار للمعاش؛ أي النهار سبب الإحياء للانتشار. شبه اليقظة فيه بتطابق الإحياء مع الإمامة. وكان عليه السلام إذا أصبح قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور».

[٤٨] ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ نُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ تقدم في ﴿الأعراف﴾<sup>(١)</sup> مستوفى.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾. فيه خمس عشرة مسألة.

الأولى - قوله تعالى: ﴿مَاءً طَهُورًا﴾ يتطهر به؛ كما يقال: وضوء للماء الذي يتوضأ به. وكل طهور طاهر وليس كل طاهر طهوراً. فالطهور (بفتح الطاء) الاسم. وكذلك الضوء والوقود. وبالضم المصدر، وهذا هو المعروف في اللغة؛ قاله أبن الأنباري. فبين أن الماء المنزل من السماء طاهر في نفسه مطهر لغيره؛ فإن الطهور بناء مبالغة في طاهر، وهذه المبالغة اقتضت أن يكون طاهراً مطهراً. وإلى هذا ذهب الجمهور. وقيل: إن ﴿طَهُورًا﴾ بمعنى طاهر؛ وهو قول أبي حنيفة؛ وتعلق بقوله تعالى: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ يعني طاهراً.

(١) راجع ٢٢٨/٧ و «نشراً» بالنون قراءة نافع.

ويقول الشاعر:

خليلي هل في نظرة بعد توبة      أداري بها قلبي عليّ فجُورُ  
إلى رُجَحِ الأكفَالِ غِيْدٍ<sup>(١)</sup> من الطُّبَا      عذاب الشَّايَا رِيْقُهُنَّ طَهُورُ

فوصف الريق بأنه طهور وليس بمطهر. وتقول العرب: رجل نؤوم وليس ذلك بمعنى أنه منيم لغيره، وإنما يرجع ذلك إلى فعل نفسه. ولقد أجاب علماؤنا عن هذا فقالوا: وصف شراب الجنة بأنه طهور يفيد التطهير عن أضرار الذنوب وعن خسائس الصفات كالغل والحسد، فإذا شربوا هذا الشراب يطهرهم الله من رخص الذنوب وأضرار الاعتقادات الذميمة، فجاءوا الله بقلب سليم، ودخلوا الجنة بصفات التسليم، وقيل لهم حينئذ: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾. ولما كان حكمه في الدنيا بزوال حكم الحدث بجريان الماء على الأعضاء كانت تلك حكمته ورحمته في الآخرة. وأما قول الشاعر:

... رِيْقُهُنَّ طَهُورٌ —————

فإنه قصد بذلك المبالغة في وصف الريق بالطهورية لعذوبته وتعلقه بالقلوب، وطيبه في النفوس، وسكون غليل المحب برشفه حتى كأنه الماء الطهور. وبالجمله فإن الأحكام الشرعية لا تثبت بالمجازاة الشعرية؛ فإن الشعراء يتجاوزون في الاستغراق حدّ الصدق إلى الكذب، ويسترسلون في القول حتى يخرجهم ذلك إلى البدعة والمعصية، وربما وقعوا في الكفر من حيث لا يشعرون. ألا ترى إلى قول بعضهم:

ولو لم تَلَامِسْ صفحة الأرضِ رجلَهَا      لما كنتُ أدري عِلَّةً للتيمم

وهذا كفر صراح، نعوذ بالله منه. قال القاضي أبو بكر بن العربي: هذا منتهى لباب كلام العلماء، وهو بالغ في فنه؛ إلا أنني تأملت من طريق العربية فوجدت فيه

(١) في ابن العربي واللسان مادة «رجح»:

إلى رجح الأكفَالِ هيف خصوصها

وأمرأة رجاح وراجح، ثقيلة العجيزة، من نسوة رجح.

مطلعاً مشرفاً، وهو أن بناء فعول للمبالغة، إلا أن المبالغة قد تكون في الفعل المتعدي كما قال الشاعر:

ضَرُوبٌ بِنَصْلِ السِّيفِ سَوْقٌ سِمَانِهَا<sup>(١)</sup>

وقد تكون في الفعل القاصر كما قال الشاعر:

نُؤُومُ الضُّحَا لَمْ تَنْتَطِقْ عَنْ تَفْضُلِ<sup>(٢)</sup>

ولإنما تؤخذ طهورية الماء لغيره من الحسن نظافة ومن الشرع طهارة؛ كقوله عليه السلام: «لا يقبل الله صلاة بغير طهور». وأجمعت الأمة لغة وشريعة على أن وصف طهور يختص بالماء ولا يتعدى إلى سائر المائعات وهي طاهرة؛ فكان أقتصارهم بذلك على الماء أدل دليل على أن الطهور هو المطهر، وقد يأتي فعول لوجه آخر ليس من هذا كله وهو العبارة به عن الآلة للفعل لا عن الفعل كقولنا: وقود وسحور بفتح الفاء، فإنها عبارة عن الحطب والطعم المتسحر به؛ فوصف الماء بأنه طهور (بفتح الطاء) أيضاً يكون خبراً عن الآلة التي يتطهر بها. فإذا ضمت الفاء في الوقود والسحور والطهور عاد إلى الفعل وكان خبراً عنه. فثبت بهذا أن أسم الفعول (بفتح الفاء) يكون بناءً للمبالغة ويكون خبراً عن الآلة، وهو الذي خطر ببال الحنفية، ولكن قصرت أشداقها عن لوكه، وبعد هذا يقف البيان عن المبالغة وعن الآلة على الدليل بقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾. وقوله عليه السلام: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً» يحتمل المبالغة ويحتمل العبارة به عن الآلة؛ فلا حجة فيه لعلمائنا، لكن يبقى قوله: ﴿لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ نص في أن فعله يتعدى إلى غيره.

الثانية - المياه المنزلة من السماء والمودعة في الأرض طاهرة مطهرة على اختلاف ألوانها وطعومها وأرياحها حتى يخالطها غيرها، والمخالط للماء على ثلاثة أضرب: ضرب يوافقه

(١) هذا صدر بيت من قصيدة لأبي طالب بن عبد المطلب يمدح بها مسافر بن عمرو القرشي؛ وتامه.

إذا عَدِمُوا زَادَ فَإِنَّكَ عَاقِر

(٢) هذا عجز بيت من معلقة أمراء القيس؛ وصدده:

ويضحى فتيت المسك فوق فراشها

والانتطاق: الانتزار للعمل. والتفضل: التوشع، وهو لبسها أدنى ثيابها.

في صفتيه جميعاً، فإذا خالطه فغيره لم يسلبه وصفاً منهما لموافقته لهما وهو التراب. والضرب الثاني يوافقه في إحدى صفتيه وهي الطهارة، فإذا خالطه فغيره سلبه ما خالفه فيه وهو التطهير؛ كماء الورد وسائر الطاهرات. والضرب الثالث يخالفه في الصفتين جميعاً، فإذا خالطه فغيره سلبه الصفتين جميعاً لمخالفته له فيهما وهو النجس.

الثالثة - ذهب المصريون من أصحاب مالك إلى أن قليل الماء يفسده قليل النجاسة، وأن الكثير لا يفسده إلا ما غير لونه أو طعمه أو ريحه من المحرمات. ولم يحدوا بين القليل والكثير حدّاً يوقف عنده، إلا أن ابن القاسم روى عن مالك في الجنب يغتسل في حوض من الحياض التي تسقى فيها الدواب ولم يكن غسل ما به من الأذى أنه قد أفسد الماء؛ وهو مذهب ابن القاسم وأشهب وابن عبد الحكم ومن أتبعهم من المصريين. إلا ابن وهب فإنه يقول في الماء بقول المدنيين من أصحاب مالك. وقولهم ما حكاه أبو مصعب عنهم عنه: أن الماء لا يفسده النجاسة الحالة فيه قليلاً كان أو كثيراً إلا أن تظهر فيه النجاسة وتغير منه طعماً أو ريحاً أو لوناً. وذكر أحمد بن المعدّل أن هذا قول مالك بن أنس في الماء. وإلى هذا ذهب إسماعيل بن إسحاق ومحمد بن بكير وأبو الفرج الأبهري وسائر المتحليين لمذهب مالك من البغداديين؛ وهو قول الأوزاعي والليث بن سعد والحسن بن صالح وداود بن عليّ. وهو مذهب أهل البصرة، وهو الصحيح في النظر وجيد الأثر. وقال أبو حنيفة: إذا وقعت نجاسة في الماء أفسدته كثيراً كان أو قليلاً إذا تحققت عموم النجاسة فيه. ووجه تحققها عنده أن تقع مثلاً نقطة بول في بركة، فإن كانت البركة يتحرك طرفاها يتحرك أحدهما فالكل نجس، وإن كانت حركة أحد الطرفين لا تحرك الآخر لم ينجس. وفي المجموعة نحو مذهب أبي حنيفة. وقال الشافعي بحديث القلتين، وهو حديث مطعون فيه؛ اختلف في إسناده ومتمه؛ أخرجه أبو داود والترمذي وخاصة الدارقطني، فإنه صذر به كتابه وجمع طرقه. قال ابن العربي: وقد رام الدارقطني على إمامته أن يصحح حديث القلتين فلم يقدر. وقال أبو عمر بن عبد البر: وأما ما ذهب إليه الشافعي من حديث القلتين فمذهب ضعيف من جهة النظر، غير ثابت

في الأثر؛ لأنه قد تكلم فيه جماعة من أهل العلم بالنقل، ولأن القلتين لا يوقف على حقيقة مبلغنهما في أثر ثابت ولا إجماع، فلو كان ذلك حداً لازماً لوجب على العلماء البحث عنه ليقفوا على حد ما حدّه النبي ﷺ؛ لأنه من أصل دينهم وفرضهم، ولو كان ذلك كذلك ما ضيعوه، فلقد بحثوا عما هو أدون من ذلك وألطف.

قلت: وفيما ذكر أبن المنذر في القلتين من الخلاف يدل على عدم التوقيف فيهما والتحديد. وفي سنن الدارقطني عن حماد بن زيد عن عاصم بن المنذر قال: القِلَالُ الخوابي العظام. وعاصم هذا هو أحد رواة حديث القلتين. ويظهر من قول الدارقطني أنها مثل قِلَالِ هَجَر. لسياقه حديث الإسراء عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «لما رفعت إلى سِدْرَةِ المنتهى في السماء السابعة نبقتها مثل قِلَالِ هَجَر وورقها مثل آذان الفيلة» وذكر الحديث. قال أبن العربي: وتعلّق علماؤنا بحديث أبي سعيد الخدري في بئر بُضَاعَةَ<sup>(١)</sup>، رواه النسائي والترمذي وأبو داود وغيرهم. وهو أيضاً حديث ضعيف لا قدم له في الصحة فلا تعويل عليه. وقد فاوضت الطوسي الأكبر في هذه المسألة فقال: إن أخلص المذاهب في هذه المسألة مذهب مالك، فإن الماء طهور ما لم يتغير أحد أوصافه؛ إذ لا حديث في الباب يعول عليه، وإنما المعول على ظاهر القرآن وهو قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ وهو ماء بصفاته، فإذا تغير عن شيء منها خرج عن الاسم لخروجه عن الصفة، ولذلك لما لم يجد البخاري إمام الحديث والفقه في الباب خبراً يعول عليه قال: (باب إذا تغير وصف الماء) وأدخل الحديث الصحيح: «ما من أحد يكلم في سبيل الله والله أعلم بمن يكلم في سبيله إلا جاء يوم القيامة وجرحه يَتَعَبُ<sup>(٢)</sup> دماً اللون لون الدم والريح ريح المسك». فأخبر ﷺ أن الدم بحاله وعليه رائحة المسك، ولم تخرجه الرائحة عن صفة الدموية. ولذلك قال علماؤنا: إذا تغير الماء بريح جيفة على طرفه وساحله لم يمنع ذلك الوضوء منه. ولو تغير بها وقد وضعت فيه لكان ذلك تنجيساً له للمخالطة والأولى مجاورة لا تعويل عليها.

(١) بئر بضاعة: بئر بالمدينة. ويقال إن بضاعة أسم المرأة نسبت إليها البئر.

(٢) يتعب: يجري.

قلت: وقد أستدل به أيضاً على نقيض ذلك، وهو أن تغير الرائحة يخرج عن أصله. ووجه هذا الاستدلال أن الدم لما أستحالت رائحته إلى رائحة المسك خرج عن كونه مستخبثاً نجساً، وأنه صار مسكاً؛ وإن المسك بعض دم الغزال.

فكذلك الماء إذا تغيرت رائحته. وإلى هذا التأويل ذهب الجمهور في الماء. وإلى الأول ذهب عبد الملك. قال أبو عمر: جعلوا الحكم للرائحة دون اللون، فكان الحكم لها فاستدلوا عليها في زعمهم بهذا الحديث. وهذا لا يفهم منه معنى تسكن إليه النفس، ولا في الدم معنى الماء فيقاس عليه، ولا يشتغل بمثل هذا الفقهاء، وليس من شأن أهل العلم اللغز به وإشكاله؛ وإنما شأنهم إيضاحه وبيانه، ولذلك أخذ الميثاق عليهم ليبيننه للناس ولا يكتُمونه، والماء لا يخلو تغيره بنجاسة أو بغير نجاسة، فإن كان بنجاسة وتغير فقد أجمع العلماء على أنه غير طاهر ولا مطهر، وكذلك أجمعوا أنه إذا تغير بغير نجاسة أنه طاهر على أصله. وقال الجمهور: إنه غير مطهر إلا أن يكون تغيره من تربة وحماة. وما أجمعوا عليه فهو الحق الذي لا إشكال فيه، ولا التباس معه.

الرابعة - الماء المتغير بقراره كزرنوخ أو جير يجري عليه، أو تغير بطحلب أو ورق شجر ينبت عليه لا يمكن الاحتراز عنه فاتفق العلماء أن ذلك لا يمنع من الوضوء به، لعدم الاحتراز منه والانفكاك عنه؛ وقد روى ابن وهب عن مالك أن غيره أولى منه.

الخامسة - قال علماؤنا رحمة الله عليهم: ويكره سؤر النصرانيّ وسائر الكفار والمدمن الخمر، وما أكل الجيف؛ كالكلاب وغيرها. ومن توضأ بسؤرهم فلا شيء عليه حتى يستيقن النجاسة. قال البخاريّ: وتوضأ عمر رضي الله عنه من بيت نصرانية. ذكر سفيان بن عيينة قال: حدثونا عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: لما كنا بالشأم أتيت عمر بن الخطاب بماء فتوضأ منه فقال: من أين جئت بهذا الماء؟ ما رأيت ماءً عذباً ولا ماء سماء أطيب منه. قال قلت: جئت به من بيت هذه العجوز النصرانية؛ فلما توضأ أتاها فقال: أيتها العجوز أسلمي تسلمي، بعث الله محمداً ﷺ بالحق. قال: فكشفت عن رأسها؛ فإذا

مثل الثَّغَامَةِ<sup>(١)</sup>، فقالت: عجوز كبيرة، وإنما أموت الآن! فقال عمر رضي الله عنه: اللهم أشهد. خرَّجه الدارقطني، حدَّثنا الحسين بن إسماعيل قال حدَّثنا أحمد بن إبراهيم البوشنجي قال حدَّثنا سفيان.. فذكره. ورواه أيضاً عن الحسين بن إسماعيل قال حدَّثنا خلاد بن أسلم حدَّثنا سفيان عن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه توضأ من بيت نصرانية أنهاها فقال: أيتها العجوز أسلمي...؛ وذكر الحديث بمثل ما تقدّم.

السادسة - فأما الكلب إذا ولغ في الماء فقال مالك: يغسل الإناء سبعاً ولا يتوضأ منه وهو طاهر. وقال الثوري: يتوضأ بذلك الماء ويتيمم معه. وهو قول عبد الملك بن عبد العزيز ومحمد بن مسلمة. وقال أبو حنيفة: الكلب نجس، ويغسل الإناء منه لأنه نجس. وبه قال الشافعي وأحمد وإسحاق. وقد كان مالك يفرق بين ما يجوز اتخاذه من الكلاب وبين ما لا يجوز اتخاذه منها في غسل الإناء من ولوغه. وتحصيل مذهبه أنه طاهر عنده، لا ينجس ولوغه شيئاً ولغ فيه طعاماً ولا غيره؛ إلا أنه استحب هراقة ما ولغ فيه من الماء ليسارة مؤنته. وكتب البادية والحاضرة سواء. ويغسل الإناء منه على كل حال سبعاً تعبداً. هذا ما أستقر عليه مذهبه عند المناظرين من أصحابه. ذكر ابن وهب قال: حدَّثنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن عطاء عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ عن الحياض التي تكون فيما بين مكة والمدينة، فقيل له: إن الكلاب والسباع ترد عليها. فقال: «لها ما أخذت في بطونها ولنا ما بقي شراب وطهور» أخرجه الدارقطني. وهذا نص في طهارة الكلاب وطهارة ما تلغ فيه. وفي البخاري عن ابن عمر أن الكلاب كانت تقبل وتدبر في مسجد رسول الله ﷺ ولا يرشون شيئاً من ذلك. وقال عمر بحضرة الصحابة لصاحب الحوض الذي سأله عمرو بن العاص: هل ترد حوضك السباع. فقال عمر: يا صاحب الحوض، لا تخبرنا فإننا نرد على السباع وترد علينا. أخرجه مالك والدارقطني. ولم يفرق بين السباع، والكلب من جملةتها، ولا حجة للمخالف

(١) الثغامة: نبات أبيض الثمر والزهر يشبه بياض الشيب به.

في الأمر بإراقة ما ولغ فيه وأن ذلك للنجاسة، وإنما أمر بإراقة لأن النفس تعافه لا لنجاسته؛ لأن التنزه من الأقدار مندوب إليه، أو تغليظاً عليهم لأنهم نهوا عن أقتنائها كما قاله أبْن عمر والحسن؛ فلما لم ينتهوا عن ذلك غلظ عليهم في الماء لقلته عندهم في البادية، حتى يشتد عليهم فيمتنعوا من أقتنائها. وأما الأمر بغسل الإناء فعبادة لا لنجاسة كما ذكرناه بدليلين: أحدهما - أن الغسل قد دخله العدد. الثاني - أنه قد جعل للتراب فيه مدخل لقوله عليه السلام: «وعفّروه الثامنة بالتراب». ولو كان للنجاسة لما كان للعدد ولا للتراب فيه مدخل كالبول. وقد جعل ﷺ الهَرّ وما ولغ فيه طاهراً، والهَرّ سبع لا خلاف في ذلك؛ لأنه يفترس ويأكل الميتة؛ فكذلك الكلب وما كان مثله من السباع؛ لأنه إذا جاء نص في أحدهما كان نصاً في الآخر. وهذا من أقوى أنواع القياس. هذا لو لم يكن هناك دليل، وقد ذكرنا النص على طهارته فسقط قول المخالف. والحمد لله.

السابعة - ما مات في الماء مما لا دم له فلا يضرّ الماء إن لم يغيّر ريحه؛ فإن أتنن لم يتوضأ به. وكذلك ما كان له دم سائل من دواب الماء كالحيات والضفدع لم يفسد ذلك الماء موته فيه؛ إلا أن تتغير رائحته، فإن تغيرت رائحته وأتنن لم يجوز التطهر به ولا الوضوء منه، وليس بنجس عند مالك. وأما ماله نفس سائلة فمات في الماء ونزح مكانه ولم يغير لونه ولا طعمه ولا ريحه فهو طاهر مطهر سواء كان الماء قليلاً أو كثيراً عند المدنيين. وأستحب بعضهم أن ينزح من ذلك الماء دلاء لتطيب النفس به، ولا يحدّون في ذلك حدّاً لا يتعدّى. ويكرهون استعمال ذلك الماء قبل نزح الدلاء، فإن أستعمله أحد في غسل أو وضوء جاز إذا كانت حاله ما وصفنا. وقد كان بعض أصحاب مالك يرى لمن توضأ بهذا الماء وإن لم يتغير أن يتيمم، فيجمع بين الطهارتين احتياطاً، فإن لم يفعل وصلى بذلك الماء أجزأه. وروى الدارقطني عن محمد بن سيرين أن زنجياً وقع في زمزم - يعني فمات - فأمر به ابن عباس رضي الله عنه فأخرج فأمر بها أن تنزح. قال: فغلبتهم عين جاءتهم من

الركن فأمر بها فُدِّسِمَتْ بِالْقُبَّاطِيِّ<sup>(١)</sup> والمطارف حتى نزحوها، فلما نزحوها أنفجرت عليهم. وأخرجه عن أبي الطفيل أن غلاماً وقع في بئر زمزم فتزحت. وهذا يحتمل أن يكون الماء تغير، والله أعلم. وروى شعبة عن مغيرة عن إبراهيم أنه كان يقول: كل نفس سائلة لا يتوضأ منها، ولكن رخص في الخنفساء والعقرب والجراد والجذجد<sup>(٢)</sup> إذا وقعن في الركاء<sup>(٣)</sup> فلا بأس به. قال شعبة: وأظنه قد ذكر الوزغة. أخرجه الدارقطني، حدثنا الحسين بن إسماعيل قال حدثنا محمد بن الوليد قال حدثنا محمد بن جعفر قال حدثنا شعبة...؛ فذكره.

الثامنة - ذهب الجمهور من الصحابة وفقهاء الأمصار وسائر التابعين بالحجاز والعراق أن ما ولغ فيه الهرّ من الماء طاهر، وأنه لا بأس بالوضوء بسؤره؛ لحديث أبي قتادة، أخرجه مالك وغيره. وقد روي عن أبي هريرة فيه خلاف. وروي عن عطاء بن أبي رباح وسعيد بن المسيب ومحمد بن سيرين أنهم أمروا بإراقة ماء ولغ فيه الهرّ وغسل الإناء منه. وأختلف في ذلك عن الحسن. ويحتمل أن يكون الحسن رأى في فمه نجاسة ليصح مخرج الروايتين عنه. قال الترمذي لما ذكر حديث مالك: «وفي الباب عن عائشة وأبي هريرة، هذا حديث حسن صحيح، وهو قول أكثر أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ والتابعين ومن بعدهم؛ مثل الشافعي وأحمد وإسحاق، لم يروا بسؤر الهرّة بأساً. وهذا أحسن شيء في الباب، وقد جوّد مالك هذا الحديث عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة، ولم يأت به أحد أتم من مالك» قال الحافظ أبو عمر: الحجة عند التنازع والاختلاف سنة رسول الله ﷺ، وقد صح من حديث أبي قتادة أنه أصغى لها الإناء حتى شربت. الحديث. وعليه اعتماد الفقهاء في كل مصر إلا أبا حنيفة ومن قال بقوله؛ فإنه كان يكره سؤره. وقال: إن توضأ به أحد أجزاء، ولا أعلم حجة لمن كره الوضوء بسؤر الهرّة أحسن من أنه لم يبلغه حديث أبي قتادة، وبليغه حديث أبي هريرة في الكلب ففاس الهرّ عليه، وقد فرقت السنة بينهما في باب

(١) دسم الشيء يدسمه دسماً: سدّه. والقباطي (بالضم): ثياب من كتان رقيق يعمل بمصر؛ نسبة إلى القبط على غير قياس. والمطارف: جمع مطرف، وهو رداء من خز مربع ذو أعلام.

(٢) الجذجد كهدهد طوير شبه الجراد.

(٣) الركاء (جمع ركوة): إناء صغير من جلد يشرب فيه الماء.

التعبد في غسل الإناء، ومن حجّته السنة خاصته، وما خالفها مطرح. وبالله التوفيق. ومن حجّتهم أيضاً ما رواه قرّة بن خالد عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «طهور الإناء إذا ولغ فيه الهرّ أن يغسل مرة أو مرتين» شك قرّة. وهذا الحديث لم يرفعه إلا قرّة بن خالد، وقرّة ثقة ثبت.

قلت: هذا الحديث أخرجه الدارقطني، ومثته: «طهور الإناء إذا ولغ فيه الكلب أن يغسل سبع مرات الأولى بالتراب والهرّ مرة أو مرتين». قرّة شك. قال أبو بكر: كذا رواه أبو عاصم مرفوعاً، ورواه غيره عن قرّة (ولوغ الكلب) مرفوعاً و (ولوغ الهرّ) موقوفاً. وروى أبو صالح عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «يغسل الإناء من الهرّ كما يغسل من الكلب» قال الدارقطني: لا يثبت هذا مرفوعاً والمحموظ من قول أبي هريرة وأختلف عنه. وذكر معمر وأبن جريج عن ابن طاوس عن أبيه أنه كان يجعل الهرّ مثل الكلب. وعن مجاهد أنه قال في الإناء يلغ فيه السنور قال: أغسله سبع مرات. قاله الدارقطني.

التاسعة - الماء المستعمل طاهر إذا كانت أعضاء المتوضئ به طاهرة؛ إلا أن مالكاً وجماعة من الفقهاء الجلة كانوا يكرهون الوضوء به. وقال مالك: لا خير فيه، ولا أحب لأحد أن يتوضأ به، فإن فعل وصلى لم أر عليه إعادة الصلاة ويتوضأ لما يستقبل. وقال أبو حنيفة والشافعي وأصحابهما: لا يجوز أستعماله في رفع الحدث، ومن توضأ به أعاد؛ لأنه ليس بماء مطلق، ويتمّ واجده لأنه ليس بواجد ماء. وقال بقولهم في ذلك أصبغ بن الفرج، وهو قول الأوزاعي. واحتجوا بحديث الصنابحيّ خرج به مالك وحديث عمرو بن عنبسة أخرجه مسلم، وغير ذلك من الآثار. وقالوا: الماء إذا توضئ به خرجت الخطايا معه؛ فوجب التنزه عنه لأنه ماء الذنوب. قال أبو عمر: وهذا عندي لا وجه له؛ لأن الذنوب لا تنجس الماء لأنها لا أشخاص لها ولا أجسام تمازج الماء فتفسده، وإنما معنى قوله: «خرجت الخطايا مع الماء» إعلام منه بأن الوضوء للصلاة عمل يكفر الله به السيئات عن عباده

المؤمنين رحمة منه بهم وتفضلاً عليهم. وقال أبو ثور وداود مثل قول مالك، وأن الوضوء بالماء المستعمل جائز؛ لأنه ماء طاهر لا ينضاف إليه شيء وهو ماء مطلق. واحتجوا بإجماع الأمة على طهارته إذا لم يكن في أعضاء المتوضئ نجاسة. وإلى هذا ذهب أبو عبد الله المَرْوَزِيُّ محمد بن نصر. وروي عن علي بن أبي طالب وأبن عمر وأبي أمامة وعطاء بن أبي رباح والحسن البصري والنخعي ومكحول والزهرّي أنهم قالوا فيمن نسي مسح رأسه فوجد في لحيته بللاً: إنه يجزئه أن يمسح بذلك البلل رأسه؛ فهؤلاء كلهم أجازوا الوضوء بالماء المستعمل. روى عبد السلام بن صالح حدّثنا إسحاق بن سويد عن العلاء بن زياد عن رجل من أصحاب النبي ﷺ مرضي أن رسول الله ﷺ خرج عليهم ذات يوم وقد أغتسل وقد بقيت لمعة من جسده لم يصبها الماء، فقلنا: يا رسول الله، هذه لمعة لم يصبها الماء؛ فكان له شعر وارد<sup>(١)</sup>، فقال<sup>(٢)</sup> بشعره هكذا على المكان فبُكِّه. أخرجه الدارقطني، وقال: عبد السلام بن صالح هذا بصري وليس بقوي، وغيره من الثقات يرويه عن إسحاق عن العلاء مرسلًا، وهو الصواب.

قلت: الراوي الثقة عن إسحاق بن سويد العدوي عن العلاء بن زياد العدوي أن رسول الله ﷺ أغتسل...؛ الحديث فيما ذكره هشيم. قال ابن العربي: «مسألة الماء المستعمل إنما تنبني على أصل آخر، وهو أن الآلة إذا أُدِّيَ بها فرض هل يؤدي بها فرض آخر أم لا؛ فمنع ذلك المخالف قياساً على الرقبة إذا أدّى بها فرض عتق لم يصلح أن يتكرر في أداء فرض آخر؛ وهذا باطل من القول، فإن العتق إذا أتى على الرق أتلّفه فلا يبقى محل لأداء الفرض بعتق آخر. ونظيره من الماء ما تلف على الأعضاء فإنه لا يصح أن يؤدي به فرض آخر لتلف عينه حساً كما تلف الرق في الرقبة بالعتق حكماً، وهذا نفيس فتأملوه».

(١) أي مسترسل طويل.

(٢) العرب تجعل القول عبارة عن جميع الأفعال، وتطلقه على غير الكلام واللسان؛ فتقول: قال بيده، أي أخذ. وقال برجله؛ أي مشى. وقال بالماء على يده؛ أي قلب. وقال بثوب، أي رنعه. وكل ذلك على المجاز والاتساع.

العاشرة - لم يفرق مالك وأصحابه بين الماء تقع فيه النجاسة وبين النجاسة يرد عليها الماء، راكداً كان الماء أو غير راكداً؛ لقول رسول الله ﷺ: «الماء لا ينجسه شيء إلا ما غلب عليه فغير طعمه أو لونه أو ريحه». وفرقت الشافعية فقالوا: إذا وردت النجاسة على الماء تنجس؛ وأختره أبن العربي. وقال: من أصول الشريعة في أحكام المياه أن ورود النجاسة على الماء ليس كورود الماء على النجاسة؛ لقول النبي ﷺ: «إذا أستيظ أحكم من نومه فلا يغمس يده في الإناء حتى يغسلها ثلاثاً فإن أحكم لا يدري أين باتت يده». فمنع من ورود اليد على الماء، وأمر بإيراد الماء عليها، وهذا أصل بديع في الباب، ولولا وروده على النجاسة - قليلاً كان أو كثيراً - لما طهرت. وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال في بول الأعرابي في المسجد: «صبوا عليه ذنوباً»<sup>(١)</sup> من ماء. قال شيخنا أبو العباس: وأستدلوا أيضاً بحديث القلتين، فقالوا: إذا كان الماء دون القلتين فحلته نجاسة تنجس وإن لم يغيره، وإن ورد ذلك القدر فأقبل على النجاسة فأذهب عينها بقي الماء على طهارته وأزال النجاسة وهذه مناقضة، إذ المخالطة قد حصلت في الصورتين، وتفريقهم بورود الماء على النجاسة وورودها عليه فرق صوري ليس فيه من الفقه شيء، فليس الباب باب التعبدات بل من باب عقلية المعاني، فإنه من باب إزالة النجاسة وأحكامها. ثم هذا كله منهم يرده قوله عليه الصلاة والسلام: «الماء طهور لا ينجسه شيء إلا ما غير لونه أو طعمه أو ريحه».

قلت : هذا الحديث أخرجه الدارقطني عن رشدين بن سعد أبي الحجاج عن معاوية بن صالح عن راشد بن سعد عن أبي أمامة الباهلي وعن ثوبان عن النبي ﷺ، وليس فيه ذكر اللون. وقال: لم يرفعه غير رشدين بن سعد عن معاوية بن صالح وليس بالقوي، وأحسن منه في الاستدلال ما رواه أبو أسامة عن الوليد بن كثير عن محمد بن كعب عن عبيد الله بن عبد الله بن رافع بن خديج عن أبي سعيد الخدري قال قيل: يا رسول الله،

(١) الذنوب (بالفتح): الدلو.

أنتوضاً من بثر بُضاعة، وهي بثر تلقى فيها الحيض<sup>(١)</sup> ولحوم الكلاب واللتن؛ فقال رسول الله ﷺ: «إن الماء طهور لا ينجسه شيء» أخرجه أبو داود والترمذي والدارقطني كلهم بهذا الإسناد. وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن، وقد جود أبو أسامة هذا الحديث ولم يرو أحد حديث أبي سعيد في بثر بُضاعة أحسن مما روى أبو أسامة. فهذا الحديث نص في ورود النجاسة على الماء، وقد حكم ﷺ بطهارته وطهوره. قال أبو داود: سمعت قتيبة بن سعيد قال سألت قيم بثر بضاعة عن عمقها؛ قلت: أكثر ما يكون الماء فيها؟ قال: إلى العانة. قلت: فإذا نقص؟ قال: دون العورة. قال أبو داود: وقدّرت بثر بضاعة بردائي مددته عليها ثم ذرعت فإذا عرضها ستة أذرع، وسألت الذي فتح لي باب البستان فأدخلني إليه: هل غير بناؤها عما كانت عليه؟ فقال لا. ورأيت فيها ماء متغير اللون. فكان هذا دليلاً لنا على ما ذكرناه، غير أن ابن العربي قال: إنها في وسط السَّبْخَة، فمأواها يكون متغيراً من قرارها؛ والله أعلم.

الحادية عشرة - الماء الطاهر المطهر الذي يجوز به الوضوء وغسل النجاسات هو الماء القراح الصافي من ماء السماء والأنهار والبحار والعيون والآبار، وما عرفه الناس ماء مطلقاً غير مضاف إلى شيء خالطه كما خلقه الله عز وجل صافياً ولا يضره لون أرضه على ما بيناه. وخالف في هذه الجملة أبو حنيفة وعبد الله بن عمرو وعبد الله بن عمر فأما أبو حنيفة فأجاز الوضوء بالنيذ في السفر، وجوز إزالة النجاسة بكل مائع طاهر. فأما بالدهن والمرق فعنه رواية أنه لا يجوز إزالتها به. إلا أن أصحابه يقولون: إذا زالت النجاسة به جاز. وكذلك عنده النار والشمس؛ حتى أن جلد الميتة إذا جف في الشمس طهر من غير دباغ. وكذلك النجاسة على الأرض إذا جفت بالشمس فإنه يظهر ذلك الموضع، بحيث تجوز الصلاة عليه، ولكن لا يجوز التيمم بذلك التراب. قال ابن العربي: لما وصف الله سبحانه الماء بأنه طهور وأمتن بآثاره من السماء ليطهرنا به دل على اختصاصه بذلك؛ وكذلك قال عليه الصلاة

(١) الحيض: الخرق التي يمسح بها دم الحيض؛ ويقال لها المحايض.

والسلام لأسماء بنت الصديق حين سأله عن دم الحيض يصيب الثوب: «حُتِّيه ثم أقرِّضيه ثم أغسله بالماء». فلذلك لم يلحق غير الماء بالماء لما في ذلك من إبطال الامتتان، وليست النجاسة معنى محسوساً حتى يقال كل ما أزالها فقد قام به الغرض، وإنما النجاسة حكم شرعي عين له صاحب الشرع الماء فلا يلحق به غيره إذ ليس في معناه، ولأنه لو لحق به لأسقطه، والفرع إذا عاد إلحاقه بالأصل في إسقاطه سقط في نفسه. وقد كان تاج السنة ذو العز ابن المرتضى الدبوسي يسميه فرخ زنى.

قلت: وأما ما أستدل به على استعمال النيذ فأحاديث واهية، ضعاف لا يقوم شيء منها على ساق؛ ذكرها الدارقطني وضعفها ونص عليها. وكذلك ضعف ما روي عن ابن عباس موقوفاً «النيذ وضوء لمن لم يجد الماء». في طريقه ابن محرز متروك الحديث. وكذلك ما روي عن علي أنه قال: لا بأس بالوضوء بالنيذ. الحجاج وأبو ليلى ضعيفان. وضعف حديث ابن مسعود وقال: تفرّد به ابن لهيعة وهو ضعيف الحديث. وذكر عن علقمة بن قيس قال قلت لعبد الله بن مسعود: أشهد رسول الله ﷺ أحد منكم ليلة أتاه داعي الجن؟ فقال لا.

قلت: هذا إسناد صحيح لا يختلف في عدالة رواته. وأخرج الترمذي حديث ابن مسعود قال: سألتني النبي ﷺ: «ما في إدواتك»<sup>(١)</sup> فقلت: نيذ. فقال: «تمرّة طيبة وماء طهور» قال: فتوضاً منه. قال أبو عيسى: وإنما روي هذا الحديث عن أبي زيد عن عبد الله عن النبي ﷺ، وأبو زيد رجل مجهول عند أهل الحديث لا نعرف له رواية غير هذا الحديث، وقد رأى بعض أهل العلم الوضوء بالنيذ؛ منهم سفيان وغيره، وقال بعض أهل العلم: لا يتوضأ بالنيذ، وهو قول الشافعي وأحمد وإسحق، وقال إسحق: إن ابتلي رجل بهذا فتوضأ بالنيذ وتيمّم أحب إليّ. قال أبو عيسى: وقول من يقول لا يتوضأ بالنيذ أقرب إلى الكتاب والسنة وأشبه؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا

(١) الإداوة (بالكسر): إناء صغير من جلد يتخذ للماء.

صَعِيداً طَيِّباً». وهذه المسألة مطولة في كتب الخلاف؛ وعمدتهم التمسك بلفظ الماء حسبما تقدم في «المائدة»<sup>(١)</sup> بيانه والله أعلم.

الثانية عشرة - لما قال الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً﴾ وقال: ﴿لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ توقف جماعة في ماء البحر؛ لأنه ليس بمنزل من السماء؛ حتى روى عن عبد الله بن عمر وأبن عمرو معا أنه لا يتوضأ به؛ لأنه نار ولأنه طبق جهنم. ولكن النبي ﷺ بين حكمه حين قال لمن سأل: «هو الطهور ماؤه الحِل ميته» أخرجه مالك. وقال فيه أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وهو قول أكثر الفقهاء من أصحاب النبي ﷺ، منهم أبو بكر وعمر وأبن عباس، لم يروا بأساً بماء البحر، وقد كره بعض أصحاب النبي ﷺ الوضوء بماء البحر؛ منهم أبن عمر وعبد الله بن عمرو، وقال عبد الله بن عمرو: هو نار. قال أبو عمر: وقد سئل أبو عيسى الترمذي عن حديث مالك هذا عن صفوان بن سليم فقال: هو عندي حديث صحيح. قال أبو عيسى فقلت للبخاري: هشيم يقول فيه أبن أبي بَرَزَةَ. فقال: وَهِم فيه، إنما هو المغيرة بن أبي بُرْدة. قال أبو عمر: لا أدري ما هذا من البخاري رحمه الله، ولو كان صحيحاً لأخرجه في مصنفه الصحيح عنده، ولم يفعل لأنه لا يعول في الصحيح إلا على الإسناد. وهذا الحديث لا يحتج أهل الحديث بمثل إسناده، وهو عندي صحيح لأن العلماء تلقوه بالقبول له والعمل به، ولا يخالف في جملته أحد من الفقهاء، وإنما الخلاف بينهم في بعض معانيه. وقد أجمع جمهور من العلماء وجماعة أئمة الفتوى بالأمصار من الفقهاء: أن البحر طهور ماؤه، وأن الوضوء به جائز؛ إلا ما روي عن عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمرو بن العاصي أنهما كرها الوضوء بماء البحر، ولم يتابعهما أحد من فقهاء الأمصار على ذلك ولا عرج عليه، ولا التفت إليه لحديث هذا الباب. وهذا يدل على أشتهار الحديث عندهم، وعملهم به وقبولهم له، وهو أولى عندهم من الإسناد الظاهر الصحة لمعنى ترده الأصول. وبالله التوفيق.

(١) راجع ١٠٥/٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

قال أبو عمر: وصفوان بن سُليم مولى حميد بن عبد الرحمن بن عوف الزهري، من عبّاد أهل المدينة وأتقاهم لله، ناسكاً، كثير الصدقة بما وجد من قليل وكثير، كثير العمل، خائفاً لله، يكنى أبا عبد الله، سكن المدينة لم ينتقل عنها، ومات بها سنة اثنتين وثلاثين ومائة. ذكر عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: سمعت أبي يسأل عن صفوان بن سُليم فقال: ثقة من خيار عباد الله وفضلاء المسلمين. وأما سعيد بن سلمة فلم يرو عنه فيما علمت إلا صفوان - والله أعلم - ومن كانت هذه حاله فهو مجهول لا تقوم به حجة عند جميعهم. وأما المغيرة بن أبي بُردة فقليل عنه إنه غير معروف في حملة العلم كسعيد بن سلمة. وقيل: ليس بمجهول. قال أبو عمر: المغيرة بن أبي بردة وجدت ذكره في مغازي موسى بن نصير بالمغرب، وكان موسى يستعمله على الخيل، وفتح الله له في بلاد البربر فتوحات في البر والبحر. وروى الدارقطني من غير طريق مالك عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من لم يطهره ماء البحر فلا طهره الله». قال إسناده حسن.

الثالثة عشرة - قال أبْن العربي: توهم قوم أن الماء إذا فضلت للجنب منه فضلة لا يتوضأ به، وهو مذهب باطل، فقد ثبت عن ميمونة أنها قالت: أجنبنا أنا ورسول الله ﷺ واغتسلتُ من جَفَنَةٍ وفضلت فضلة، فجاء رسول الله ﷺ ليغتسل منه فقلت: إني قد أغتسلت منه. فقال: «إن الماء ليس عليه نجاسة - أو - إن الماء لا يُجْنَب». قال أبو عمر: وردت آثار في هذا الباب مرفوعة في النهي عن أن يتوضأ الرجل بفضل المرأة. وزاد بعضهم في بعضها: ولكن ليغتربا جميعاً. فقالت طائفة: لا يجوز أن يغترب الرجل مع المرأة في إناء واحد؛ لأن كل واحد منهما متوضئ بفضل صاحبه. وقال آخرون: إنما كره من ذلك أن تنفرد المرأة بالإناء ثم يتوضأ الرجل بعدها بفضلها. وكل واحد منهم روى بما ذهب إليه أثراً. والذي ذهب إليه الجمهور من العلماء وجماعة فقهاء الأمصار أنه لا بأس أن يتوضأ الرجل بفضل المرأة وتوضأ المرأة من فضله، أنفردت المرأة بالإناء أو لم تنفرد. وفي مثل هذا آثار كثيرة صحاح. والذي نذهب إليه أن

الماء لا ينجسه شيء إلا ما ظهر فيه من النجاسات أو غلب عليه منها؛ فلا وجه للاشتغال بما لا يصح من الآثار والأقوال. والله المستعان.

روى الترمذي عن ابن عباس قال حدثني ميمونة قالت: كنت أغتسل أنا ورسول الله ﷺ من إناء واحد من الجنابة. قال هذا حديث حسن صحيح. وروى البخاري عن عائشة قالت: كنت أغتسل أنا والنبي ﷺ من إناء واحد يقال له الفرق<sup>(١)</sup>. وفي «صحيح مسلم» عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يغتسل بفضل ميمونة. وروى الترمذي عن ابن عباس قال: أغتسل بعض أزواج النبي ﷺ في جَفَنَةِ فَأَرَادَ رسول الله ﷺ أن يتوضأ منه فقالت: يا رسول الله، إني كنت جنباً. قال: «إن الماء لا يُجْنِبُ». قال: هذا حديث حسن صحيح، وهو قول سفيان الثوري ومالك والشافعي. وروى الدارقطني عن عمرة عن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أتوضأ أنا والنبي ﷺ من إناء واحد وقد أصابت الهرة منه قبل ذلك. قال: هذا حديث حسن صحيح. وروي أيضاً عن رجل من بني غفار قال: نهى رسول الله ﷺ عن فضل طهور المرأة. وفي الباب عن عبد الله بن سرجس، وكره بعض الفقهاء فضل طهور المرأة، وهو قول أحمد وإسحاق.

الرابعة عشرة - روى الدارقطني عن زيد بن أسلم مولى عمر بن الخطاب أن عمر بن الخطاب كان يسخن له الماء في قمقمه<sup>(٢)</sup> ويغتسل به. قال: وهذا إسناد صحيح. وروي عن عائشة قالت: دخل علي رسول الله ﷺ وقد سخنت ماء في الشمس. فقال «لا تفعل يا حميراء فإنه يورث البرص». رواه خالد بن إسماعيل المخزومي عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة، وهو متروك. ورواه عمرو بن محمد الأعشم عن فليح عن الزهري عن عروة عن عائشة. وهو منكر الحديث، ولم يروه غيره عن فليح، ولا يصح عن الزهري؛ قاله الدارقطني.

(١) الفرق (بالتحريك): مكيال يسع ستة عشر رطلاً. وبالسكون مائة وعشرون رطلاً.

(٢) القميمة والقمقم (كهدهد): ما يسخن فيه الماء من نحاس وغيره.

الخامسة عشرة - كل إناء طاهر فجائز الوضوء منه إلا إناء الذهب والفضة؛ لنهي رسول الله ﷺ عن اتخاذهما. وذلك - والله أعلم - للتشبه بالأعاجم والجبابرة لا لنجاسة فيهما. ومن توضأ فيهما أجزاء وضوءه وكان عاصياً باستعمالهما. وقد قيل: لا يجزئ الوضوء في أحدهما. والأول أكثر؛ قاله أبو عمر. وكل جلد دُكِّي فجائز استعماله للوضوء وغير ذلك. وكان مالك يكره الوضوء في إناء جلد الميتة بعد الدباغ؛ على اختلاف من قوله. وقد تقدّم في ﴿النحل﴾<sup>(١)</sup>.

[٤٩] ﴿لِنُخَبِّئَ بِهِ بَلَدَةً مِّمَّنَّا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنْآسِيَّ كَثِيراً﴾.

قوله تعالى: ﴿لِنُخَبِّئَ بِهِ﴾ أي بالمطر. ﴿بَلَدَةً مِّمَّنَّا﴾ بالجدوبة والمحل وعدم النبات. قال كعب: المطر روح الأرض يحييها الله به. وقال: ﴿مِّمَّنَّا﴾ ولم يقل مينة لأن معنى البلدة والبلد واحد؛ قاله الزجاج. وقيل: أراد بالبلد المكان. ﴿وَنُسْقِيَهُ﴾ قراءة العامة بضم النون. وقرأ عمر بن الخطاب وعاصم والأعمش فيما روى المفضل عنهما ﴿نُسْقِيَهُ﴾ (بفتح)<sup>(٢)</sup> النون. ﴿مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنْآسِيَّ كَثِيراً﴾ أي بشراً كثيراً وأناسي واحد إنسي نحو جمع القُرُقُور<sup>(٣)</sup> قَرَاقِيرَ وقَرَاقِرَ في قول الأخفش والمبرد وأحد قولي الفراء؛ وله قول آخر وهو أن يكون واحده إنساناً ثم تبدل من النون ياء؛ فتقول: أناسي، والأصل أناسين، مثل سرحان وسراحين، وبستان وبساتين؛ فجعلوا الياء عوضاً من النون، وعلى هذا يجوز سراجي وبساتي، لا فرق بينهما. قال الفراء: ويجوز ﴿أَنْآسِيَّ﴾ بتخفيف الياء التي فيما بين لام الفعل وعينه؛ مثل قراقرير وقراقر. وقال ﴿كَثِيراً﴾ ولم يقل كثيرين؛ لأن فعلاً قد يراد به الكثرة؛ نحو ﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾.

(١) راجع ١٥٦/١٠ طبعة أولى أو ثانية.

(٢) في الأصول: «بضم النون». وهو تحريف والتصويب عن أبي حيان وغيره.

(٣) القُرُقُور: ضرب من السفن. وقيل: هي السفينة العظيمة أو الطويلة.

[٥٠] ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ﴾ يعني القرآن، وقد جرى ذكره في أول السورة: قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾. وقوله: ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ وقوله: ﴿اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾. ﴿لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ أي جحدوا له وتكذيباً به. وقيل: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ﴾ هو المطر. روي عن ابن عباس وابن مسعود: وأنه ليس عام بأكثر مطراً من عام ولكن الله يصرفه حيث يشاء، فما زيد لبعض نقص من غيرهم. فهذا معنى التصريف. وقيل: ﴿صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ﴾ وابلاً وطشاً وطلاً ورهاما - الجوهرى: الرهام الأمطار اللينة - ورذاذاً. وقيل: تصريفه تنويع الانتفاع به في الشرب والسقي والزراعات به والطهارات وسقي البساتين والغسل وشبهه. ﴿لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ قال عكرمة: هو قولهم في الأنواء: مطرنا بنوء كذا. قال النحاس: ولا نعلم بين أهل التفسير اختلافاً أن الكفر هاهنا قولهم مطرنا بنوء كذا وكذا؛ وأن نظيره فعل النجم كذا، وأن كل من نسب إليه فعلاً فهو كافر. وروى الربيع بن صبيح قال: مُطِرَ الناس على عهد رسول الله ﷺ ذات ليلة، فلما أصبح قال النبي ﷺ: «أصبح الناس فيها رجلين شاكراً وكافراً فأما الشاكراً فيحمد الله تعالى على سقيه وغياثه وأما الكافر فيقول مُطِرنا بنوء كذا وكذا». وروي من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من سنة بأمر من أخرى ولكن إذا عمل قوم بالمعاصي صرف الله ذلك إلى غيرهم فإذا عصوا جميعاً صرف الله ذلك إلى الفياضي والبحار». وقيل: التصريف راجع إلى الريح، وقد مضى في «البقرة»<sup>(١)</sup> بيانه. وقرأ حمزة والكسائي ﴿لِيَذَكَّرُوا﴾ مخففة الذال من الذكر. الباقون مثقلاً من التذكر؛ أي ليذكروا نعم الله ويعلموا أن من أنعم بها لا يجوز الإشراك به؛ فالتذكر قريب من الذكر غير أن التذكر يطلق فيما بعد عن القلب فيحتاج إلى تكلف في التذكر.

[٥١] ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾.

[٥٢] ﴿فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ أي رسولا يندرهم كما قسمنا المطر ليخف عليك أعباء النبوة، ولكننا لم نفعل بل جعلناك نذيرا لكل لترتفع درجتك فأشكر نعمة الله عليك. ﴿فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ﴾ أي فيما يدعونك إليه من اتباع آلهتهم. ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ﴾ قال ابن عباس بالقرآن. ابن زيد: بالإسلام. وقيل: بالسيف؛ وهذا فيه بعد؛ لأن السورة مكية نزلت قبل الأمر بالقتال. ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ لا يخالطه فتور.

[٥٣] ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ عاد الكلام إلى ذكر النعم. و ﴿مَرَجَ﴾ خَلَّ وخلط وأرسل. قال مجاهد: أرسلهما وأفاض أحدهما في الآخر. قال ابن عرفة: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أي خلطهما فهما يلتقيان؛ يقال: مرجته إذا خلطته. و مرج الدين والامر أختلط وأضطرب؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فِي أَمْرِ مَرْيَمَ﴾. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام لعبد الله بن عمرو بن العاصي<sup>(١)</sup>: «إذا رأيت الناس مرجت عهودهم وخفت أماناتهم وكانوا هكذا وهكذا» وشبك بين أصابعه فقلت له: كيف أصنع عند ذلك، جعلني الله فداك! قال: «ألزم بيتك واملك عليك لسانك وخذ بما تعرف ودع ما تنكر وعليك بخاصة أمر نفسك ودع عنك أمر العامة» خرجه النسائي وأبو داود وغيرهما. وقال الأزهري: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ خلى بينهما؛ يقال مَرَجْتُ الدابة إذا خليتها ترعى. وقال ثعلب: المرج الإجراء؛ فقوله: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أي أجراهما. وقال الأخفش: يقول قوم أمرج البحرين مثل مرج فعل وأفعل بمعنى. ﴿هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ أي حلو شديد العذوبة.

﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي فيه ملحوة ومرارة. وروى طلحة أنه قرىء ﴿وَهَذَا مِلْحٌ﴾ بفتح الميم وكسر اللام. ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ أي حاجزاً من قدرته لا يغلب أحدهما على صاحبه؛ كما قال في سورة الرحمن ﴿مَرَجَ الْبُخْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ. بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾. ﴿وَحِجْرًا مَّخْجُورًا﴾ أي سترًا مستورا يمنع أحدهما من الاختلاط بالآخر. فالبرزخ الحاجز، والحجر المانع. وقال الحسن: يعني بحر فارس وبحر الروم. وقال ابن عباس وابن جبير: يعني بحر السماء وبحر الأرض. قال ابن عباس: يلتقيان في كل عام وبينهما برزخ قضاء من قضاياه. ﴿وَحِجْرًا مَّخْجُورًا﴾ حراماً محرماً أن يعذب هذا الملح بالعذب، أو يملح هذا العذب بالملح.

[٥٤] ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ۝﴾.

فيه مسألتان:

الأولى - قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا﴾ أي خلق من النطفة إنساناً. ﴿فَجَعَلَهُ﴾ أي جعل الإنسان ﴿نَسَبًا وَصِهْرًا﴾. وقيل: ﴿مِنَ الْمَاءِ﴾ إشارة إلى أصل الخلقة في أن كل حي مخلوق من الماء. وفي هذه الآية تعديد النعمة على الناس في إيجادهم بعد العدم، والتنبيه على العبرة في ذلك.

الثانية - قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ النسب والصهر معنيان يعمان كل قربي تكون بين آدميين. قال ابن العربي: النسب عبارة عن خلط الماء بين الذكر والأنثى على وجه الشرع؛ فإن كان بمعصية كان خلقاً مطلقاً ولم يكن نسباً محققاً، ولذلك لم يدخل تحت قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَيَنَاءُكُمْ﴾ بنته من الزنى؛ لأنها ليست ببنت له في أصح القولين لعلماننا وأصح القولين في الدين؛ وإذا لم يكن نسب شرعاً فلا صهر شرعاً، فلا يحرم الزنى بنت أم ولا أم بنت، وما يحرم من الحلال لا يحرم من الحرام؛ لأن الله أمتن بالنسب والصهر على عباده ورفع قدرهما، وعلق الأحكام في الحل والحرم عليهما فلا يلحق الباطل بهما ولا يساويهما.

قلت: اختلف الفقهاء في نكاح الرجل أبنته من زنى أو أخته أو بنت أبنه من زنى؛ فحرّم ذلك قوم منهم ابن القاسم، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه، وأجاز ذلك آخرون منهم عبد الملك بن الماجشون، وهو قول الشافعي، وقد مضى هذا في «النساء»<sup>(١)</sup> مجوّداً. قال الفراء: النسب الذي لا يحل نكاحه. وقاله الزجاج، وهو قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وأشتقاق الصهر من صهرت الشيء إذا خلطته؛ فكل واحد من الصهرين قد خالط صاحبه، فسميت المناكح صهراً لاختلاط الناس بها. وقيل: الصهر قرابة النكاح؛ فقرابة الزوجة هم الأختان، وقرابة الزوج هم الأحماء. والأصهار يقع عاماً لذلك كله؛ قاله الأصمعي. وقال ابن الأعرابي: الأختان أبو المرأة وأخوها وعمها - كما قال الأصمعي - والصهر زوج أبنه الرجل وأخوه وأبوه وعمه. وقال محمد بن الحسن في رواية أبي سليمان الجوزجاني: أختان الرجل أزواج بناته وأخواته وعماته وخالاته، وكل ذات محرم منه، وأصهاره كل ذي رحم محرم من زوجته. قال النحاس: الأولى في هذا أن يكون القول في الأصهار ما قال الأصمعي، وأن يكون من قبلهما جميعاً. يقال صهرت الشيء أي خلطته؛ فكل واحد منهما قد خلط صاحبه. والأولى في الأختان ما قال محمد بن الحسن لجهتين: إحداهما الحديث المرفوع، روى محمد بن إسحق عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن محمد بن أسامة بن زيد عن أبيه قال قال رسول الله ﷺ: «أما أنت يا عليّ فختني وأبو ولدي وأنت مني وأنا منك». فهذا على أن زوج البنت ختن. والجهة الأخرى أن اشتقاق الختن من ختنه إذا قطعه؛ وكان الزوج قد أنقطع عن أهله، وقطع زوجته عن أهلها. وقال الضحاك: الصهر قرابة الرضاع. قال ابن عطية: وذلك عندي وهم أوجه أن ابن عباس قال: حرم من النسب سبع، ومن الصهر خمس. وفي رواية أخرى من الصهر سبع؛ يريد قوله عز وجل: «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ» فهذا هو النسب. ثم يريد بالصهر قوله تعالى: «وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ» إلى قوله: «وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ». ثم ذكر المحصنات. ومحمل هذا أن ابن عباس أراد حرم من الصهر ما ذكر معه، فقد أشار

(١) راجع ١١٤/٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

بما ذكر إلى عظمه وهو الصهر، لا أن الرضاع صهر، وإنما الرضاع عدل النسب يحرم منه ما يحرم من النسب بحكم الحديث المأثور فيه. ومن روى: وحرم من الصهر خمس أسقط من الآيتين الجمع بين الأختين والمحصلات؛ وهن ذوات الأزواج.

قلت: فأبن عطية جعل الرضاع مع ما تقدم نسباً، وهو قول الزجاج. قال أبو إسحاق: النسب الذي ليس بصهر من قوله جل ثناؤه: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ إلى قوله ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ والصهر من له التزويج. قال ابن عطية: وحكى الزهراوي قولاً أن النسب من جهة البنين والصهر من جهة البنات.

قلت: وذكر هذا القول النحاس، وقال: لأن المصاهرة من جهتين تكون. وقال ابن سيرين: نزلت هذه الآية في النبي ﷺ وعلي رضي الله عنه؛ لأنه جمعه معه نسب وصهر. قال ابن عطية: فاجتماعهما وكادة حرمة إلى يوم القيامة. ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ على خلق ما يريد.

[٥٥] ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ لما عدد النعم وبين كمال قدرته عجب من المشركين في إشراكهم به من لا يقدر على نفع ولا ضرر؛ أي إن الله هو الذي خلق ما ذكره، ثم هؤلاء لجهلهم يعبدون من دونه أمواتاً جمادات لا تنفع ولا تضر. ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ روي عن ابن عباس ﴿الْكَافِرُ﴾ هنا أبو جهل؛ وشرحه أنه يستظهر بعبادة الأوثان على أوليائه. وقال عكرمة: ﴿الْكَافِرُ﴾ إبليس، ظهر على عداوة ربه. وقال مطرف: ﴿الْكَافِرُ﴾ هنا الشيطان. وقال الحسن: ﴿ظَهِيرًا﴾ أي معيناً للشيطان على المعاصي. وقيل: المعنى؛ وكان الكافر على ربه هيناً ذليلاً لا قدر له ولا وزن عنده؛ من قول العرب: ظَهَرَتْ به أي جعلته خلف ظهره ولم تلتفت إليه. ومنه قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وِرَاءَكُمْ ظَهِيرًا﴾ أي هيناً.

ومنه قول الفرزدق:

تَمِيمَ بْنَ قَيْسٍ لَا تَكُونَنَّ حَاجَتِي      بِظَهْرِ فَلَا يَعْيَا عَلَيَّ جَوَابُهَا

هذا معنى قول أبي عبيدة. وظهير بمعنى مظهر. أي كفر الكافرين هين على الله تعالى، والله مستهين به لأن كفره لا يضره. وقيل: وكان الكافر على ربه الذي يعبد وهو الصنم قوياً غالباً يعمل به ما يشاء؛ لأن الجماد لا قدرة له على دفع ضر ونفع.

[٥٦] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾.

[٥٧] ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ يريد بالجنة مبشراً ونذيراً من النار؛ وما أرسلناك وكيلًا ولا مسيطراً. ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ يريد على ما جئتكم به من القرآن والوحي. و ﴿مِنْ﴾ للتأكيد. ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ﴾ لكن من شاء؛ فهو استثناء منقطع، والمعنى: لكن من شاء ﴿أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ بإنفاقه من ماله في سبيل الله فلينفق. ويجوز أن يكون متصلاً ويقدر حذف المضاف؛ التقدير: إلا أجر ﴿مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ باتباع ديني حتى ينال كرامة الدنيا والآخرة.

[٥٨] ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ

خَبِيرًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ تقدم معنى التوكل في ﴿آل عمران﴾<sup>(١)</sup> وهذه السورة وأنه اعتماد القلب على الله تعالى في كل الأمور، وأن الأسباب وسائط أمر بها من غير اعتماد عليها. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ أي نزه الله تعالى عما يصفه هؤلاء الكفار به من الشركاء. والتسبيح التنزيه، وقد تقدم. وقيل: ﴿وَسَبِّحْ﴾ أي صلّ له؛ وتسمى الصلاة تسبيحاً. ﴿وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ أي عليماً فيجازيهم بها.

[٥٩] ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ الرَّحْمَنُ فَسَلِّ بِهِ خَيْرٌ﴾ (٥٩).

قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ تقدم في ﴿الأعراف﴾<sup>(١)</sup>. و ﴿الَّذِي﴾ في موضع خفض نعتاً للحي. وقال ﴿بَيْنَهُمَا﴾ ولم يقل بينهما؛ لأنه أراد الصنفين والنوعين والشيئين؛ كقول القطامي:

ألم يحزنك أن حبال قيس      وتغلب قد تبايتنا أنقطاعاً

أراد وحبال تغلب فثنى، والحبال جمع؛ لأنه أراد الشيئين والنوعين. ﴿الرَّحْمَنُ فَاسْتَلِّ بِهِ خَيْراً﴾ قال الزجاج: المعنى فأسأل عنه. وقد حكى هذا جماعة من أهل اللغة أن الباء تكون بمعنى عن؛ كما قال تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ وقال الشاعر:

هَلَّا سَأَلْتُ الْخَيْلَ يَا ابْنَةَ مَالِكٍ      إِنْ كُنْتُ جَاهِلَةً بِمَا لَمْ تَعْلَمِي<sup>(٢)</sup>

وقال [عَلَقْمَةُ بْنُ عَبْدِ] (٣):

فَإِنْ تَسَالَوْنِي بِالنِّسَاءِ فَإِنِّي      خَيْرٌ بِأَدْوَاءِ النِّسَاءِ طَيِّبٌ

أي عن النساء وعما لم تعلمي. وأنكره علي بن سليمان وقال: أهل النظر ينكرون أن تكون الباء بمعنى عن؛ لأن في هذا إفساداً لمعاني قول العرب: لو لقيت فلاناً للقيك به الأسد؛ أي للقيك بلقائك إياه الأسد. المعنى فأسأل بسؤالك إياه خبيراً. وكذلك قال ابن جبير: الخبير هو الله. ف ﴿خَيْراً﴾ نصب على المفعول به بالسؤال.

قلت: قول الزجاج يخرج على وجه حسن، وهو أن يكون الخبير غير الله؛ أي فأسأل عنه خبيراً، أي عالماً به، أي بصفاته وأسمائه. وقيل: المعنى فأسأل له خبيراً، فهو نصب

(١) راجع ٢١٨/٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

(٢) البيت من معلقة عترة.

(٣) في نسخ الأصل: «وقال أمرؤ القيس» وهو تحريف. والبيت من قصيدة لعلقمة مطلعها:

طحا بك قلب في الحسان طروب      بعيد الشباب عصر حان مشيب

على الحال من الهاء المضمرة. قال المهدوي: ولا يحسن حالاً إذ لا يخلو أن تكون الحال من السائل أو المسؤول، ولا يصح كونها حالاً من الفاعل؛ لأن الخبير لا يحتاج أن يسأل غيره. ولا يكون من المفعول؛ لأن المسؤول عنه وهو الرحمن خبير أبدأً، والحال في أغلب الأمر يتغير ويتنقل؛ إلا أن يحمل على أنها حال مؤكدة؛ مثل ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾ فيجوز. وأما ﴿الرَّحْمَنُ﴾ ففي رفعه ثلاثة أوجه: يكون بدلاً من المضممر الذي في ﴿أَسْتَوِي﴾. ويجوز أن يكون مرفوعاً بمعنى هو الرحمن. ويجوز أن يكون مرفوعاً بالابتداء وخبره ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَيْرًا﴾. ويجوز الخفض بمعنى وتوكل على الحي الذي لا يموت الرحمن؛ يكون نعتاً. ويجوز النصب على المدح.

[٦٠] ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ﴾ أي لله تعالى. ﴿قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ على جهة الإنكار والتعجب، أي ما نعرف الرحمن إلا الرحمن اليمامة، يعنون مسيلمة الكذاب. وزعم القاضي أبو بكر بن العربي أنهم إنما جهلوا الصفة لا الموصوف، وأستدل على ذلك بقوله: ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ ولم يقولوا ومن الرحمن. قال ابن الحصار: وكأنه رحمه الله لم يقرأ الآية الأخرى ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾. ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ هذه قراءة المدنيين والبصريين: أي لما تأمرنا أنت يا محمد. وأختاره أبو عبيد وأبو حاتم. وقرأ الأعمش وحمزة والكسائي ﴿يَأْمُرُنَا﴾ بالياء. يعنون الرحمن؛ كذا تأوله أبو عبيد، قال: ولو أقرؤا بأن الرحمن أمرهم ما كانوا كفاراً. فقال النحاس: وليس يجب أن يتأول عن الكوفيين في قراءتهم هذا التأويل البعيد، ولكن الأولى أن يكون التأويل لهم ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا يَأْمُرُنَا﴾ النبي ﷺ؛ فتصح القراءة على هذا، وإن كانت الأولى أبين وأقرب تناولاً. ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ أي زادهم قول القائل لهم أسجدوا للرحمن نفوراً عن الدين. وكان سفيان الثوري يقول في هذه الآية: إلهي زادني لك خضوعاً ما زاد عداك نفوراً.

[٦١] ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ۖ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا ﴾ أي منازل؛ وقد تقدّم<sup>(١)</sup> ذكرها. ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا ﴾ قال ابن عباس: يعني الشمس؛ نظيره ﴿ وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴾. وقراءة العامة ﴿ سِرَاجًا ﴾ بالتوحيد. وقرأ حمزة والكسائي ﴿ سُرْجًا ﴾ يريدون النجوم العظام الواقعة. والقراءة الأولى عند أبي عبيد أولى؛ لأنه تأوّل أن السُّرْجَ النجوم، وأن البروج النجوم، فيجيء المعنى نجومًا ونجومًا. النحاس: ولكن التأويل لهم أن أبان بن تغلب قال: السرج النجوم الداربي. الثعلبي: كالزهرة والمشتري وزحل والسمالكين ونحوها. ﴿ وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴾ ينير الأرض إذا طلع. وروى عصمة عن الأعمش ﴿ وَقَمَرًا ﴾ بضم القاف وإسكان الميم. وهذه قراءة شاذة، ولو لم يكن فيها إلا أن أحمد بن حنبل وهو إمام المسلمين في وقته قال: لا تكتبوا ما يحكيه عصمة الذي يروي القراءات، وقد أولع أبو حاتم السجستاني بذكر ما يرويه عصمة هذا.

[٦٢] ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَن أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ۖ ﴾ .

فيه أربع مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿ خِلْفَةً ﴾ قال أبو عبيدة: الخلفة كل شيء بعد شيء. وكل واحد من الليل والنهار يخلف صاحبه. ويقال للمبطون: أصابته خلفة؛ أي قيام وقعود يخلف هذا ذاك. ومنه خلفه النبات، وهو ورق يخرج بعد الورق الأول في الصيف. ومن هذا المعنى قول زهير بن أبي سلمى:

بها العينُ والآرامُ يَمْشِيْنَ خِلْفَةً      وأُطْلَاؤُهَا يَنْهَضْنَ مِنْ كُلِّ مَجْثَمٍ<sup>(٢)</sup>

(١) راجع ٩/١٠ طبعة أولى أو ثانية.

(٢) العين ( بالكسر ) جمع أعين وعيناء ، وهي بقر الوحش ؛ سميت بذلك لسعة أعينها . والأطلاء: جمع طلاء، وهو ولد البقرة وولد الظبية الصغير. والمجثم: الموضع الذي يجثم فيه؛ أي يقام فيه.

الرثم ولد الطلي وجمعه آرام؛ يقول: إذا ذهب فوج جاء فوج. ومنه قول الآخر<sup>(١)</sup>  
يصف امرأة تنتقل من منزل في الشتاء إلى منزل في الصيف دأباً:

ولها بالماطرون إذا      أَكَلَ النَّمْلُ الَّذِي جَمَعَ  
خِلْفَةً حَتَّى إِذَا أَرْتَبَعَتْ      سَكَنْتُ مِنْ جَلْتِي بَيْعًا  
فِي بَيْوتٍ وَسَطٍ دَسَكْرَةٍ      حَوْلَهَا الزَّيْتُونُ قَدْ يَتَعَا

قال مجاهد: «خِلْفَةٌ» من الخلاف؛ هذا أبيض وهذا أسود؛ والأوّل أقوى. وقيل:  
يتعاقبان في الضياء والظلام والزيادة والنقصان. وقيل: هو من باب حذف المضاف؛  
أي جعل الليل والنهار ذوي خلفه، أي اختلاف. «لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ» أي يتذكر،  
فيعلم أن الله لم يجعله كذلك عبثاً فيعتبر في مصنوعات الله، ويشكر الله تعالى على  
نعمه عليه في العقل والفكر والفهم. وقال عمر بن الخطاب وأبن عباس والحسن:  
معناه من فاته شيء من الخير بالليل أدركه بالنهار، ومن فاته بالنهار أدركه بالليل. وفي  
«الصحيح»: «ما من أمرئ تكون له صلاة بالليل فغلبه عليها نوم فيصلّي ما بين طلوع  
الشمس إلى صلاة الظهر إلا كتب الله له أجر صلاته وكان نومه عليه صدقة». وروى  
مسلم عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله ﷺ: «من نام عن حظه أو عن شيء منه  
فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كتب له كأنما قرأه من الليل».

الثانية - قال ابن العربي: سمعت ذا الشهيد الأكبر يقول: إن الله تعالى خلق  
العبد حياً عالمًا، وبذلك كماله، وسلط عليه آفة النوم وضرورة الحدث ونقصان  
الخلق؛ إذ الكمال للأوّل الخالق، فما أمكن الرجل من دفع النوم بقلّة الأكل والسهر  
في طاعة الله فليفعّل. ومن الغبن العظيم أن يعيش الرجل ستين سنة ينام ليلها فيذهب  
النصف من عمره لغوًا، وينام سدس النهار راحة فيذهب ثلثاه ويبقى له من العمر  
عشرون سنة. ومن الجهالة والسفاهة أن يتلف الرجل ثلثي عمره في لذة فانية، ولا  
يتلف عمره بسهر في لذة باقية عند الغني الوفي الذي ليس بعديم ولا ظلوم.

(١) هو يزيد بن معاوية. والماطرون: موضع بالشام قرب دمشق.

الثالثة - الأشياء لا تتفاضل بأنفسها؛ فإن الجواهر والأعراض من حيث الوجود متماثلة، وإنما يقع التفاضل بالصفات. وقد اختلف أيّ الوقتين أفضل، الليل أو النهار. وفي الصوم غنية في الدلالة، والله أعلم؛ قاله ابن العربي.

قلت: والليل عظيم قدره؛ أمر نبيه عليه الصلاة والسلام بقيامه فقال: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾، وقال: ﴿قُمِ اللَّيْلَ﴾ على ما يأتي بيانه. ومدح المؤمنين على قيامه فقال: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾. وقال عليه الصلاة والسلام: «والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار وصلاة الرجل في جوف الليل وفيه ساعة يستجاب فيها الدعاء وفيه ينزل الرب تبارك وتعالى» حسبما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

الرابعة - قرأ حمزة وحده ﴿يَذْكُرُ﴾ بسكون الذال وضم الكاف. وهي قراءة ابن وثاب وطلحة والنخعي. وفي مصحف أبي ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ بزيادة تاء. وقرأ الباقون ﴿يَذْكُرُ﴾ بتشديد الكاف. ويذكر ويذكّر بمعنى واحد. وقيل: معنى ﴿يَذْكُرُ﴾ بالتخفيف أي يذكر ما نسيه في أحد الوقتين في الوقت الثاني، أو ليذكر تنزيه الله وتسبيحه فيها. ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ يقال: شكر يشكر شكراً وشكوراً، مثل كفر يكفر كفراً وكفوراً. وهذا الشكور على أنهما جعلهما قواماً لمعاشهم. وكأنهم لما قالوا: ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ قالوا: هو الذي يقدر على هذه الأشياء.

[٦٣] ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ لما ذكر جهالات المشركين وطعنهم في القرآن والنبوة ذكر عباده المؤمنين أيضاً وذكر صفاتهم، وأضافهم إلى عبوديته تشريفاً لهم، كما قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ وقد تقدم<sup>(١)</sup>. فمن أطاع الله وعبدته وشغل سمعه وبصره ولسانه وقلبه بما أمره فهو الذي يستحق

أسم العبودية، ومن كان بعكس هذا شمله قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلَّ هُمْ أَضَلُّ﴾ يعني في عدم الاعتبار؛ كما تقدّم في ﴿الأعراف﴾<sup>(١)</sup>. وكأنه قال: وعباد الرحمن هم الذين يمشون على الأرض، فحذف هم؛ كقولك: زيد الأمير، أي زيد هو الأمير. فـ ﴿الَّذِينَ﴾ خبر مبتدأ محذوف؛ قاله الأخفش. وقيل الخبر قوله في آخرة السورة: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ وما بين المبتدأ والخبر أوصاف لهم وما تعلق بها؛ قاله الزجاج. قال: ويجوز أن يكون الخبر ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ﴾. و ﴿يَمْشُونَ﴾ عبارة عن عيشهم ومدة حياتهم وتصرفاتهم، فذكر من ذلك العظم، لا سيما وفي ذلك الانتقال في الأرض؛ وهو معايشة الناس وخلطتهم.

قوله تعالى: ﴿هُوَ﴾ الهون مصدر الهين، وهو من السكينة والوقار. وفي «التفسير»: يمشون على الأرض حلماء متواضعين، يمشون في اقتصاد. والقصد والتؤدة وحسن السنت من أخلاق النبوة. وقال ﷺ: «أيها الناس عليكم بالسكينة فإن البر ليس في الإيضاع»<sup>(٢)</sup> وروي في صفته ﷺ أنه كان إذا زال زال تلعلاً، ويخطو تكفوّاً، ويمشي هوناً، ذريع المشية إذا مشى كأنما ينحط من صَبَب. التقلع: رفع الرجل بقوة. والتكفوؤ: الميل إلى سنن المشي وقصده. والهون الرفق والوقار. والذريع الواسع الخطا؛ أي أن مشيه كان يرفع فيه رجله بسرعة ويمد خطوه؛ خلاف مشية المختال، ويقصد سمته وكل ذلك برفق وتثبت دون عجلة. كما قال: كأنما ينحط من صَبَب؛ قاله القاضي عياض. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسرع جبلة لا تكلفاً قال الزهري: سرعة المشي تذهب بهاء الوجه. قال ابن عطية: يريد الإسراع الحثيث لأنه يخل بالوقار؛ والخير في التوسط. وقال زيد بن أسلم: كنت أسأل عن تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ فما وجدت من ذلك شفاء، فرأيت في المنام من جاءني فقال لي: هم الذين لا يريدون أن يفسدوا في الأرض. قال القشيري: وقيل: لا يمشون لإفساد ومعصية، بل في طاعة الله والأمور المباحة من غير هوك. وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ

(١) راجع ٣٢٤/٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية. (٢) الإيضاع: سير مثل الخبيب.

كُلُّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ». وقال ابن عباس: بالطاعة والمعروف والتواضع. الحسن: حلما إن جهل عليهم لم يجهلوا. وقيل: لا يتكبرون على الناس.

قلت: وهذه كلها معانٍ متقاربة، ويجمعها العلم بالله والخوف منه، والمعرفة بأحكامه والخشية من عذابه وعقابه؛ جعلنا الله منهم بفضلته ومنه. وذهبت فرقة إلى أن «هونا» مرتبط بقوله: «يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ» أن المشي هو هون. قال ابن عطية: ويشبه أن يتأول هذا على أن تكون أخلاق ذلك الماشي هونا مناسبةً لمشيته، فيرجع القول إلى نحو ما بيناه. وأما أن يكون المراد صفة المشي وحده فباطل؛ لأنه رُبَّ ماشٍ هوناً وريداً وهو ذئب أطلس<sup>(١)</sup>. وقد كان رسول الله ﷺ يتكفاً في مشيه كأنما يمشي في صلب. وهو عليه الصلاة والسلام الصدر في هذه الأمة. وقوله عليه الصلاة والسلام: «من مشى منكم في طمع فليمش رويداً» إنما أراد في عقد نفسه، ولم يرد المشي وحده. ألا ترى أن المبطلين المتحلين بالدين تمسكوا بصورة المشي فقط؛ حتى قال فيهم الشاعر<sup>(٢)</sup> ذماً لهم:

كُلُّهُمْ يَمْشِي رُوَيْدٌ      كُلُّهُمْ يَطْلُبُ صَيْدٌ

قلت: وفي عكسه أنشد ابن العربي لنفسه:

تواضعتُ في العلياء والأصل كابر      وحزتُ قصابَ السبق بالهون في الأمر  
سكونٌ فلا خبث السريرة أصله      وجلّ سكون الناس من عظم الكبر

قوله تعالى: «وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا» قال النحاس: ليس «سَلَامًا» من التسليم إنما هو من التسلم؛ تقول العرب: سلاماً، أي تسلماً منك، أي براءة منك. منصوب على أحد أمرين: يجوز أن يكون منصوباً بـ «قَالُوا»، ويجوز أن يكون مصدرأ؛ وهذا قول سيبويه. قال ابن عطية: والذي أقوله: أن «قَالُوا» هو العامل في «سَلَامًا» لأن المعنى قالوا هذا اللفظ. وقال مجاهد: معنى «سَلَامًا» سَدَادًا. أي يقول للجاهل كلاماً

(١) الأطلس من الذئاب: هو الذي تساقط شعره، وهو أخيب ما يكون. وقيل: هو الذي في لونه غيرة إلى السواد.

(٢) هذا من كلام أبي جعفر المنصور الخليفة في مدح عمرو بن عبيد الزاهد المشهور. وتماه:

غَيْرَ عَمْرٍو بِنِ عِيْدٍ

يدفعه به برفق ولين. ف ﴿قَالُوا﴾ على هذا التأويل عامل في قوله: ﴿سَلَامًا﴾ على طريقة النحويين؛ وذلك أنه بمعنى قولاً. وقالت فرقة: ينبغي للمخاطب أن يقول للجاهل سلاماً؛ بهذا اللفظ أي سلمنا سلاماً أو تسليماً، ونحو هذا؛ فيكون العامل فيه فعلاً من لفظه على طريقة النحويين.

مسألة - هذه الآية كانت قبل آية السيف، نسخ منها ما يخص الكفرة وبقي أدبها في المسلمين إلى يوم القيامة. وذكر سيبويه النسخ في هذه الآية في كتابه، وما تكلم فيه على نسخ سواء؛ رجع به أن المراد السلامة لا التسليم؛ لأن المؤمنين لم يؤمروا قط بالسلام على الكفرة. والآية مكية فنسختها آية السيف. قال النحاس: ولا نعلم لسيبويه كلاماً في معنى الناسخ والمنسوخ إلا في هذه الآية. قال سيبويه: لم يؤمر المسلمون يومئذ أن يسلموا على المشركين لكنه على معنى قوله: تَسَلُّمًا مِنْكُمْ، ولا خير ولا شر بيننا وبينكم. المبرد: كان ينبغي أن يقال: لم يؤمر المسلمون يومئذ بحربهم ثم أمروا بحربهم. محمد بن يزيد: أخطأ سيبويه في هذا وأساء العبارة. ابن العربي: لم يؤمر المسلمون يومئذ أن يسلموا على المشركين ولا نهوا عن ذلك، بل أمروا بالصفح والهجور الجميل، وقد كان عليه الصلاة والسلام يقف على أنديتهم ويحييهم ويدانهم، ولا يداهنهم. وقد اتفق الناس على أن السفية من المؤمنين إذا جفاك يجوز أن تقول له سلام عليك.

قلت: هذا القول أشبه بدلائل السنة. وقد بينا في سورة ﴿مريم﴾<sup>(١)</sup> اختلاف العلماء في جواز التسليم على الكفار، فلا حاجة إلى دعوى النسخ؛ والله أعلم. وقد ذكر النضر بن شميل قال حدثني الخليل قال: أتيت أبا ربيعة الأعرابي وكان من أعلم من رأيت، فإذا هو على سطح، فلما سلمنا ردة علينا السلام وقال لنا: أستووا. وبقينا متحيرين ولم ندر ما قال. فقال لنا أعرابي إلى جنبه: أمركم أن ترتفعوا. قال الخليل: هو من قول الله عز وجل: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ فصعدنا إليه فقال: هل لكم في خبز فطير، ولبن هجير، وماء نمير<sup>(٢)</sup>؟ فقلنا الساعة فارقناه. فقال سلاماً. فلم ندر ما قال. قال فقال الأعرابي: إنه

(١) راجع ١١١/١١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية. (٢) الفطير: خلاف الخمير، وهو المعجين الذي لم يختمر. والهجير: الفائق الفاضل. والنمير: الناجع في الري.

سألكم متاركة لا خير فيها ولا شر. فقال الخليل: هو من قول الله عز وجل: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾. قال ابن عطية: ورأيت في بعض التواريخ أن إبراهيم بن المهدي - وكان من الماثلين على علي بن أبي طالب رضي الله عنه - قال يوماً بحضرة المأمون وعنده جماعة: كنت أرى علي بن أبي طالب في النوم فكنت أقول له من أنت؟ فكان يقول: علي بن أبي طالب. فكنت أجيء معه إلى قنطرة فيذهب فيتقدمني في عبورها. فكنت أقول: إنما تدعي هذا الأمر بأمرأة ونحن أحق به منك. فما رأيت له في الجواب بلاغة كما يذكر عنه. قال المأمون: وبماذا جابوك؟ قال: فكان يقول لي سلاماً. قال الراوي: فكان إبراهيم بن المهدي لا يحفظ الآية أو ذهبت عنه في ذلك الوقت. فبه المأمون على الآية من حضره وقال: هو والله يا عم علي بن أبي طالب، وقد جابوك بأبلغ جواب، فخزي إبراهيم وأستحيا. وكانت رؤيا لا محالة صحيحة.

[٦٤] ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ قال الزجاج: بات الرجل يبيت إذا أدركه الليل، نام أو لم ينم. قال زهير<sup>(١)</sup>:

فبتنا قياماً عند رأس جوادنا      يزاولنا عن نفسه ونزاوله  
وأنشدوا في صفة الأولياء:

امنع جفونك أن تذوق مناماً      وأذر الدموع على الخدود سجاما  
واعلم بأنك ميت ومحاسبٌ      يا من على سخط الجليل أقاما  
لله قوم أخلصوا في حبه      فرضي بهم وأختصهم خداما  
قوم إذا جن الظلام عليهم      باتوا هنالك سجداً وقياماً  
خمص البطون من التعفف ضمرا      لا يعرفون سوى الحلال طعاماً

(١) في نسخ الأصل: «قال أمرؤ القيس». وهو تحريف. والبيت من قصيدة لزهير مطلعها:  
صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله      وعرى أنفاس الصبا ورواحله

وقال ابن عباس: من صلى ركعتين أو أكثر بعد العشاء فقد بات لله ساجداً وقائماً. وقال الكلبي: من أقام ركعتين بعد المغرب وأربعاً بعد العشاء فقد بات ساجداً وقائماً.

[٦٥] ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾.

[٦٦] ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ أي هم مع طاعتهم مشفقون خائفون وجلون من عذاب الله. ابن عباس: يقولون ذلك في سجودهم وقيامهم. ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أي لازماً دائماً غير مفارق. ومنه سمي الغريم لملازمته. ويقال: فلان مغرم بكذا أي لازم له مولع به. وهذا معناه في كلام العرب فيما ذكر ابن الأعرابي وابن عرفة وغيرهما. وقال الأعشى:

إِنْ يَعْقِبْ يَكُنْ غَرَامًا وَإِنْ يَحْطِ جَزِيلاً فَلِإِنَّهُ لَا يِيَالِي

وقال الحسن: قد علموا أن كل غريم يفارق غريمه إلا غريم جهنم. وقال الزجاج: الغرام أشد العذاب. وقال ابن زيد: الغرام الشر. وقال أبو عبيدة: الهلاك. والمعنى واحد. وقال محمد بن كعب: طالبهم الله تعالى بثمن النعيم في الدنيا فلم يأتوا به، فأغرمهم ثمنها بإدخالهم النار. ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أي بشن المستقر وبشن المقام. أي إنهم يقولون ذلك عن علم، وإذا قالوه عن علم كانوا أعرف بعظم قدر ما يطلبون، فيكون ذلك أقرب إلى النجح.

[٦٧] ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا﴾ اختلف المفسرون في تأويل هذه الآية. فقال النحاس: ومن أحسن ما قيل في معناه أن من أنفق في غير طاعة الله فهو الإسراف، ومن أمسك عن طاعة الله عز وجل فهو الإقتار، ومن أنفق في طاعة الله تعالى فهو القوام.

وقال ابن عباس: من أنفق مائة ألف في حق فليس بسرف، ومن أنفق درهماً في غير حقه فهو سرف، ومن منع من حق عليه فقد قتر. وقاله مجاهد وابن زيد وغيرهما. وقال عون بن عبد الله: الإسراف أن تنفق مال غيرك. قال ابن عطية: وهذا ونحوه غير مرتبط بالآية، والوجه أن يقال: إن النفقة في معصية أمر قد حظرت الشريعة قليله وكثيره، وكذلك التعدي على مال الغير، وهؤلاء الموصوفون منزّهون عن ذلك، وإنما التأديب في هذه الآية هو في نفقة الطاعات في المباحات، فأدب الشرع فيها ألا يفرط الإنسان حتى يضيع حقاً آخر أو عيلاً ونحو هذا، وألا يضيّق أيضاً، ويقتّر حتى يجيع العيال ويفرط في الشح، والحسن في ذلك هو القوام، أي العدل، والقوام في كل واحد بحسب عياله وحاله، وخفة ظهره وصبره وجلده على الكسب، أو ضد هذه الخصال، وخير الأمور أوساطها؛ ولهذا ترك رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق يتصدق بجميع ماله، لأن ذلك وسط بنسبة جلده وصبره في الدين، ومنع غيره من ذلك. ونعم ما قال إبراهيم النخعي: هو الذي لا يجيع ولا يعرى ولا ينفق نفقة يقول الناس قد أسرف. وقال يزيد بن أبي حبيب: هم الذين لا يلبسون الثياب لجمال، ولا يأكلون طعاماً للذة. وقال يزيد أيضاً في هذه الآية: أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا لا يأكلون طعاماً للتنعم واللذة، ولا يلبسون ثياباً للجمال، ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يسدّ عنهم الجوع ويقوّيهم على عبادة ربهم، ومن اللباس ما يستر عوراتهم ويكفّهم من الحرّ والبرد. وقال عبد الملك بن مروان لعمر بن عبد العزيز حين زوّجه أخته فاطمة: ما نفقتك؟ فقال له عمر: الحسنه بين سيّتين، ثم تلا هذه الآية. وقال عمر بن الخطاب: كفى بالمرء سرفاً ألا يشتهي شيئاً إلا اشتراه فأكله. وفي سنن ابن ماجه عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: «إن من السرف أن تأكل كل ما أشتيت» وقال أبو عبيدة: لم يزيدوا على المعروف ولم ييخلوا. كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ وقال الشاعر:

ولا تغل في شيء من الأمر واقتصد      كلاً طَرَفِي قصد الأمور ذميمٌ

وقال آخر:

إذا المرء أعطى نفسه كل ما أشتته ولم ينهها تافت إلى كل باطل  
وساقت إليه الإثم والعار بالذي دعت به إليه من حلاوة عاجل  
وقال عمر لابنه عاصم: يا بني، كل في نصف بطنك؛ ولا تطرح ثوباً حتى تستخلقه،  
ولا تكن من قوم يجعلون ما رزقهم الله في بطونهم وعلى ظهورهم. ولحاتم طي:

إذا أنت قد أعطيت بطنك سؤله وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا

﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ قرأ حمزة والكسائي والأعمش وعاصم ويحيى بن وثاب على اختلاف  
عنهما ﴿يَقْتُرُوا﴾ بفتح الياء وضم التاء، وهي قراءة حسنة؛ من قتر يقتُر. وهذا القياس  
في اللزوم، مثل قعد يقعد. وقرأ أبو عمرو بن العلاء وأبن كثير بفتح الياء وكسر التاء،  
وهي لغة معروفة حسنة. وقرأ أهل المدينة وابن عامر وأبو بكر عن عاصم بضم الياء  
وكسر التاء. قال الثعلبي: كلها لغات صحيحة. النحاس: وتعجب أبو حاتم من قراءة  
أهل المدينة هذه؛ لأن أهل المدينة عنده لا يقع في قراءتهم الشاذ، إنما يقال: أقر  
يقر إذا أفتقر، كما قال عز وجل: ﴿وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ﴾ وتأول أبو حاتم لهم أن  
المسرف يفتقر سريعاً. وهذا تأويل بعيد، ولكن التأويل لهم أن أبا عمر الجرمي حكى  
عن الأصمعي أنه يقال للإنسان إذا ضيق: قتر يقر ويقتر، وأقر يقتر. فعلى هذا تصح  
القراءة، وإن كان فتح الياء أصح وأقرب تناولاً، وأشهر وأعرف. وقرأ أبو عمرو  
والناس ﴿قَوَاماً﴾ بفتح القاف؛ يعني عدلاً. وقرأ حسان بن عبد الرحمن ﴿قَوَاماً﴾  
بكسر القاف؛ أي مبلغاً وسداداً وملاك حال. والقوام بكسر القاف: ما يدوم عليه الأمر  
ويستقر. وهما لغتان بمعنى. و﴿قَوَاماً﴾ خبر كان، وأسمها مقدر فيها؛ أي كان  
الإنفاق بين الإسراف والقتل قواماً؛ قاله الفراء. وله قول آخر يجعل ﴿بَيْنَ﴾ أسم كان  
وينصبها؛ لأن هذه الألفاظ كثير استعمالها فتركت على حالها في موضع الرفع. قال  
النحاس: ما أدري ما وجه هذا؛ لأن «بيناً» إذا كانت في موضع رفع رفعت؛ كما يقال:  
بَيْنُ عَيْنِهِ أَحْمَرُ.

[٦٨] ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾.

[٦٩] ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهْكًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ إخراج لعباده المؤمنين من صفات الكفرة في عبادتهم الأوثان، وقتلهم النفس بؤاد البنات، وغير ذلك من الظلم والاعتيال، والغارات، ومن الزنى. الذي كان عندهم مباحاً. وقال من صرف هذه الآية عن ظاهرها من أهل المعاني: لا يليق بمن أضافهم الرحمن إليه إضافة الاختصاص، وذكرهم ووصفهم من صفات المعرفة والتشريف وقوع هذه الأمور القبيحة منهم حتى يمدحوا بنفيها عنهم لأنهم أعلى وأشرف، فقال: معناها لا يدعون الهوى إلهاً، ولا يذلون أنفسهم بالمعاصي فيكون قتلاً لها. ومعنى ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي إلا بسكين الصبر وسيف المجاهدة فلا ينظرون إلى نساء ليست لهم بمحرم بشهوة فيكون سفاحاً؛ بل بالضرورة فيكون كالنكاح. قال شيخنا أبو العباس: وهذا كلام رائق غير أنه عند السبر مائق. وهي نبعة باطنية ونزعة باطنية. وإنما صح تشريف عباد الله بأختصاص الإضافة بعد أن تحلوا بتلك الصفات الحميدة وتخلوا عن نقائص ذلك من الأوصاف الذميمة، فبدأ في صدر هذه الآيات بصفات التحلي تشريفاً لهم، ثم أعقبها بصفات التخلي تقعيذاً لها؛ والله أعلم.

قلت: ومما يدل على بطلان ما أدعاه هذا القائل من أن تلك الأمور ليست على ظاهرها ما روى مسلم من حديث عبد الله بن مسعود قال قلت: يا رسول الله، أيّ الذنب أكبر عند الله؟ قال: «أن تدعو الله نداً وهو خلقك» قال: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك» قال: ثم أي؟ قال: «أن تزاني حيلة جارك» فأنزل الله تعالى تصديقها: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾. والأثام في كلام العرب العقاب، وبه قرأ ابن زيد وقتادة هذه الآية.

ومنه قول الشاعر:

جَزَى اللهُ أَبْنَ عُرْوَةَ حَيْثُ أَمْسَى      عُقُوقاً وَالْعُقُوقُ لَهُ أَثَامُ

أي جزاء وعقوبة. وقال عبد الله بن عمرو وعكرمة ومجاهد: إن «أثاماً» وإد في جهنم جعله الله عقاباً للكفرة. قال الشاعر:

لَقِيتَ الْمَهَالِكَ فِي حَرْبِنَا      وَبَعْدَ الْمَهَالِكِ تَلْقَى أَثَاماً

وقال السدي: جبل فيها. قال:

وَكَانَ مُقَامُنَا نَدَعُو عَلَيْهِم      بِأَبْطَحَ ذِي الْمَجَازِ لَهُ أَثَامُ

وفي «صحيح مسلم» أيضاً عن ابن عباس: أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا؛ فأتوا محمداً ﷺ فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن، وهو يخبرنا بأن لما عملنا كفارة، فنزلت: «وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا». ونزل: «يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ» الآية. وقد قيل: إن هذه الآية «يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا» نزلت في وحشي قاتل حمزة؛ قاله سعيد بن جبير وابن عباس، وسيأتي في «الزمر» بيانه.

قوله تعالى: «إِلَّا بِالْحَقِّ» أي بما يحق أن تقتل به النفوس من كفر بعد إيمان أو زنى بعد إحصان؛ على ما تقدم بيانه في «الأنعام»<sup>(١)</sup>. «وَلَا يَزْنُونَ» فيستحلون الفروج بغير نكاح ولا ملك يمين. ودلت هذه الآية على أنه ليس بعد الكفر أعظم من قتل النفس بغير الحق ثم الزنى؛ ولهذا ثبت في حد الزنا القتل لمن كان محصناً أو أقصى الجلد لمن كان غير محصن.

قوله تعالى: «وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا. يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ» قرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائي «يُضَاعَفْ. وَيَخْلَذُ» جزماً. وقرأ ابن كثير «يُضَعَّفُ» بشد العين وطرح الألف؛ وبالجزم في «يُضَعَّفُ. وَيَخْلَذُ». وقرأ طلحة بن سليمان «نُضَعَّفُ» بضم النون وكسر العين المشددة. «الْعَذَابُ» نصب «وَيَخْلَذُ» جزم، وهي قراءة أبي جعفر وشيبة.

(١) راجع ١٣٣/٧ طبعة أولى أو ثانية.

وقرأ عاصم في رواية أبي بكر ﴿يُضَاعَفُ﴾ بالرفع فيهما على العطف والاستئناف. وقرأ طلحة بن سليمان ﴿وَتُخْلَدُ﴾ بالتاء على معنى مخاطبة الكافر. وروي عن أبي عمرو ﴿وَيُخْلَدُ﴾ بضم الياء من تحت وفتح اللام. قال أبو علي: وهي غلط من جهة الرواية. و﴿يُضَاعَفُ﴾ بالجزم بدل من ﴿يُلْتَقَى﴾ الذي هو جزاء الشرط. قال سيبويه: مضاعفة العذاب لِقَى الأثام. قال الشاعر:

مَتَى تَأْتِنَا تُلَمِّمُ بِنَا فِي دِيَارِنَا      تَجِدُ حَطَبًا جَزَلًا وَنَارًا تَأْجَجًا  
وقال آخر:

إِنْ عَلَيَّ اللَّهَ أَنْ تُبَايَعَا<sup>(١)</sup>      تُؤْخَذُ كَرْهًا أَوْ تَجِيءَ طَائِعَا

وأما الرفع ففيه قولان: أحدهما أن تقطعه مما قبله. والآخر أن يكون محمولاً على المعنى؛ كأن قائلًا قال: ما لُقِيَ الأثام؟ ف قيل له: يضاعف له العذاب. و﴿مُهَانًا﴾ معناه ذليلاً خاسئاً مبعداً مطروداً.

[٧٠] ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ لا خلاف بين العلماء أن الاستثناء عامل في الكافر والزاني. وأختلفوا في القاتل من المسلمين على ما تقدم بيانه في ﴿النساء﴾<sup>(٢)</sup> ومضى في ﴿المائدة﴾<sup>(٣)</sup> القول في جواز التراخي في الاستثناء في اليمين، وهو مذهب ابن عباس مستدلاً بهذه الآية.

قوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ قال النحاس: من أحسن ما قيل فيه أنه يكتب موضع كافر مؤمن، وموضع عاصٍ مطيع. وقال مجاهد والضحاك: أن يبدلهم

(١) الشاهد في حمل تؤخذ على تباع وإبداله منه. وأراد بقوله: «الله» القسم، والمعنى إن على والله فلما حذف الجار نصب.

(٢) راجع ٣٣٢/٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

(٣) راجع ٢٧٣/٦ طبعة أولى أو ثانية.

الله من الشرك الإيمان وروي نحوه عن الحسن. قال الحسن: قوم يقولون التبديل في الآخرة، وليس كذلك، إنما التبديل في الدنيا؛ يبذلهم الله إيماناً من الشرك، وإخلاصاً من الشك، وإحصاناً من الفجور. وقال الزجاج: ليس بجعل مكان السيئة الحسنة، ولكن بجعل مكان السيئة التوبة، والحسنة مع التوبة. وروى أبو ذر عن النبي ﷺ: «أن السيئات تبدل بحسنات». وروي معناه عن سلمان الفارسي وسعيد بن جبير وغيرهما. وقال أبو هريرة: ذلك في الآخرة فيمن غلبت حسناته على سيئاته، فيبدل الله السيئات حسنات. وفي الخبر: «لَيَمْنَنَّ أَقْوَامٌ أَنَّهُمْ أَكْثَرُوا مِنَ السَّيِّئَاتِ» فقليل: ومن هم؟ قال: «الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات». رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ؛ ذكره الثعلبي والقشيري. وقيل: التبديل عبارة عن الغفران؛ أي يغفر الله لهم تلك السيئات لا أن يبذلها حسنات.

قلت: فلا يبعد في كرم الله تعالى إذا صحت توبة العبد أن يضع مكان كل سيئة حسنة؛ وقد قال ﷺ لمعاذ: «أتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن». وفي «صحيح مسلم» عن أبي ذر قال قال رسول الله ﷺ: «إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولا الجنة وآخر أهل النار خروجاً منها رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال أعرضوا عليه صغار ذنوبه وأرفعوا عنه كبارها فتعرض عليه صغار ذنوبه فيقال عملت يوم كذا وكذا وكذا وعملت يوم كذا وكذا وكذا فيقول نعم لا يستطيع أن ينكر وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه فيقال له فإن لك مكان كل سيئة حسنة فيقول يا رب قد عملت أشياء لا أراها هاهنا» فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه. وقال أبو طویل<sup>(١)</sup>: يا رسول الله، أرايت رجلاً عمل الذنوب كلها ولم يترك منها شيئاً، وهو في ذلك لم يترك حاجة ولا داجة إلا أقطعها فهل له من توبة؟ قال: «هل أسلمت» قال: أنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنك عبد الله ورسوله. قال: «نعم».

(١) أبو طویل: كنية شطب الممدود، رجل من كندة.

تفعل الخيرات وتترك السيئات يجعلهن الله كلهن خيرات». قال: وغدرااتي وفجرااتي يا نبي الله قال: «نعم». قال: الله أكبرا فما زال يكررها حتى توارى. ذكره الثعلبي. قال مبشر بن عبيد، وكان عالماً بالنحو والعربية: الحاجة التي تقطع على الحاج إذا توجهوا. والداجة التي تقطع عليهم إذا قفلوا. ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

[٧١] ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ لا يقال: من قام فإنه يقوم؛ فكيف قال من تاب فإنه يتوب؟ فقال ابن عباس: المعنى من آمن من أهل مكة وهاجر ولم يكن قتل وزنى بل عمل صالحاً وأدى الفرائض فإنه يتوب إلى الله متاباً؛ أي فإني قد متهم وفضلتهم على من قاتل النبي ﷺ واستحل المحارم. وقال القفال: يحتمل أن تكون الآية الأولى فيمن تاب من المشركين، ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ﴾ ثم عطف عليه من تاب من المسلمين وأتبع توبته عملاً صالحاً فله حكم التائبين أيضاً. وقيل: أي من تاب بلسانه ولم يحقق ذلك بفعله، فليست تلك التوبة نافعة؛ بل من تاب وعمل صالحاً فحقق توبته بالأعمال الصالحة فهو الذي تاب إلى الله متاباً؛ أي تاب حق التوبة وهي النصوح، ولذا أكد بالمصدر. فـ ﴿متاباً﴾ مصدر معناه التأكيد؛ كقوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ أي فإنه يتوب إلى الله حقاً فيقبل الله توبته حقاً.

[٧٢] ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾.

فيه مسألتان:

الأولى - قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ أي لا يحضرون الكذب والباطل ولا يشاهدونه. والزور كل باطل زور وزُحرف، وأعظمه الشرك وتعظيم الأنداد. وبه فسر الضحاك وابن زيد وابن عباس. وفي رواية عن ابن عباس أنه أعياد المشركين. عكرمة: لعبت

كان في الجاهلية يسمى بالزور. مجاهد: الغناء؛ وقاله محمد بن الحنفية أيضاً. ابن جريج: الكذب؛ وروي عن مجاهد. وقال علي بن أبي طلحة ومحمد بن علي: المعنى لا يشهدون بالزور؛ من الشهادة لا من المشاهدة. قال ابن العربي: أما القول بأنه الكذب فصحيح، لأن كل ذلك إلى الكذب يرجع. وأما من قال إنه لعب كان في الجاهلية فإنه يحرم ذلك إذا كان فيه قمار أو جهالة، أو أمر يعود إلى الكفر. وأما القول بأنه الغناء فليس ينتهي إلى هذا الحد.

قلت: من الغناء ما ينتهي سماعه إلى التحريم، وذلك كالأشعار التي توصف فيها الصور المستحسنات والخمر وغير ذلك مما يحرك الطباع ويخرجها عن الاعتدال، أو يشير كامناً من حب الله؛ مثل قول بعضهم:

ذهبي اللون تحسب من      وجنتيه النار تُقْتَدَحُ  
خوفوني من فضيحتي      ليتي وافي وأفتضح

لا سيما إذا اقترن بذلك شَبَابَات<sup>(١)</sup> وطارات مثل ما يفعل اليوم في هذه الأزمان، على ما بيناه في غير هذا الموضع. وأما من قال إنه شهادة الزور، وهي:

الثانية - فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يجلد شاهد الزور أربعين جلدة، ويسخّم وجهه، ويحلق رأسه، ويطوف به في السوق. وقال أكثر أهل العلم: ولا تقبل له شهادة أبداً وإن تاب وحسنت حاله فأمره إلى الله. وقد قيل: إنه إذا كان غير مبرّر فحسنت حاله قبلت شهادته حسبما تقدّم بيانه في سورة ﴿الحج﴾<sup>(٢)</sup> فتأمله هناك.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ قد تقدّم الكلام في اللغو<sup>(٣)</sup>. وهو كل سقط من قول أو فعل؛ فيدخل فيه الغناء واللهو وغير ذلك مما قاربه، ويدخل فيه سفه المشركين وأذاهم المؤمنين وذكر النساء وغير ذلك من المنكر. وقال مجاهد: إذا أودوا صفحوا. وروي عنه إذا ذكر النكاح كفوا عنه. وقال الحسن: اللغو المعاصي كلها. وهذا جامع. و﴿كراماً﴾ معناه معرضين منكربين لا يرضونه، ولا يمالؤون عليه، ولا يجالسون أهله.

(١) الشبابة (بالتشديد): نوع من المزمар (مولد).

(٢) راجع ٩٩/٣ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

(٣) راجع ٥٥/١٢ طبعة أولى أو ثانية.

أي مروا مر الكرام الذين لا يدخلون في الباطل. يقال: تكرم فلان عما يشينه؛ أي تنزه وأكرم نفسه عنه. وروي أن عبد الله بن مسعود سمع غناء فأسرع وذهب، فبلغ رسول الله ﷺ فقال: «لقد أصبح ابن أمّ عبد كريماً». وقيل: من المرور باللغو كريماً أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

[٧٣] ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يُخِرُوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾.

فيه مسألتان:

الأولى - قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ أي إذا قرئ عليهم القرآن ذكروا آخرتهم ومعادهم ولم يتغافلوا حتى يكونوا بمنزلة من لا يسمع. وقال: ﴿لَمْ يُخِرُوا﴾ وليس ثمَّ خور؛ كما يقال: قعد يبكي وإن كان غير قاعد؛ قاله الطبري واختاره؛ قال ابن عطية: وهو أن يخروا صمًّا وعمياناً هي صفة الكفار، وهي عبارة عن إعراضهم؛ وقرن ذلك بقولك: قعد فلان يشتمني وقام فلان يبكي وأنت لم تقصد الإخبار بقعود ولا قيام، وإنما هي توطئات في الكلام والعبارة. قال ابن عطية: فكان المستمع للذكر قائم القناة قويم الأمر، فإذا أعرض وضل كان ذلك خوراً، وهو السقوط على غير نظام وترتيب؛ وإن كان قد شبه به الذي يخسر ساجداً لكن أصله على غير ترتيب. وقيل: أي إذا تليت عليهم آيات الله وجلت قلوبهم فخروا سجداً وبكيا، ولم يخروا عليها صمًّا وعمياناً. وقال الفراء: أي لم يقعدوا على حالهم الأول كأن لم يسمعوا.

الثانية - قال بعضهم: إن من سمع رجلاً يقرأ سجدة يسجد معه؛ لأنه قد سمع آيات الله تتلى عليه. قال ابن العربي: وهذا لا يلزم إلا القارئ وحده، وإنما غيره فلا يلزمه ذلك إلا في مسألة واحدة؛ وهو أن الرجل إذا تلا القرآن وقرأ السجدة فإن كان الذي جلس معه جلس يسمعه فليسجد معه، وإن لم يلتزم السماع فلا سجود عليه. وقد مضى هذا في «الأعراف»<sup>(١)</sup>.



قوله تعالى: ﴿وَأَجْعَلْنَا لِمَنْتَقِينَ إِمَامًا﴾ أي قدوة يقتدى بنا في الخير، وهذا لا يكون إلا أن يكون الداعي متقياً قدوة؛ وهذا هو قصد الداعي. وفي «الموطأ»: «إنكم أيها الرهط أئمة يقتدى بكم» فكان ابن عمر يقول في دعائه: اللهم أجعلنا من أئمة المتقين. وقال: ﴿إِمَامًا﴾ ولم يقل أئمة على الجمع؛ لأن الإمام مصدر. يقال: أم القوم فلان إماماً؛ مثل الصيام والقيام. وقال بعضهم: أراد أئمة، كما يقول القائل أميرنا هؤلاء، يعني أمراءنا. وقال الشاعر:

يا عاذلاتي لا تَزِدْنَ مَلَامَتِي      إِنَّ الْعَوَازِلَ لَسَنَ لِي بِأَمِيرٍ

أي أمراء. وكان القشيري أبو القاسم شيخ الصوفية يقول: الإمامة بالدعاء لا بالدعوى، يعني بتوفيق الله وتيسيره ومنته لا بما يدّعيه كل أحد لنفسه. وقال إبراهيم النخعي: لم يطلبوا الرياسة بل بأن يكونوا قدوة في الدين. وقال ابن عباس: أجعلنا أئمة هدى، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ وقال مكحول: أجعلنا أئمة في التقوى يقتدي بنا المتقون. وقيل: هذا من المقلوب؛ مجازة: وأجعل المتقين لنا إماماً؛ وقاله مجاهد. والقول الأول أظهر وإليه يرجع قول ابن عباس ومكحول، ويكون فيه دليل على أن طلب الرياسة في الدين ندب. وإمام واحد يدل على جمع؛ لأنه مصدر كالقيام. قال الأخفش: الإمام جمع آم من أم يؤم جمع على فعال، نحو صاحب وصحاب، وقائم وقيام.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرَّةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ ﴿أُولَئِكَ﴾ خبر و ﴿عِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ في قول الزجاج على ما تقدم، وهو أحسن ما قيل فيه. وما تخلل بين المبتدأ وخبره أوصافهم من التحلي والتخلي؛ وهي إحدى عشرة: التواضع، والحلم، والتهجد، والخوف، وترك الإسراف والإقتار، والنزاهة عن الشرك، والزنى والقتل، والتوبة وتجنب الكذب، والعفو عن المسيء، وقبول المواعظ، والابتهاال إلى الله. و ﴿الغرفة﴾ الدرجة الرفيعة وهي أعلى منازل الجنة وأفضلها كما أن الغرفة أعلى مساكن الدنيا، حكاه ابن شجرة. وقال الضحاك: الغرفة الجنة. ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أي بصبرهم على أمر ربهم، وطاعة نبيهم عليه أفضل الصلاة والسلام. وقال محمد بن علي بن الحسين: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ على الفقر والفاقة في الدنيا. وقال الضحاك: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ عن الشهوات ﴿وَيُلْقَوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ قرأ أبو بكر والمفضل والأعمش ويحيي

وحمزة والكسائي وخلف ﴿وَيَلْقَوْنَ﴾ مخففة، وأختاره الفراء؛ قال لأن العرب تقول: فلان يُلْقَى بالسلام وبالتحية وبالخير (بالتاء)، وقلما يقولون فلان يُلْقَى السلامة. وقرأ الباقون ﴿وَيَلْقَوْنَ﴾ وأختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ قال أبو جعفر النحاس: وما ذهب إليه الفراء وأختاره غلط؛ لأنه يزعم أنها لو كانت ﴿يَلْقَوْنَ﴾ كانت في العربية بتحية وسلام، وقال كما يقال: فلان يُلْقَى بالسلام وبالخير؛ فمن عجيب ما في هذا الباب أنه قال يتلقى والآية ﴿يَلْقَوْنَ﴾ والفرق بينهما بين؛ لأنه يقال فلان يتلقى بالخير ولا يجوز حذف (الباء)، فكيف يشبه هذا ذلك! وأعجب من هذا أن في القرآن ﴿وَلَقَاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ ولا يجوز أن يقرأ بغيره. وهذا يبين أن الأولى على خلاف ما قال. والتحية من الله والسلام من الملائكة. وقيل: التحية البقاء الدائم والملك العظيم؛ والأظهر أنهما بمعنى واحد، وأنهما من قبل الله تعالى؛ دليله قوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ وسيأتي. ﴿خَالِدِينَ﴾ نصب على الحال ﴿فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ هذه آية مشكلة تعلقت بها الملحدة. يقال: ما عبأت بفلان أي ما باليت به؛ أي ما كان له عندي وزن ولا قدر. وأصل يعبأ من العبء وهو الثقل. وقول الشاعر<sup>(١)</sup>:

كَأَن بَصْدْرَهُ وَبِجَانِيهِ عَيْبَرًا بَاتَ يَعْبُوهُ عَرُوسُ

أي يجعل بعضه على بعض. فالعبء الحمل الثقيل، والجمع أعباء. والعبء المصدر. وما أستفهامية؛ ظهر في أثناء كلام الزجاج، وصرح به الفراء. وليس يبعد أن تكون نافية؛ لأنك إذا حكمت بأنها أستفهام فهو نفي خرج مخرج الاستفهام؛ كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ قال ابن الشجري: وحقيقة القول عندي أن موضع ﴿مَا﴾ نصب؛ والتقدير: أي عبء يعبأ بكم؛ أي أي مبالاة يبالي ربي بكم لولا دعاؤكم؛ أي لولا دعاؤه إياكم لتعبدوه، فالمصدر الذي هو الدعاء على هذا القول مضاف إلى مفعوله؛ وهو اختيار

(١) هو أبو زيد يصف أسداً، كما في «اللسان» مادة «عبأ». ورواه هكذا:

كَأَن بَنَحْرَهُ وَبِمَنْكِيهِ عَيْبَرًا بَاتَ يَعْبُوهُ عَرُوسُ

القراء. وفاعله محذوف وجواب لولا محذوف كما حذف في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ تقديره: لم يعبأ بكم. ودليل هذا القول قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ فالخطاب لجميع الناس؛ فكأنه قال لقريش منهم: أي ما يبالي الله بكم لولا عبادتكم إياه أن لو كانت؛ وذلك الذي يعبأ بالبشر من أجله. ويؤيد هذا قراءة ابن الزبير وغيره ﴿فَقَدْ كَذَّبَ الْكَافِرُونَ﴾ فالخطاب بما يعبأ لجميع الناس، ثم يقول لقريش: فأنتم قد كذبتهم ولم تعبدوه فسوف يكون التكذيب هو سبب العذاب لزماً. وقال النقاش وغيره: المعنى؛ لولا أستغاثتكم إليه في الشدائد ونحو ذلك. بيانه: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾ ونحو هذا. وقيل: ﴿مَا يَعْبَأُ بِكُمْ﴾ أي بمغفرة ذنوبكم ولا هو عنده عظيم ﴿لَوْ لَا دُعَاؤُكُمْ﴾ معه الآلهة والشركاء. بيانه: ﴿مَا يَقَعُلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾؛ قاله الضحاك. وقال الوليد بن أبي الوليد: بلغني فيها أي ما خلقتكم ولي حاجة إليكم إلا تسألوني فأغفر لكم وأعطيك. وروى وهب بن منبه أنه كان في التوراة «يا بن آدم وعزتي ما خلقتك لأربح عليك إنما خلقتك لتربح عليّ فاتخذني بدلاً من كل شيء فأنا خير لك من كل شيء». قال ابن جني قرأ ابن الزبير وابن عباس ﴿فَقَدْ كَذَّبَ الْكَافِرُونَ﴾. قال الزهراوي والنحاس: وهي قراءة ابن مسعود وهي على التفسير؛ للتاء والميم في ﴿كذبتهم﴾. وذهب القتيبي والفارسي إلى أن الدعاء مضاف إلى الفاعل والمفعول محذوف، الأصل لولا دعاؤكم آلهة من دونه، وجواب ﴿لولا﴾ محذوف تقديره في هذا الوجه: لم يعذبكم. ونظير قوله: لولا دعاؤكم آلهة قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ﴾. ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ أي كذبتهم بما دعيتم إليه؛ هذا على القول الأول؛ وكذبتهم بتوحيد الله على الثاني. ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ أي يكون تكذيبكم ملازماً لكم. والمعنى: فسوف يكون جزاء التكذيب كما قال: ﴿وَرَجِدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ أي جزاء ما عملوا وقوله: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي جزاء ما كنتم تكفرون. وحسن إضمار التكذيب لتقدم ذكر فعله؛ لأنك إذا ذكرت الفعل دل بلفظه على مصدره، كما قال: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ أي لكان الإيمان. وقوله: ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أي يرضى الشكر. ومثله كثير. وجمهور المفسرين



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### سورة الشعراء

هي مكية في قول الجمهور. وقال مقاتل: منها مدني؛ الآية التي يذكر فيها الشعراء، وقوله: ﴿أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾. وقال ابن عباس وقتادة: مكية إلا أربع آيات منها نزلت بالمدينة من قوله: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ إلى آخرها. وهي مائتان وسبع وعشرون آية. وفي رواية: ست وعشرون. وعن ابن عباس قال النبي ﷺ: «أعطيت السورة التي تذكر فيها البقرة من الذكر الأول وأعطيت طه وطسم من ألواح موسى وأعطيت فواتح القرآن وخواتيم سورة البقرة من تحت العرش وأعطيت المفصل نافلة». وعن البراء بن عازب أن النبي ﷺ قال: «إن الله أعطاني السبع الطوال مكان التوراة وأعطاني المئين مكان الإنجيل. وأعطاني الطواسين مكان الزبور وفضلني بالحواميم والمفصل ما قرأه نبي قبلي».

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- [١] ﴿طسّر﴾.
- [٢] ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾.
- [٣] ﴿لَكَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحْسَبْ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾.
- [٤] ﴿إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾.
- [٥] ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾.
- [٦] ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.
- [٧] ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَرَاهَتْ رَبَّنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ ذَوْجٍ كَرِيمٍ﴾.
- [٨] ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.
- [٩] ﴿وَلَنْ رَيْكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

قوله تعالى: ﴿طَسَمَ﴾ قرأ الأعمش ويحيى وأبو بكر والمفضل وحزمة والكسائي وخلف بإمالة الطاء مشبعاً في هذه السورة وفي أختيها. وقرأ نافع وأبو جعفر وشيبة والزهري بين اللفظين؛ وأختره أبو عبيد وأبو حاتم. وقرأ الباقر بالفتح مشبعاً. قال الثعلبي؛ وهي كلها لغات فصيحة. وقد مضى في ﴿طه﴾<sup>(١)</sup> قول النحاس في هذا. قال النحاس: وقرأ المدنيون وأبو عمرو وعاصم والكسائي ﴿طَسَمَ﴾ بإدغام النون في الميم، والفراء يقول بإخفاء النون. وقرأ الأعمش وحزمة ﴿طسين ميم﴾ بإظهار النون. قال النحاس: النون الساكنة والتنوين أربعة أقسام عند سيبويه: يبينان عند حروف الحلق، ويدغمان عند الراء واللام والميم والواو والياء، ويقلبان ميماً عند الباء ويكونان من الخياشيم؛ أي لا يبينان؛ فعلى هذه الأربعة الأقسام التي نصها سيبويه لا تجوز هذه القراءة؛ لأنه ليس هاهنا حرف من حروف الحلق فتبين النون عنده، ولكن في ذلك وَجْهٌ: وهو أن حروف المعجم حكمها أن يوقف عليها، فإذا وقف عليها تبينت النون. قال الثعلبي: الإدغام اختيار أبي عبيد وأبي حاتم قياساً على كل القرآن، وإنما أظهرها أولئك للتبيين والتمكين، وأدغمها هؤلاء لمجاورتها حروف الفم. قال النحاس: وحكى أبو إسحاق في كتابه «فيما يجري وفيما لا يجري» أنه يجوز أن يقال ﴿طسين ميم﴾ بفتح النون وضم الميم، كما يقال هذا معدي كرب. وقال أبو حاتم: قرأ خالد ﴿طسين ميم﴾. ابن عباس: ﴿طسم﴾ قَسَمَ وهو أَسَمَ من أسماء الله تعالى، والمقسم عليه ﴿إِنْ نَشَأْ نُثَوِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً﴾. وقال قتادة: أَسَمَ من أسماء القرآن أقسم الله به. مجاهد: هو أَسَمَ السورة؛ ويحسن افتتاح السورة. الربيع: حساب مدة قوم. وقيل: قارعة تحل بقوم. ﴿طَسَمَ﴾ و ﴿طَسَّ﴾ واحد. قال<sup>(٢)</sup>:  
وَفَاوْكَمَّا كَالرَّبِّيعِ أَشْجَاهُ طَاسِمُهُ      بَانَ تُسْعِدَا وَالدَّمَعُ أَشْفَاهُ سَاجِمُهُ

(١) راجع ١٦٨/١١ طبعة أولى أو ثانية.

(٢) هو المتني؛ والبيت مطلع قصيدة له مدح بها أبا الحسن علي بن عبد الله العدوي. وأشجاء: أحزنه. والطاسم: الدارس. والساجم: السائل. والمعنى: طلب وفاءهما بالإسعاد وهو الإعانة على البكاء والمواقفة، ولذلك قال: (والدمع أشفاه ساجمه) والمعنى أبكيا معي بدمع في غاية السجوم فهو أشفى للوجد، فإن الربع في غاية الطسوم وهو أشجى للمحب. وأراد بالوفاء هنا البكاء لأنهما عاهداه على الإسعاد. «شرح التبيان ج ٢ للمكبري».

وقال القرطبي: أقسم الله بطوله وسنائه وملكه. وقال عبد الله بن محمد بن عَقِيل: الطاء طور سيناء والسين إسكندرية والميم مكة. وقال جعفر بن محمد بن علي: الطاء شجرة طوبى، والسين سِدرة المنتهى، والميم محمد ﷺ. وقيل: الطاء من الطاهر والسين من القدوس - وقيل من السميع وقيل من السلام - والميم من المجيد. وقيل: من الرحيم. وقيل: من الملك. وقد مضى هذا المعنى في أول سورة «البقرة»<sup>(١)</sup>. والطَّوَّاسِيمُ والطَّوَّاسِينُ سور في القرآن جُمعت على غير قياس. وأنشد أبو عبيدة:

وبالطَّوَّاسِيمِ التي قد تُثُلَّتْ      وبالحوامِيمِ التي قد سُبُعَتْ

قال الجوهري: والصواب أن تجمع بذوات وتضاف إلى واحد، فيقال: ذوات طسم وذوات حم.

قوله تعالى: «تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ» رفع على إضمار مبتدأ أي هذه «تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ» التي كنتم وعدتم بها؛ لأنهم قد وعدوا في التوراة والإنجيل بإنزال القرآن. وقيل: «تِلْكَ» بمعنى هذه. «لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ» أي قاتل نفسك ومهلكها. وقد مضى في «الكهف»<sup>(٢)</sup> بيانه. «أَلَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ» أي لتركهم الإيمان. قال الفراء: «أَنْ» في موضع نصب؛ لأنها جزاء. قال النحاس: وإنما يقال: بأن مكسورة لأنها جزاء؛ كذا المتعارف. والقول في هذا ما قاله أبو إسحاق في كتابه في القرآن؛ قال: «أَنْ» في موضع نصب مفعول من أجله؛ والمعنى لعلك قاتل نفسك لتركهم الإيمان. «إِنْ نَشَأْ نُنزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً» أي معجزة ظاهرة وقدرة باهرة فتصير معارفهم ضرورية، ولكن سبق القضاء بأن تكون المعارف نظرية. وقال أبو حمزة الشامي في هذه الآية: صوت يسمع من السماء في النصف من شهر رمضان؛ تخرج به العواقر من البيوت وتضج له الأرض. وهذا فيه بعد؛ لأن المراد قريش لا غيرهم. «فَقَطَّلْتُ أَعْنَاقَهُمْ» أي فتظل أعناقهم «لَهَا خَاضِعِينَ» قال مجاهد: أعناقهم كبراؤهم؛ وقال النحاس: ومعروف في اللغة؛ يقال: جاءني عُنُق من الناس أي رؤساء منهم. أبو زيد والأخفش: «أَعْنَاقُهُمْ» جماعاتهم؛

(١) راجع ١٥٤/١ طبعة ثانية أو ثالثة. (٢) راجع ٣٤٨/١٠ طبعة أولى أو ثانية.

يقال: جاءني عُنُق من الناس أي جماعة. وقيل: إنما أراد أصحاب الأعناق، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه. قتادة: المعنى لو شاء لأنزل آية يذلون بها فلا يلوي أحد منهم عنقه إلى معصية. ابن عباس: نزلت فينا وفي بني أمية ستكون لنا عليهم الدولة فتذل لنا أعناقهم بعد معاوية؛ ذكره الثعلبي والغزنوي. وخاضعين وخاضعة هنا سواء؛ قاله عيسى بن عمر وأختره المبرد. والمعنى: إنهم إذا ذلت رقابهم ذلّوا؛ فالإخبار عن الرقاب إخبار عن أصحابها. ويسوغ في كلام العرب أن تترك الخبر عن الأول وتخبر عن الثاني؛ قال الراجز:

طَوَّلُ اللَّيَالِي أَسْرَعَتْ فِي نَقْضِي      طَوَيْنَ طَوْلِي وَطَوَيْنَ عَرَضِي

فأخبر عن الليالي وترك الطول. وقال جرير<sup>(١)</sup>:

أَرَى مَرَّ السُّنَيْنِ أَخَذَنَ مِنِّي      كَمَا أَخَذَ السَّرَارُ مِنَ الْهِلَالِ

ولأنما أجاز ذلك لأنه لو أسقط مرّ وطول من الكلام لم يفسد معناه، فكذلك رد الفعل إلى الكناية في قوله: ﴿فَطَلَّتْ أَغْنَاؤُهُمْ﴾ لأنه لو أسقط الأعناق لما فسد الكلام، ولأدى ما بقي من الكلام عنه حتى يقول: فظلّوا لها خاضعين. وعلى هذا اعتمد الفراء وأبو عبيدة. والكسائي يذهب إلى أن المعنى خاضعيها هم، وهذا خطأ عند البصريين والفراء. ومثل هذا الحذف لا يقع في شيء من الكلام؛ قاله النحاس.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدِّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ تقدّم في ﴿الأنبياء﴾<sup>(٢)</sup>. ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ أي أعرضوا ومن أعرض عن شيء ولم يقبله فهو تكذيب له. ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وعيد لهم؛ أي فسوف يأتيهم عاقبة ما كذبوا والذي استهزءوا به.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ نبه على عظمتها وقدرته وأنهم لو رأوا بقلوبهم ونظروا ببصائرهم لعلموا أنه الذي يستحق أن يعبد؛ إذ هو القادر على كل شيء. والزوج هو اللون؛ قاله الفراء. و﴿كريم﴾ حسن شريف، وأصل

(١) تقدّم البيت في ٢٦٤/٧ طبعة أولى أو ثانية.

(٢) راجع ٢٦٨/١١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

الكرم في اللغة الشرف والفضل، فنخلة كريمة أي فاضلة كثيرة الثمر<sup>(١)</sup>، ورجل كريم شريف فاضل صفوح. ونبتت الأرض وأنبتت بمعنى. وقد تقدّم في سورة ﴿البقرة﴾. والله سبحانه المخرج والمنبت له. وروي عن الشعبي أنه قال: الناس من نبات الأرض فمن صار منهم إلى الجنة فهو كريم، ومن صار إلى النار فهو لثيم. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أي فيما ذكر من الإنبات في الأرض لدلالته على أن الله قادر، لا يعجزه شيء. ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي مصدقين لما سبق من علمي فيهم. و ﴿كَانَ﴾ هنا صلة في قول سيبويه؛ تقديره: وما أكثرهم مؤمنين. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ يريد المنيع المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه.

[١٠] ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

[١١] ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ﴾.

[١٢] ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾.

[١٣] ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَايَ فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ﴾.

[١٤] ﴿وَلَهُمْ عَلَىٰ ذُنُوبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾.

[١٥] ﴿قَالَ كَلَّا فَإِذْ هَبَا نَارَآئِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ﴾ ﴿إِذْ﴾ في موضع نصب؛ المعنى: وأتل عليهم ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ﴾ ويدل على هذا أن بعده ﴿وَأتل عليهم نبأ إبراهيم﴾ ذكره النحاس. وقيل: المعنى؛ وأذكر إذ نادى كما صرح به في قوله: ﴿وَأَذْكُرُ أَخَا عَادٍ﴾ وقوله: ﴿وَأَذْكُرُ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ﴾ وقوله: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾. وقيل: المعنى؛ ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ﴾ كان كذا وكذا. والنداء الدعاء بيا فلان، أي قال ربك يا موسى ﴿أَنْ أَنْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ثم أخبر من هم فقال: ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ﴾ ف ﴿قَوْمَ﴾ بدل؛ ومعنى ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ ألا يخافون عقاب الله؟ وقيل هذا من الإيماء إلى الشيء لأنه أمره أن يأتي القوم الظالمين، ودل قوله: ﴿يَتَّقُونَ﴾ على أنهم لا يتقون، وعلى أنه أمرهم بالتقوى. وقيل: المعنى؛ قل لهم ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ وجاء بالياء لأنهم غيب وقت الخطاب، ولو جاء بالتاء

(١) في نسخة: كثيرة الثمير.

لجواز. ومثله ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ﴾ بالتاء والياء. وقد قرأ عبيد بن عمير وأبو حازم ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾. بتاءين أي قل لهم ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿قَالَ رَبِّ﴾ أي قال موسى ﴿رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُون﴾ أي في الرسالة والنبوة. ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾ لتكذيبهم إياي. وقراءة العامة ﴿وَيَضِيقُ﴾ ﴿وَلَا يَنْطَلِقُ﴾ بالرفع على الاستئناف. وقرأ يعقوب وعيسى بن عمر وأبو حيوة ﴿وَيَضِيقُ - وَلَا يَنْطَلِقُ﴾ بالنصب فيهما ردًا على قوله: ﴿أَنْ يُكَذِّبُون﴾ قال الكسائي: القراءة بالرفع؛ يعني في ﴿يَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾ يعني نسقا على ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾. قال الفراء: ويقرأ بالنصب. حكى ذلك عن الأعرج وطلحة وعيسى بن عمر وكلاهما له وجه. قال النحاس: الوجه الرفع؛ لأن النصب عطف على ﴿يُكَذِّبُونَ﴾ وهذا بعيد يدل على ذلك قوله عز وجل: ﴿وَأَخْلَلْ عُقَدَةَ مِنْ لِسَانِي يَقْفَهُوا قَوْلِي﴾ فهذا يدل على أن هذه كذا. ومعنى ﴿وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾ في المحاجة على ما أحب؛ وكان في لسانه عُقْدَةٌ على ما تقدم في ﴿طه﴾<sup>(١)</sup>. ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ﴾ أرسل إليه جبريل بالوحي، واجعله رسولا معي ليؤازرنِي ويظاهرنِي ويعاوننِي. ولم يذكر هنا ليعينني؛ لأن المعنى كان معلوماً، وقد صرح به في سورة ﴿طه﴾: ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا﴾ وفي القصص: ﴿أَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾ وكان موسى أذن له في هذا السؤال، ولم يكن ذلك استعفاء من الرسالة بل طلب من يعينه، ففي هذا دليل على أن من لا يستقل بأمر، ويخاف من نفسه تقصيراً، أن يأخذ من يستعين به عليه، ولا يلحقه في ذلك لوم. ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُون﴾ الذنب هنا قتل القبطي واسمه فاثور على ما يأتي في ﴿القصص﴾ بيانه، وقد مضى في ﴿طه﴾ ذكره. وخاف موسى أن يقتلوه به، ودل على أن الخوف قد يصحب الأنبياء والفضلاء والأولياء مع معرفتهم بالله وأن لا فاعل إلا هو؛ إذ قد يسلط من شاء على من شاء. ﴿قَالَ كَلَّا﴾ أي كلا لن يقتلوك. فهو ردع وزجر عن هذا الظن، وأمر بالثقة بالله تعالى؛ أي ثق بالله وانزجر عن خوفك منهم؛ فإنهم لا يقدرون على قتلك،

ولا يقولون عليه. ﴿فَآذِهِبَا﴾ أي أنت وأخوك فقد جعلته رسولا معك. ﴿بِآيَاتِنَا﴾ أي ببراهيننا وبالمعجزات. وقيل: أي مع آياتنا. ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ يريد نفسه سبحانه وتعالى. ﴿مُسْتَمِعُونَ﴾ أي سامعون ما يقولون وما يجاوبون. وإنما أراد بذلك تقوية قلوبهما وأنه يعينهما ويحفظهما. والاستماع إنما يكون بالإصغاء، ولا يوصف الباري سبحانه بذلك. وقد وصف سبحانه نفسه بأنه السميع البصير. وقال في ﴿طه﴾: ﴿أَسْمِعْ وَأَرَى﴾ وقال: ﴿مَعَكُمْ﴾ فأجراهما مجرى الجمع؛ لأن الاثنين جماعة. ويجوز أن يكون لهما ولمن أرسلنا إليه. ويجوز أن يكون لجميع بني إسرائيل.

[١٦] ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

[١٧] ﴿أَن أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾.

[١٨] ﴿قَالَ أَلَمْ نَرْبِكْ فَمَا وَلِيدَا وَلَيْسَتْ فِينَا مِنْ عُمَرَاءِ سِنِينَ﴾.

[١٩] ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكِ الْتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

[٢٠] ﴿قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾.

[٢١] ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

[٢٢] ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنَّا عَلَىٰ أَنْ عَبَّدَتْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال أبو عبيدة: رسول بمعنى رسالة والتقدير على هذا؛ إنا ذوو رسالة رب العالمين. قال الهذلي:

الْكِنْيَ إِلَيْهَا وَخَيْرُ الرَّسُولِ لِي أَعْلَمُهُمْ بِنَوَاحِي الْخَبَرِ

الكني إليها معناه أرسلني. وقال آخر<sup>(١)</sup>:

لَقَدْ كَذَّبَ الْوَاشُونَ مَا بُخْتُ عَنْدهُمْ بَسِيرٌ وَلَا أَرْسَلْتُهُمْ بِرَسُولٍ

(١) هو كثير. ويروى أيضاً في اللسان مادة «رسل»:

بليلى ولا أرسلتُهُم بِرَسُولٍ

آخر<sup>(١)</sup>:

أَلَا أُبَلِّغُ بَنِي عَمْرُو رَسُولًا      بَأْتِي عَنْ فُتَاخَتِكُمْ غَنِيًّا<sup>(١)</sup>

وقال العباس بن مرادس:

أَلَا مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي خُفَافًا      رَسُولًا بَيْتُ أَهْلِكَ مُنْتَهَاها

يعني رسالة فلذلك أنثها. قال أبو عبيد: ويجوز أن يكون الرسول في معنى الاثنين والجمع؛ فتقول العرب: هذا رسولي ووكلي، وهؤلاء رسولي ووكلي. ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي﴾. وقيل: معناه إن كل واحد منّا رسول رب العالمين. ﴿أَنْ أَرْسَلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي أطلقهم وخلّ سبيلهم حتى يسيروا معنا إلى فلسطين ولا تستعبدهم؛ وكان فرعون أستعبدهم أربعمئة سنة، وكانوا في ذلك الوقت ستمائة ألف وثلثين ألفا. فأنطلقا إلى فرعون فلم يؤذن لهما سنة في الدخول عليه، فدخل البوّاب على فرعون فقال: ها هنا إنسان يزعم أنه رسول رب العالمين. فقال فرعون: أئذن له لعلنا نضحك منه؛ فدخل على أديا الرسالة. وروى وهب وغيره: أنهما لما دخلا على فرعون وجداه وقد أخرج سباعا من أسد ونمور وفهود يتفرج عليها، فخاف سواسها أن تبطش بموسى وهرون، فأسرعا إليها، وأسرعت السباع إلى موسى وهرون، فأقبلت تلحس أقدامهما، وتبصص إليهما بأذناهما، وتلصق خدودها بفخذيهما، فعجب فرعون من ذلك فقال: ما أنتما؟ قالا: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فعرف موسى لأنه نشأ في بيته؛ فـ ﴿قَالَ أَلَمْ نَرْبُّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ على جهة المنّ عليه والاحتقار. أي ربيناك صغيراً ولم نقتلك من جملة من قتلنا ﴿وَلَكِنَّتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ فمتى كان هذا الذي تدعيه. ثم قرره بقتل القبطي بقوله: ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾ والفعلة بفتح الفاء المرة من الفعل. وقرأ الشعبي ﴿فَعَلَتَكَ﴾ بكسر الفاء والفتح أولى؛ لأنها المرة الواحدة، والكسر بمعنى الهيئة والحال، أي فعلتك التي تعرف فكيف تدّعي مع علمنا أحوالك بأن الله أرسلك. وقال الشاعر:

كَأَنَّ مِشِيَّتَهَا مِنْ بَيْتِ جَارَتِهَا      مَرُّ السَّحَابَةِ لَا رَيْثَ وَلَا عَجَلُ

(١) هو الأسعر الجعفي. عن فتاحتكم: أي عن حكمكم.

ويقال: كان ذلك أيام الردة والردة. ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ قال الضحاك: أي في قتلك القبطي إذ هو نفس لا يحل قتله. وقيل: أي بنعمتي التي كانت لنا عليك من التربية والإحسان إليك؛ قاله ابن زيد. الحسن: ﴿مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ في أني إلهك. السدي: ﴿مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ بالله لأنك كنت معنا على ديننا هذا الذي تعييه. وكان بين خروج موسى عليه السلام حين قتل القبطي وبين رجوعه نبيا أحد عشر عاماً غير أشهر. فـ ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا﴾ أي فعلت تلك الفعلة يريد قتل القبطي ﴿وَأَنَا﴾ إذ ذاك ﴿مِنَ الضَّالِّينَ﴾ أي من الجاهلين؛ فنفي عن نفسه الكفر، وأخبر أنه فعل ذلك على الجهل. وكذا قال مجاهد ﴿مِنَ الضَّالِّينَ﴾ من الجاهلين. ابن زيد: من الجاهلين بأن الوكزة تبلغ القتل. وفي مصحف عبد الله ﴿مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ويقال لمن جهل شيئاً ضل عنه. وقيل: ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ من الناسين؛ قاله أبو عبيدة. وقيل: ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ عن النبوة ولم يأتي عن الله فيه شيء، فليس علي فيما فعلته في تلك الحالة توبيخ. ويبين بهذا أن التربية فيهم لا تنافي النبوة والحلم على الناس، وأن القتل خطأ أو في وقت لم يكن فيه شرع لا ينافي النبوة.

قوله تعالى: ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ أي خرجت من بينكم إلى مدين كما في سورة القصص: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ وذلك حين القتل. ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ يعني النبوة؛ عن السدي وغيره. الزجاج: تعليم التوراة التي فيها حكم الله. وقيل علماً وفهماً. ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أختلف الناس في معنى هذا الكلام؛ فقال السدي والطبري والفراء: هذا الكلام من موسى عليه السلام على جهة الإقرار بالنعمة؛ كأنه يقول: نعم! وتربيتك نعمة علي من حيث عبّدت غيري وتركتني، ولكن لا يدفع ذلك رسالتي. وقيل: هو من موسى عليه السلام على جهة الإنكار؛ أي أتمنّ عليّ بأن ربّيتني وليدا وأنت قد استعبدت بني إسرائيل وقتلتهم؟! أي ليست بنعمة؛ لأن الواجب كان ألا تقتلهم ولا تستعبدهم فإنهم قومي؛ فكيف تذكر إحسانك إليّ على

الخصوص ؟! قال معناه قتادة وغيره . وقيل : فيه تقدير استفهام ؛ أي أَوْتَلَكْ نعمة ؟ قاله الأخفش والفراء أيضاً وأنكره النحاس وغيره . قال النحاس : وهذا لا يجوز لأن ألف الاستفهام تحدث معنى ، وحذفها محال إلا أن يكون في الكلام أم ؛ كما قال الشاعر :

تَرْوُحُ مِنَ الْحَيِّ أَمْ تَبْتَكِرُ

ولا أعلم بين النحويين اختلافاً في هذا إلا شيئاً قاله الفراء . قال : يجوز حذف ألف الاستفهام في أفعال الشك ؛ وحكى ثرى زيداً متطلقاً بمعنى أترى . وكان علي بن سليمان يقول في هذا : إنما أخذه من ألفاظ العامة . قال الثعلبي : قال الفراء ومن قال إنها إنكار قال معناه أَوْتَلَكْ نعمة ؟ على طريق الاستفهام ؛ كقوله : ﴿ هَذَا رَبِّي ﴾ ﴿ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴾ . قال الشاعر <sup>(١)</sup> :

رَفَوْنِي وَقَالُوا يَا خُوَيْلِدُ لَا تُرْغُ      فقلتُ وَأَنْكَرْتُ الْوَجْهَ هُمُ هُمُ

وأنشد الغزنوي شاهداً على ترك الألف قولهم :

لَمْ أَنْسَ يَوْمَ الرِّحِيلِ وَقَفَّتْهَا      وَجَفَّتْهَا مِنْ دَمْعِهَا شَرِقُ  
وَقَوْلُهَا وَالرَّكَابُ وَاقِفَةٌ      تَرَكْتَنِي هَكَذَا وَتَنْطَلِقُ

قلت : ففي هذا حذف ألف الاستفهام مع عدم أم خلاف قول النحاس . وقال الضحاك : إن الكلام خرج مخرج التبكيت والتبكيت يكون بأستفهام وبغير أستفهام ؛ والمعنى : لو لم تقتل بني إسرائيل لرباني أبواي ؛ فأني نعمة لك علي ! فأنت تمنّ علي بما لا يجب أن تمنّ به . وقيل : معناه كيف تمنّ بالثبيرة وقد أهنت قومي ؟ ومن أهين قومه ذلّ . و ﴿ أَنْ عَبَدْتُ ﴾ في موضع رفع على البدل من ﴿ نِعْمَةٌ ﴾ ويجوز أن تكون في موضع نصب بمعنى : لأن عبدت بني إسرائيل ؛ أي آخذتهم عبيداً . يقال : عبدته وأعبدته بمعنى ؛ قاله الفراء وأنشد :

عَلَامَ يُعْبِدُنِي قَوْمِي وَقَدْ كَثُرَتْ      فِيهِمْ أَبَاعِرُ مَا شَاءُوا وَعَبْدَانُ

(١) هو أبو خراش الهذلي ؛ وقد تقدّم شرح البيت في ٢٨٧/١١ طبعة أولى أو ثانية .

- [٢٣] ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ .
- [٢٤] ﴿ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ .
- [٢٥] ﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ .
- [٢٦] ﴿ قَالَ رَبِّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ .
- [٢٧] ﴿ قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ أَلَدَىٰ أَرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونًا ﴾ .
- [٢٨] ﴿ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ ﴾ .
- [٢٩] ﴿ قَالَ لَيْنَ أَخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْمَلَتَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ .
- [٣٠] ﴿ قَالَ أَوَلَمْ تَرَوْا جِثَّتْكَ يَشْقَىٰ مُبِينًا ﴾ .
- [٣١] ﴿ قَالَ فَأَتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ .
- [٣٢] ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثَمْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ .
- [٣٣] ﴿ وَرَزَقَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴾ .
- [٣٤] ﴿ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ .
- [٣٥] ﴿ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ .
- [٣٦] ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الدِّينِ حَشِيرِينَ ﴾ .
- [٣٧] ﴿ يَا أَتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴾ .
- [٣٨] ﴿ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ .
- [٣٩] ﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴾ .
- [٤٠] ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴾ .
- [٤١] ﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَأَعْرَابٌ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ .
- [٤٢] ﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَئِنِ الْمُفْرَقِينَ ﴾ .
- [٤٣] ﴿ قَالَ هُمْ مُوسَىٰ الْقَوْمَ مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴾ .
- [٤٤] ﴿ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعَزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾ .
- [٤٥] ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْكُفُونَ ﴾ .
- [٤٦] ﴿ فَأَلْقَىٰ السَّحَرَةُ سِهَابِينَ ﴾ .
- [٤٧] ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .
- [٤٨] ﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ .

[٤٩] ﴿ قَالَ ءَامَنْتُمْ لَمْ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنْ لَكُمْ إِنَّهُمْ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ  
لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا أَصْلَبُ لَكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ ۞ .

[٥٠] ﴿ قَالُوا لَا ضَيْرَ لَنَا إِلَىٰ رَبِّنَا مَقْلُوبُونَ ﴿٥٠﴾ ۞ .

[٥١] ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ۞ .

قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ لما غلب موسى فرعون بالحجة ولم يجد اللعين من تقريره على التوبة وغير ذلك حجة رجع إلى معارضة موسى في قوله: رسول رب العالمين؛ فاستفهمه أستفهما عن مجهول من الأشياء. قال مكي وغيره: كما يستفهم عن الأجناس فلذلك أستفهم بـ ﴿عما﴾. قال مكي: وقد ورد له أستفهام بـ ﴿من﴾ في موضع آخر ويشبه أنها موطن؛ فأتى موسى بالصفات الدالة على الله من مخلوقاته التي لا يشاركه فيها مخلوق، وقد سأل فرعون عن الجنس ولا جنس لله تعالى؛ لأن الأجناس محدثة، فعلم موسى جهله فأضرب عن سؤاله وأعلمه بعظيم قدرة الله التي تبين للسامع أنه لا مشاركة لفرعون فيها. فقال فرعون: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ على معنى الإغراء والتعجب من سفه المقالة إذ كانت عقيدة القوم أن فرعون ربهم ومعبودهم والفراغة قبله كذلك. فزاد موسى في البيان بقوله: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ فجاء بدليل يفهمونه عنه؛ لأنهم يعلمون أنه قد كان لهم آباء وأنهم قد فنوا وأنه لا بد لهم من مغير، وأنهم قد كانوا بعد أن لم يكونوا، وأنهم لا بد لهم من مكوّن. فقال فرعون حينئذ على جهة الاستخفاف: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ أي ليس يجيبي عما أسأل؛ فأجابه موسى عليه السلام عن هذا بأن قال: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ أي ليس ملكه كملكك؛ لأنك إنما تملك بلداً واحداً لا يجوز أمرك في غيره، ويموت من لا تحب أن يموت، والذي أرسلني يملك المشرق والمغرب ﴿وَمَا يَبِينُهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾. وقيل: علم موسى عليه السلام أن قصده في السؤال معرفة من سأل عنه، فأجاب بما هو الطريق إلى معرفة الرب اليوم. ثم لما أنقطع فرعون لعنه الله في باب الحجة رجع إلى الاستعلاء والتغلب فتوعد موسى بالسجن، ولم يقل ما دليلك على أن هذا الإله أرسلك؛ لأن فيه الاعتراف بأن ثَمَّ إلها غيره. وفي توعدده بالسجن ضعف. وكان فيما يروى

يفزع منه فزعاً شديداً حتى كان اللعين لا يمسك بوله. وروي أن سجنه كان أشد من القتل وكان إذا سجن أحداً لم يخرجه من سجنه حتى يموت، فكان مخوفاً. ثم لما كان عند موسى عليه السلام من أمر الله تعالى ما لا يرهه توعدهُ فرعون ﴿قَالَ﴾ له على جهة اللطف به والطمع في إيمانه: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ فيتضح لك به صدقي، فلما سمع فرعون ذلك طمع في أن يجد أثناءه موضع معارضة ﴿فَقَالَ﴾ له ﴿قَاتِ بِهِ إِنَّ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. ولم يحتج الشرط إلى جواب عند سبويه؛ لأن ما تقدم يكفي منه. ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ﴾ من يده فكان ما أخبر الله من قصته. وقد تقدم بيان ذلك وشرحه في ﴿الأعراف﴾<sup>(١)</sup> إلى آخر القصة. وقال السحرة لما توعدهم فرعون بقطع الأيدي والأرجل ﴿لَا ضَيْرَ﴾ أي لا ضرر علينا فيما يلحقنا من عذاب الدنيا؛ أي إنما عذابك ساعة فنصبر لها وقد لقينا الله مؤمنين. وهذا يدل على شدة استبصارهم وقوة إيمانهم. قال مالك: دعا موسى عليه السلام فرعون أربعين سنة إلى الإسلام، وأن السحرة آمنوا به في يوم واحد. يقال: لا ضَيْرَ ولا ضُورَ ولا ضَرَّ ولا ضَرَرَّ ولا ضارورة بمعنى واحد؛ قاله الهروي. وأنشد أبو عبيدة<sup>(٢)</sup>:

فإنك لا يَضُورُكَ بعدَ حَوْلٍ      أظبي كان أمك أم حمار

وقال الجوهري: ضارَه يَضُوره ويَضيره ضيراً وضُوراً أي ضَرَه. قال الكسائي: سمعت بعضهم يقول لا ينفعني ذلك ولا يَضُورني. والتضُور الصياح والتلوي عند الضرب أو الجوع. والضُورة بالضم الرجل الحقيق الصغير الشأن. ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ يريد تنقلب إلى رب كريم رحيم ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. ﴿أَنْ﴾ في موضع نصب أي لأن كنا. وأجاز الفراء كسرها على أن تكون مجازاة. ومعنى ﴿أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي عند ظهور الآية ممن كان في جانب فرعون. الفراء: أول مؤمني زماننا. وأنكره الزجاج وقال: قد روي أنه آمن معه ستمائة ألف وسبعون ألفاً، وهم الشُرذمة القليلون الذين قال فيهم فرعون: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ روي ذلك عن ابن مسعود وغيره.

(١) راجع ٢٥٦/٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية. (٢) البيت لخداش بن زهير، وأشهد به سبويه في كتابه على جعل أسم كان نكرة وخبرها معرفة ضرورة. والمعنى: لا تبالي بعد قيامك بنفسك وأستغناك عن أبويك من أنتسبت إليه من شريف أو وضع، وضرب المثل بالظبي أو الحمار.

- [٥٢] ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَمْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ﴾ [٥٢].
- [٥٣] ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ خَبِيرِينَ﴾ [٥٣].
- [٥٤] ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ [٥٤].
- [٥٥] ﴿وَلَا يَتَّبِعُهُمْ لَآءُ الْغَايُطُونَ﴾ [٥٥].
- [٥٦] ﴿وَلَا يَأْتِيهِمْ خِلَدُونَ﴾ [٥٦].
- [٥٧] ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [٥٧].
- [٥٨] ﴿وَكُنُوزٍ وَمَقَارٍ كَرِيمٍ﴾ [٥٨].
- [٥٩] ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [٥٩].
- [٦٠] ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ [٦٠].
- [٦١] ﴿فَلَمَّا تَرَىٰ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ [٦١].
- [٦٢] ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [٦٢].
- [٦٣] ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [٦٣].
- [٦٤] ﴿وَأَرْسَلْنَا فِي الْآخِرِينَ﴾ [٦٤].
- [٦٥] ﴿وَأَفْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ [٦٥].
- [٦٦] ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ﴾ [٦٦].
- [٦٧] ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [٦٧].
- [٦٨] ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [٦٨].

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَمْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ﴾ لما كان من سنته تعالى في عباده إنجاء المؤمنين المصدقين من أوليائه، المعترفين برسالة رسله وأنبيائه، وإهلاك الكافرين المكذبين لهم من أعدائه، أمر موسى أن يخرج بني إسرائيل ليلا وسماهم عباده؛ لأنهم آمنوا بموسى. ومعنى ﴿إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ﴾ أي يتبعكم فرعون وقومه ليردوكم. وفي ضمن هذا الكلام تعريفهم أن الله ينجيهم منهم؛ فخرج موسى عليه السلام ببني إسرائيل سَحْرًا، فترك الطريق إلى الشام على يساره وتوجه نحو البحر، فكان الرجل من بني إسرائيل يقول له في ترك الطريق فيقول: هكذا أمرت. فلما أصبح فرعون وعلم بسرّ موسى ببني إسرائيل، خرج في أثرهم، وبعث إلى مدائن مصر لتلحقه العساكر، فروي أنه لحقه ومعه مائة ألف أدهم من الخيل سوى سائر الألوان. وروي أن بني إسرائيل كانوا استمائة ألف وسبعين ألفا. والله أعلم بصحته. وإنما اللازم من الآية الذي يقطع به أن موسى عليه السلام خرج بجمع عظيم من

بني إسرائيل وأن فرعون تبعه بأضعاف ذلك. قال ابن عباس: كان مع فرعون ألف جبار كلهم عليه تاج وكلهم أمير خيل. والشُرذمة الجمع القليل المحتقر والجمع الشُرادم. قال الجوهري: الشُرذمة الطائفة من الناس والقطعة من الشيء. وثوب شرادم أي قطع. وأنشد الثعلبي قول الراجز:

جاء الشتاء وئسابي أخلاق      شرّاذمٌ يضحكُ منها التّوّاق

التّوّاق من الرجال الذي يروض الأمور ويصلحها<sup>(١)</sup>؛ قاله في الصحاح. واللام في قوله: ﴿لَشِرْذِمَةً﴾ لام تأكيد وكثيراً ما تدخل في خبر إن، إلا أن الكوفيين لا يجيزون إن زيدا لسوف يقوم. والدليل على أنه جائز قوله تعالى: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وهذه لام التوكيد بعينها وقد دخلت على سوف؛ قاله النحاس. ﴿وَأَنَّهُمْ لَنَا لَعَّافٌ طُونَ﴾ أي أعداء لنا لمخالفتهم ديننا وذهابهم بأموالنا التي أستعاروها على ما تقدم. وماتت أبكارهم تلك الليلة. وقد مضى هذا في «الأعراف» و«طه» مستوفى. يقال: غاظني كذا وأغاظني. والغيط الغضب ومنه التغيط والاعتياط. أي غاظونا بخروجهم من غير إذن. ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَازِرُونَ﴾ أي مجتمع أخذنا حذرنا وأسلحتنا. وقرئ «حَازِرُونَ» ومعناه معنى «حَازِرُونَ» أي فرقون خائفون. قال الجوهري: وقرئ «وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَازِرُونَ» و«حَازِرُونَ» و«حَازِرُونَ» بضم الـ ذال حكاه الأخفش؛ ومعنى «حَازِرُونَ» متأهبون، ومعنى «حَازِرُونَ» خائفون. قال النحاس: «حَازِرُونَ» قراءة المدنيين وأبي عمرو، وقراءة أهل الكوفة «حَازِرُونَ» وهي معروفة عن عبد الله بن مسعود وابن عباس؛ و«حَازِرُونَ» بالدال غير المعجمة قراءة أبي عباد وحكاها المهدوي عن ابن أبي عمار، والماوردي والثعلبي عن سُمَيْط بن عجلان. قال النحاس: أبو عبيدة يذهب إلى أن معنى «حَازِرُونَ» و«حَازِرُونَ» واحد. وهو قول سيبويه وأجاز: هو حَازِرٌ زِيداً؛ كما يقال: حاذر زيدا، وأنشد:

حَازِرٌ أُمُوراً لَا تَضِيرُ وَآمِنٌ      مَا لَيْسَ مُنْجِيَهُ مِنَ الْأَقْدَارِ

(١) ويقال هو أسم أبته: ويروى (التواق) بالتاء.

وزعم أبو عمر الجَرَمِيّ أنه يجوز هو حذرٌ زيداً على حذفٍ من. فأما أكثر النحويين فيفرقون بين حذرٍ وحاذرٍ؛ منهم الكسائي والفراء ومحمد بن يزيد؛ فيذهبون إلى أن معنى حذرٍ في خلقته الحذر، أي متيقظ متنبه، فإذا كان هكذا لم يتعدّ، ومعنى حاذرٍ مستعدّ وبهذا جاء التفسير عن المتقدمين. قال عبد الله بن مسعود في قول الله عز وجل: ﴿وَلِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ قال: مُؤدّون في السلاح والكُراع مُقوون، فهذا ذاك بعينه. وقوله مُؤدّون معهم أداة. وقد قيل: إن المعنى: معنا سلاح وليس معهم سلاح يحرضهم على القتال؛ فأما ﴿حَادِرُونَ﴾ بالبدال المهملة فمشتق من قولهم عين حَذرة أي ممتلئة؛ أي نحن ممتلئون غيظاً عليهم؛ ومنه قول الشاعر<sup>(١)</sup>:

وَعَيْنٌ لَهَا حَذَرَةٌ بِذَرَةٍ شَقَّتْ مَاقِيَهُمَا مِنْ أُخْرٍ

وحكى أهل اللغة أنه يقال: رجل حاذِرٌ إذا كان ممتليء اللحم؛ فيجوز أن يكون المعنى الامتلاء من السلاح. المهدي: الحادر القوي الشديد.

قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ يعني من أرض مصر. وعن عبد الله بن عمرو قال: كانت الجنات بحافتي النيل في الشقتين جميعاً من أسوان إلى رشيد، وبين الجنات زروع. والنيل سبعة خلجان: خليج الإسكندرية، وخليج سَحَا، وخليج دمياط، وخليج سَرْدُوس، وخليج مَنُف، وخليج الفيوم، وخليج المَنهى<sup>(٢)</sup> متصلة لا ينقطع منها شيء عن شيء، والزروع ما بين الخلجان كلها. وكانت أرض مصر كلها تروى من ستة عشر ذراعاً بما دبّروا وقَدّروا من قناطرها وجسورها وخلجانها؛ ولذلك سمي النيل إذا غلق ستة عشر ذراعاً نيل السلطان؛ ويُخلَع على ابن أبي الرّداد<sup>(٣)</sup>؛ وهذه الحال مستمرة إلى الآن. وإنما قيل نيل السلطان لأنه حيثُ يجب الخراج على الناس. وكانت أرض مصر جميعها تروى

(١) هو امرؤ القيس. (٢) وهو بحر يوسف عليه السلام.

(٣) هو عبد الله بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي الرّداد المؤذن؛ قدم مصر من البصرة وحلّث بها، وجعل على قياس النيل في ولاية يزيد بن عبد الله التركي - وكانت النصارى تتولى قياسه - وأجرى عليه سبعة دنانير في كل شهر، وأستقر قياسه في بنيه زماناً طويلاً. وتوفي أبو الرّداد سنة ٢٦٦هـ. عن خطط المقرئ ٥٨/١.

من إصبع واحدة من سبعة عشر ذراعاً، وكانت إذا غلق النيل سبعة عشر ذراعاً ونودي عليه إصبع واحد من ثمانية عشر ذراعاً، أزداد في خراجها ألف ألف دينار. فإذا خرج عن ذلك ونودي عليه إصبعاً واحداً من تسعة عشر ذراعاً نقص خراجها ألف ألف دينار. وسبب هذا ما كان ينصرف في المصالح والخلجان والجسور والاهتمام بعمارته. فأما الآن فإن أكثرها لا يروى حتى ينادي إصبع من تسعة عشر ذراعاً بمقياس مصر. وأما أعمال الصعيد الأعلى، فإن بها ما لا يتكامل ربه إلا بعد دخول الماء في الذراع الثاني والعشرين بالصعيد الأعلى.

قلت: أما أرض مصر فلا تروى جميعها الآن إلا من عشرين ذراعاً وأصابع؛ لعلو الأرض وعدم الاهتمام بعمارة جسورها. وهو من عجائب الدنيا؛ وذلك أنه يزيد إذا أنصبت المياه في جميع الأرض حتى يسبح على جميع أرض مصر، وتبقى البلاد كالأعلام لا يوصل إليها إلا بالمراكب والقياسات. وروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: نيل مصر سيد الأنهار، سخر الله له كل نهر بين المشرق والمغرب، وذلل الله له الأنهار؛ فإذا أراد الله أن يجري نيل مصر أمر كل نهر أن يمدّه، فأمدته الأنهار بمائها، وفجّر الله له عيوناً، فإذا أنهى إلى ما أراد الله عز وجل، أوحى الله تبارك وتعالى إلى كل ماء أن يرجع إلى عنصره. وقال قيس بن الحجاج: لما افتتحت مصر أتى أهلها إلى عمرو بن العاص حين دخل بثونة من أشهر القبط فقالوا له: أيها الأمير إن لنيلنا هذا سنة لا يجري إلا بها، فقال لهم: وما ذاك؟ فقالوا: إذا كان لاثنتي عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا إلى جارية يكر بين أبويها؛ أرضينا أبويها، وحملنا عليها من الحلّي والثياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناها في هذا النيل؛ فقال لهم عمرو: هذا لا يكون في الإسلام؛ وإن الإسلام يهدم ما قبله. فأقاموا أيب ومسرى لا يجري قليل ولا كثير، وهموا بالجلاء. فلما رأى ذلك عمرو بن العاص كتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، فأعلمه بالقصة، فكتب إليه عمر بن الخطاب: إنك قد أصبت بالذي فعلت، وإن الإسلام يهدم ما قبله ولا يكون هذا. وبعث إليه ببطاقة في داخل كتابه. وكتب إلى عمرو: إني قد بعثت إليك ببطاقة داخل كتابي، فآلقها في النيل

إذا أتاك كتابي. فلما قدم كتاب عمر إلى عمرو بن العاص أخذ البطاقة ففتحها فإذا فيها: من عبد الله أمير المؤمنين عمر إلى نيل مصر - أما بعد - فإن كنت إنما تجري من قبلك فلا تجر وإن كان الله الواحد القهار هو الذي يُجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يُجريك. قال: فألقى البطاقة في النيل قبل الصليب بيوم وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج منها؛ لأنه لا تقوم مصلحتهم فيها إلا بالنيل. فلما ألقى البطاقة في النيل، أصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله في ليلة واحدة ستة عشر ذراعاً، وقطع الله تلك السيرة عن أهل مصر من تلك السنة. قال كعب الأحبار: أربعة أنهار من الجنة وضعها الله في الدنيا سَيِّحَانٌ وَجَيِّحَانٌ والنيل والفرات، فسيحان نهر الماء في الجنة، وجيحان نهر اللبن في الجنة، والنيل نهر العسل في الجنة، والفرات نهر الخمر في الجنة. وقال ابن لهيعة: الدجلة نهر اللبن في الجنة.

قلت: الذي في «الصحيح» من هذا حديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «سَيِّحَانٌ وَجَيِّحَانٌ وَالنَّيْلُ وَالْفَرَاتُ كُلٌّ مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ» لفظ مسلم: وفي حديث الإسراء من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صَعَصَعَةَ رَجُلٍ مِنْ قَوْمِهِ قَالَ: «وَحَدَّثَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ رَأَى أَرْبَعَةَ أَنْهَارٍ يَخْرُجُ مِنْ أَصْلَها نَهْرَانِ ظَاهِرَانِ وَنَهْرَانِ بَاطِنَانِ فَقُلْتُ يَا جَبْرِيلُ مَا هَذِهِ الْأَنْهَارُ قَالَ أَمَّا النَّهْرَانِ الْبَاطِنَانِ فَنَهْرَانِ فِي الْجَنَّةِ وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ فَالنَّيْلُ وَالْفَرَاتُ» لفظ مسلم. وقال البخاري من طريق شريك عن أنس: «فَإِذَا هُوَ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِنَهْرَيْنِ يَطْرُدَانِ»<sup>(١)</sup> فقال ما هذان النهران يا جبريل قال هذا النيل والفرات عنصرهما ثم مضى في السماء فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من اللؤلؤ والزبرجد فضرب بيده فإذا هو مسك أذفر فقال ما هذا يا جبريل فقال هذا هو الكوثر الذي خبأ لك ربك». وذكر الحديث. والجمهور على أن المراد بالعيون عيون الماء. وقال سعيد بن جبیر: المراد عيون الذهب. وفي الدخان: «كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ». قيل: إنهم كانوا يزرعون ما بين الجبلين من أول مصر إلى آخرها. وليس في الدخان «وكنوز». «وكنوز» جمع كنز؛ وقد مضى هذا

(١) يطردان: أي يجريان، وهما يفتعلان من الطرد.

في سورة ﴿براءة﴾<sup>(١)</sup>. والمراد بها هاهنا الخزائن. وقيل: الدفائن. وقال الضحاك: الأنهار؛ وفيه نظر؛ لأن العيون تشملها. ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ قال ابن عمر وابن عباس ومجاهد: المقام الكريم المنابر؛ وكانت ألف منبر لألف جبار يُعَظِّمون عليها فرعون ومُلُكُه. وقيل: مجالس الرؤساء والأمراء؛ حكاه ابن عيسى وهو قريب من الأول. وقال سعيد بن جبير: المساكن الحسان. وقال ابن لهيعة: سمعت أن المقام الكريم الفيوم. وقيل: كان يوسف عليه السلام قد كتب على مجلس من مجالسه (لا إله إلا الله إبراهيم خليل الله) فسمّاها الله كريمة بهذا. وقيل: مرابط الخيل لتفرد الزعماء بارتباطها عُدّة وزينة؛ فصار مقامها أكرم منزل بهذا؛ ذكره الماوردي. والأظهر أنها المساكن الحسان كانت تكرم عليهم. والمقام في اللغة يكون الموضع ويكون مصدراً. قال النحاس: المقام في اللغة الموضع؛ من قولك قام يقوم، وكذا المقامات واحداً مقامة؛ كما قال<sup>(٢)</sup>:

وفيهـم مَقَامَاتٌ حِسانٌ وجوهُهم وأنديةٌ يَنْتابُها القولُ والفعلُ

والمقام أيضاً المصدر من قام يقوم. والمقام (بالضم) الموضع من أقام. والمصدر أيضاً من أقام يقيم.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يريد أن جميع ما ذكره الله تعالى من الجنات والعيون والكنوز والمقام الكريم أورثه الله بني إسرائيل. قال الحسن وغيره: رجع بنو إسرائيل إلى مصر بعد هلاك فرعون وقومه. وقيل: أراد بالوراثه هنا ما استعاروه من حلّي آل فرعون بأمر الله تعالى.

قلت: وكلا الأمرين حصل لهم. والحمد لله. ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ أي فتبع فرعون وقومه بني إسرائيل. قال السدي: حين أشرقت الشمس بالشعاع. وقال قتادة: حين أشرقت الأرض بالضياء. قال الزجاج: يقال شَرَقَتِ الشمسُ إذا طلعت، وأشرقت إذا أضاءت. وأختلف في تأخر فرعون وقومه عن موسى وبني إسرائيل على قولين: أحدهما -

(١) راجع ١٢٣/٨ طبعة أولى أو ثانية.

(٢) هو زهير بن أبي سلمى؛ ويتتابها: أي يقال فيها الجميل ويفعل به.

لاشتغالهم بدفن أبكارهم في تلك الليلة؛ لأن الرباء في تلك الليلة وقع فيهم؛ فقولوه: ﴿مُشْرِقِينَ﴾ حال لقوم فرعون.

الثاني - إن سحابة أظلمتهم وظلمة فقالوا: نحن بعد في الليل فما تقشعت عنهم حتى أصبحوا. وقال أبو عبيدة: معنى ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ ناحية المشرق. وقرأ الحسن وعمر بن ميمون ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ بالتشديد وألف الوصل؛ أي نحو المشرق؛ مأخوذ من قولهم: شرق وغرب إذا سار نحو المشرق والمغرب. ومعنى الكلام قدرنا أن يرثها بنو إسرائيل فأتبع قوم فرعون بني إسرائيل مشرقين فهلكوا، وورث بنو إسرائيل بلادهم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانِ﴾ أي تقابلا<sup>(١)</sup> الجمعان بحيث يرى كل فريق صاحبه، وهو تفاعل من الرؤية. ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ أي قرب منا العدو ولا طاقة لنا به. وقراءة الجماعة ﴿لَمُدْرِكُونَ﴾ بالتخفيف من أدرك. ومنه ﴿حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْغَرَقُ﴾. وقرأ عبيد بن عمير والأعرج والزهري ﴿لَمُدْرِكُونَ﴾ بتشديد الدال<sup>(٢)</sup> من أدرك. قال الفراء: حفر وأحتفر بمعنى واحد، وكذلك ﴿لَمُدْرِكُونَ﴾ و﴿لَمُدْرِكُونَ﴾ بمعنى واحد. النحاس: وليس كذلك يقول النحويون الحداق؛ إنما يقولون: مُدْرِكُونَ ملحقون، ومدْرِكُونَ مجتهد في لحاقهم، كما يقال: كسبت بمعنى أصبت وظفرت، واكتسبت بمعنى اجتهدت وطلبت وهذا معنى قول سيبويه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ لما لحق فرعون بجمعه جمع موسى وقرب منهم، ورأت بنو إسرائيل العدو القوي والبحر أمامهم ساءت ظنونهم، وقالوا لموسى على جهة التوبيخ والجفاء: ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ فرد عليهم قولهم وزجرهم وذكرهم وعد الله سبحانه له بالهداية والظفر ﴿كَلَّا﴾ أي لم يدركوك ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ أي بالنصر على العدو. ﴿سَيَهْدِينِ﴾ أي سيدلني على طريق النجاة؛ فلما عظم البلاء على بني إسرائيل، ورأوا من الجيوش ما لا طاقة لهم بها، أمر الله تعالى موسى أن يضرب البحر بعصاه؛ وذلك أنه

(١) كذا في نسخ الأصل. (٢) وكسر الراء - كما في «البحر وروح المعاني والكشاف» - على وزن مفتعلون وهو لازم بمعنى الفناء والاضمحلال، من أدرك الشيء إذا تابعه ففني.

عز وجل أراد أن تكون الآية متصلة بموسى ومتعلقة بفعل يفعله؛ وإلا فضرب العصا ليس بفارق للبحر، ولا معين على ذلك بذاته إلا بما اقترن به من قدرة الله تعالى واختراعه. وقد مضى في ﴿البقرة﴾<sup>(١)</sup> قصة هذا البحر. ولما أنفلق صار فيه اثنا عشر طريقاً على عدد أسباط بني إسرائيل، ووقف الماء بينها كالطود العظيم؛ أي الجبل العظيم. والطود الجبل؛ ومنه قول امرئ القيس:

فبينما المرء في الأحياء طَوْدٌ      رَمَاهُ النَّاسُ عَنْ كَثَبٍ فَمَالَا  
وقال الأسود بن يَغْفَر:

حَلُّوا بِأَنْقَرَةٍ يَسِيلُ عَلَيْهِمْ      ماءُ الْفُرَاتِ يَجِيءُ مِنْ أَطْوَادٍ

جمع طود أي جبل. فصار لموسى وأصحابه طريقاً في البحر يَسَا؛ فلما خرج أصحاب موسى وتكامل آخر أصحاب فرعون على ما تقدّم في ﴿يونس﴾<sup>(٢)</sup> انصب عليهم وغرق فرعون؛ فقال بعض أصحاب موسى: ما غرق فرعون؛ فنبذ على ساحل البحر حتى نظروا إليه. وروى ابن القاسم عن مالك قال: خرج مع موسى عليه السلام رجلان من التجار إلى البحر فلما أتوا إليه قالوا له بسم أمرك الله؟ قال: أمرت أن أضرب البحر بعصاي هذه فينفلق؛ فقالوا له: افعل ما أمرك الله فلن يخلفك؛ ثم ألقيا أنفسهما في البحر تصديقاً له؛ فما زال كذلك البحر حتى دخل فرعون ومن معه، ثم ارتد كما كان. وقد مضى هذا المعنى في سورة ﴿البقرة﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَزَلَقْنَا ثُمَّ الْآخَرِينَ﴾ أي قربناهم إلى البحر؛ يعني فرعون وقومه. قاله ابن عباس وغيره؛ قال الشاعر:

وكلُّ يومٍ مَضَى أو لَيْلَةٍ سَلَفَتْ      فيها النفوسُ إلى الآجالِ تَزْدَلِفُ

أبو عبيدة: ﴿أَزَلَقْنَا﴾ جمعنا ومنه قيل لليلة المزدلفة ليلة جَمْع. وقرأ أبو عبد الله بن الحرث وأبي بن كعب وابن عباس ﴿وَأَزَلَقْنَا﴾ بالقاف على معنى أهلكناهم؛ من قوله: أزَلَقْتُ الناقةُ وأزَلَقْتُ الفرسُ فهي مُزْلَقٌ إذا أزَلَقْتُ ولدها. ﴿وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ. ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ يعني فرعون وقومه. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أي علامة على قدرة الله تعالى.

(١) راجع ٣٨٩/١ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة. (٢) راجع ٣٧٨/٨ طبعة أولى أو ثانية.

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ لأنه لن يؤمن من قوم فرعون إلا مؤمن آل فرعون وأسمه حزقييل، وأبنته آسية امرأة فرعون، ومريم بنت ذا موسى العجوز التي دلت على قبر يوسف الصديق عليه السلام. وذلك أن موسى عليه السلام لما خرج ببني إسرائيل من مصر أظلم عليهم القمر فقال لقومه: ما هذا؟ فقال علماءهم: إن يوسف عليه السلام لما حضره الموت أخذ علينا موثقاً من الله ألا نخرج من مصر حتى ننقل عظامه معنا. قال موسى: فأيكم يدري قبره؟ قال: ما يعلمه إلا عجوز لبني إسرائيل؛ فأرسل إليها؛ فقال: دليني على قبر يوسف، قالت: لا والله لا أفعل حتى تعطيني حكمي، قال: وما حكمك؟ قالت: حكمي أن أكون معك في الجنة؛ فثقل عليه، فقيل له: أعطها حكمها؛ فدلتهم عليه، فاحتفروه واستخرجوا عظامه، فلما أفلوها، فإذا الطريق مثل ضوء النهار. في رواية: فأوحى الله إليه أن أعطها ففعل، فأتت بهم إلى بحيرة، فقالت لهم: أنضبوا هذا الماء فأنضبوه واستخرجوا عظام يوسف عليه السلام؛ فتيينت لهم الطريق مثل ضوء النهار. وقد مضى في ﴿يوسف﴾<sup>(١)</sup>. وروى أبو بردة عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ نزل بأعرابي فأكرمه، فقال رسول الله ﷺ: «حاجتك» قال: ناقة أرحلها وأعزأأ أحلبها؛ فقال رسول الله ﷺ: «فلم عجزت أن تكون مثل عجوز بني إسرائيل» فقال أصحابه: وما عجوز بني إسرائيل؟ فذكر لهم حال هذه العجوز التي احتكمت على موسى أن تكون معه في الجنة.

- [٦٩] ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾<sup>(٦٩)</sup>.  
 [٧٠] ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾<sup>(٧٠)</sup>.  
 [٧١] ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنظُلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾<sup>(٧١)</sup>.  
 [٧٢] ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ﴾<sup>(٧٢)</sup>.  
 [٧٣] ﴿أَوْ يَنْفَعُونَكَ أَوْ يَضُرُّونَ﴾<sup>(٧٣)</sup>.  
 [٧٤] ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾<sup>(٧٤)</sup>.  
 [٧٥] ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾<sup>(٧٥)</sup>.  
 [٧٦] ﴿أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ﴾<sup>(٧٦)</sup>.  
 [٧٧] ﴿فَأَنَّهُمْ عُدُوِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾<sup>(٧٧)</sup>.

قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ نبه المشركين على فرط جهلهم إذ رغبوا عن اعتقاد إبراهيم ودينه وهو أبوهم. والنبا الخبر؛ أي أقصص عليهم يا محمد خبره وحديثه وعيبيه على قومه ما يعبدون. وإنما قال ذلك ملزماً لهم الحجة. والجمهور من القراء على تخفيف الهمزة الثانية وهو أحسن الوجوه؛ لأنهم قد أجمعوا على تخفيف الثانية من كلمة واحدة نحو آدم. وإن شئت حَقَّقْتُهُمَا فقلت: ﴿نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾. وإن شئت خَفَّفْتُهُمَا فقلت: ﴿نبا ابراهيم﴾. وإن شئت خَفَّفْتَ الْأُولَى. وَثُمَّ وَجَهَ خَامِسٌ إِلَّا أَنَّهُ بَعِيدٌ فِي الْعَرَبِيَّةِ وَهُوَ أَنَّ يَدْغَمُ الْهَمْزَةُ فِي الْهَمْزَةِ كَمَا يُقَالُ رَأْسٌ لِلَّذِي يَبِيعُ الرُّؤُوسَ. وَإِنَّمَا بَعْدَ لَأَنَّكَ تَجْمَعُ بَيْنَ هَمْزَتَيْنِ كَأَنَّهُمَا فِي كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، وَحَسُنَ فِي فَعَّالٍ لِأَنَّهُ لَا يَأْتِي إِلَّا مَدْغَمًا. ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أَي أَيَّ شَيْءٍ تَعْبُدُونَ ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا﴾ وَكَانَتْ أَصْنَامُهُمْ مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ وَنَحَاسٍ وَحَدِيدٍ وَخَشَبٍ. ﴿فَنَظَّلُوهَا عَاكِفِينَ﴾ أَي فَتَقِيمُ عَلَى عِبَادَتِهَا. وَلَيْسَ الْمُرَادُ وَقْتًا مَعِينًا بَلْ هُوَ إِخْبَارٌ عَمَّا هُمْ فِيهِ. وَقِيلَ: كَانُوا يَعْبُدُونَهَا بِالنَّهَارِ دُونَ اللَّيْلِ، وَكَانُوا فِي اللَّيْلِ يَعْبُدُونَ الْكَوَاكِبَ. فَيُقَالُ: ظَلَّ يَفْعَلُ كَذَا إِذَا فَعَلَهُ نَهَارًا وَبَاتَ يَفْعَلُ كَذَا إِذَا فَعَلَهُ لَيْلًا. ﴿قَالَ هَلْ يُسْمِعُونَكُم﴾ قَالَ الْأَخْفَشُ: فِيهِ حَذْفٌ؛ وَالْمَعْنَى: هَلْ يَسْمَعُونَ مِنْكُمْ؟ أَوْ هَلْ يَسْمَعُونَ دَعَاءَكُمْ؟ قَالَ الشَّاعِرُ<sup>(١)</sup>:

القائد الخيل منكوباً دوابِرها قد أحكمت حَكَمَاتِ القِدِّ والأَبَقَا

قال: وَالْأَبَقَى الْكَثَّانَ فَحَذَفَ. وَالْمَعْنَى: وَأَحْكَمْتَ حَكَمَاتِ الْأَبَقَى. وَفِي «الصَّحَاحِ»: وَالْأَبَقَى بِالْتَحْرِيكِ الْقَنْبُ. وَرَوَى عَنْ قَتَادَةَ أَنَّهُ قَرَأَ: ﴿هَلْ يُسْمِعُونَكُم﴾ بِضَمِّ الْيَاءِ؛ أَي هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ أَصْوَاتَهُمْ ﴿إِذْ تَدْعُونَ. أَوْ يَنْفَعُونَكُم أَوْ يَضُرُّونَ﴾ أَي هَلْ تَنْفَعُكُمْ هَذِهِ الْأَصْنَامُ وَتَرْزُقُكُمْ، أَوْ تَمْلِكُ لَكُمْ خَيْرًا أَوْ ضَرًّا إِنْ عَصَيْتُمْ؟! وَهَذَا اسْتِفْهَامٌ لِتَقْرِيرِ الْحُجَّةِ؛ فَإِذَا لَمْ يَنْفَعَوْكُمْ وَلَمْ يَضُرُّوا فَمَا مَعْنَى عِبَادَتِكُمْ لَهَا. ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ فَتَزَعَوْا إِلَى التَّقْلِيدِ

(١) هو زهير بن أبي سلمى. والبيت من قصيدة يمدح بها هرم بن سنان. وأحكمت: جعلت لها حَكَمَاتٍ مِنَ الْقِدِّ. وَالْحَكَمَاتُ جَمْعُ حِكْمَةٍ وَهِيَ مَا تَكُونُ عَلَى أَنْفِ الدَّابَّةِ. وَدَوَابِهَا: مَوْخَرُ حَوَافِرِهَا. وَمَنْكُوبٌ: أَيِ أَصَابَتْ الْحَجَارَةُ دَوَابِهَا وَأَدْمَتَهَا.

من غير حجة ولا دليل. وقد مضى القول فيه. ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ من هذه الأصنام ﴿أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ﴾ الأولون ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي﴾ واحد يؤدّي عن جماعة، وكذلك يقال للمرأة هي عدوّ الله وعدوّ الله؛ حكاهما الفراء. قال علي بن سليمان: من قال عدوّ الله وأثبت الهاء قال هي بمعنى معادية، ومن قال عدوّ للمؤنث والجمع جعله بمعنى النسب. ووصف الجماد بالعداوة بمعنى أنهم عدوّ لي إن عبدتهم يوم القيامة؛ كما قال: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾. وقال الفراء: هو من المقلوب؛ مجازة: فإني عدوّ لهم لأن من عاديته عاداك. ثم قال: ﴿إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ قال الكلبي: أي إلا من عبد رب العالمين؛ إلا عابد رب العالمين؛ فحذف المضاف. قال أبو إسحاق الزجاج: قال النحويون هو استثناء ليس من الأول؛ وأجاز أبو إسحاق أن يكون من الأول على أنهم كانوا يعبدون الله عز وجل ويعبدون معه الأصنام، فأعلمهم أنه تبرأ مما يعبدون إلا الله. وتأوله الفراء على الأصنام وحدها والمعنى عنده: فإنهم لو عبدتهم عدوّ لي يوم القيامة؛ على ما ذكرنا. وقال الجرجاني: تقديره: أفرايتم ما كنتم تعبدون أنتم وأباؤكم الأقدمون إلا رب العالمين فإنهم عدوّ لي. وإلا بمعنى دون وسوى؛ كقوله: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ أي دون الموتة الأولى.

[٧٨] ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾.

[٧٩] ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾.

[٨٠] ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾.

[٨١] ﴿وَالَّذِي يُسَيِّئُ لِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾.

[٨٢] ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ أي يرشدني إلى الدين. ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ أي يرزقني. ودخول ﴿هو﴾ تنبيه على أن غيره لا يطعم ولا يسقي؛ كما تقول: زيد هو الذي فعل كذا؛ أي لم يفعله غيره. ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ قال: ﴿مرضت﴾ رعاية للأدب وإلا فالمرض والشفاء من الله عز وجل جميعاً. ونظيره قول

فتى موسى: ﴿وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾. ﴿وَالَّذِي يُبَيِّتُنِي ثُمَّ يُخِينُ﴾ يريد البعث وكانوا ينسبون الموت إلى الأسباب؛ فبين أن الله هو الذي يميت ويحيى. وكله بغير ياء: ﴿يَهْدِينُ﴾ ﴿يُشْفِينُ﴾ لأن الحذف في رؤوس الآي حسن لتتفق كلها. وقرأ ابن أبي إسحاق على جلالته ومحله من العربية هذه كلها بالياء؛ لأن الياء أسمى وإنما دخلت النون لعله. فإن قيل: فهذه صفة تجمع الخلق فكيف جعلها إبراهيم ذليلاً على هدايته ولم يهتد بها غيره؟ قيل: إنما ذكرها احتجاجاً على وجوب الطاعة؛ لأن من أنعم وجب أن يطاع ولا يعصى ليلتزم غيره من الطاعة ما قد التزمها؛ وهذا إلزام صحيح.

قلت: وتجوز بعض أهل الإشارات في غوامض المعاني فعدل عن ظاهر ما ذكرناه إلى ما تدفعه بدائه العقول من أنه ليس المراد من إبراهيم. فقال: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي﴾ أي يطعمني لذة الإيمان ويسقين حلاوة القبول. ولهم في قوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي﴾ وجهان: أحدهما - إذا مرضت بمخالفته شفاني برحمته. الثاني - إذا مرضت بمقاساة الخلق، شفاني بمشاهدة الحق. وقال جعفر بن محمد الصادق: إذا مرضت بالذنوب شفاني بالتوبة. وتأولوا قوله: ﴿وَالَّذِي يُبَيِّتُنِي ثُمَّ يُخِينُ﴾ على ثلاثة أوجه: فالذي يميّتي بالمعاصي يحييني بالطاعات. الثاني: يميّتي بالخوف يحييني بالرجاء. الثالث: يميّتي بالطمع ويحييني بالقناعة. وقول رابع: يميّتي بالعدل ويحييني بالفضل. وقول خامس: يميّتي بالفراق ويحييني بالتلاق. وقول سادس: يميّتي بالجهل ويحييني بالعقل؛ إلى غير ذلك مما ليس يشيء منه مراد من الآية؛ فإن هذه التأويلات الغامضة، والأمور الباطنة، إنما تكون لمن حذق وعرف الحق، وأما من كان في عمى عن الحق ولا يعرف الحق فكيف ترمز له الأمور الباطنة، وتترك الأمور الظاهرة؟ هذا محال. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ ﴿أَطْمَعُ﴾ أي أرجو. وقيل: هو بمعنى اليقين في حقه، وبمعنى الرجاء في حق المؤمنين سواء. وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق ﴿خَطَايَايَ﴾ وقال: ليست خطيئة واحدة. قال النحاس: خطيئة بمعنى

خطايا معروف في كلام العرب، وقد أجمعوا على التوحيد في قوله عز وجل ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ﴾ ومعناه بذنوبهم. وكذا ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ معناه الصلوات، وكذا ﴿خَطِيئَتِي﴾ إن كانت خطايا. والله أعلم. قال مجاهد: يعني بخطيئته قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقوله: إن سارة أخته. زاد الحسن وقوله للكوكب: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ وقد مضى بيان هذا مستوفى. وقال الزجاج: الأنبياء بشر فيجوز أن تقع منهم الخطيئة؛ نعم لا تجوز عليهم الكبائر لأنهم معصومون عنها. ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ يوم الجزاء حيث يجازى العباد بأعمالهم. وهذا من إبراهيم إظهار للعبودية وإن كان يعلم أنه مغفور له. وفي «صحيح مسلم» عن عائشة؛ قلت يا رسول الله: ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المسكين، فهل ذلك نافعه؟ قال: «لا ينفعه إنه لم يقل يوما ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾».

[٨٣] ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾.

[٨٤] ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾.

[٨٥] ﴿وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾.

[٨٦] ﴿وَأَغْفِرْ لَأَيِّ إِنَّمْ كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

[٨٧] ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾.

[٨٨] ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾.

[٨٩] ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ ﴿حُكْمًا﴾ معرفة بك ويحدودك وأحكامك؛ قاله ابن عباس. وقال مقاتل: فهما وعلماء؛ وهو راجع إلى الأول. وقال الكلبي: نبوة ورسالة إلى الخلق. ﴿وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ أي بالنبيين من قبلي في الدرجة. وقال ابن عباس: بأهل الجنة؛ وهو تأكيد قوله: ﴿هَبْ لِي حُكْمًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ قال ابن عباس: هو اجتماع الأمم عليه. وقال مجاهد: هو الشاء الحسن. قال ابن عطية: هو الشاء وخلد المكانة بإجماع المفسرين؛ وكذلك أجاب الله دعوته، وكل أمة تتمسك به وتعظمه، وهو على الحنيفة التي جاء بها محمد ﷺ. وقال مكي: وقيل معناه سؤاله أن يكون من ذريته في آخر الزمان

من يقوم بالحق؛ فأجيب الدعوة في محمد ﷺ. قال ابن عطية: وهذا معنى حسن إلا أن لفظ الآية لا يعطيه إلا بتحكم على اللفظ. وقال القشيري: أراد الدعاء الحسن إلى قيام الساعة؛ فإن زيادة الثواب مطلوبة في حق كل أحد.

قلت: وقد فعل الله ذلك إذ ليس أحد يصلي على النبي ﷺ إلا وهو يصلي على إبراهيم وخاصة في الصلوات، وعلى المنابر التي هي أفضل الحالات وأفضل الدرجات. والصلاة دعاء بالرحمة. والمراد باللسان القول، وأصله جارحة الكلام. قال القتيبي: وموضع اللسان موضع القول على الاستعارة، وقد تكني العرب بها عن الكلمة. قال الأعشى:

إِنِّي أَتَنَنِي لِسَانًا لَا أُسَرِّبُهَا      مِنْ عَلُوِّ لَا عَجَبٌ مِنْهَا وَلَا سَخَرُ

قال الجوهري: يروى مِنْ عَلُوِّ بضم الواو وفتحها وكسرهما. أي أتاني خبر من أعلى، والتأنيث للكلمة. وكان قد أتاه خبر مقتل أخيه المنتشر. روى أشهب عن مالك قال قال الله عز وجل: ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ لا بأس أن يحب الرجل أن يشنى عليه صالحاً ويرى في عمل الصالحين، إذا قصد به وجه الله تعالى؛ وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ أي حباً في قلوب عباده وثناء حسناً، فنبه تعالى بقوله: ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ على أستحباب اكتساب ما يورث الذكر الجميل. الليث بن سليمان: إذ هي الحياة الثانية. قيل:

قد مات قوم وهم في الناس أحياء

قال ابن العربي: قال المحققون من شيوخ الزهد في هذا دليل على الترغيب في العمل الصالح الذي يكسب الثناء الحسن، قال النبي ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث» [الحديث] وفي رواية إنه كذلك في الغرس والزرع وكذلك فيمن مات مرابطاً يكتب له عمله إلى يوم القيامة. وقد بيناه في آخر «آل عمران»<sup>(١)</sup> والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ دعاء بالجنة وبمن يرثها، وهو يرد قول بعضهم: لا أسأل جنة ولا ناراً.

قوله تعالى: ﴿وَأَغْفِرْ لِي أَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ كان أبوه وعده في الظاهر أن يؤمن به فاستغفر له لهذا، فلما بان أنه لا يفي بما قال تبرأ منه. وقد تقدّم هذا المعنى. ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ أي المشركين. ﴿وَكَانَ﴾ زائدة ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ أي لا تفضحني على رءوس الأشهاد، أو لا تعذبني يوم القيامة. وفي البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن إبراهيم يرى أباه يوم القيامة عليه الغبرة والفترة والغبرة هي الفترة. وعنه عن النبي ﷺ قال: «يلقى إبراهيم أباه فيقول يا رب إنك وعدتني ألا تخزني يوم يبعثون فيقول الله تعالى إني حرمت الجنة على الكافرين» أفرد بهما البخاري رحمه الله.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ «يوم» بدل من «يوم» الأول. أي يوم لا ينفع مال ولا بنون أحداً. والمراد بقوله: ﴿وَلَا بَنُونَ﴾ الأعوان؛ لأن الابن إذا لم ينفع فغيره متى ينفع؟ وقيل: ذكر البنين لأنه جرى ذكر والد إبراهيم، أي لم ينفعه إبراهيم. ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ هو استثناء من الكافرين؛ أي لا ينفعه ماله ولا بنوه. وقيل: هو استثناء من غير الجنس، أي لكن «من أتى الله بقلب سليم» ينفعه لسلامة قلبه. وخص القلب بالذكر؛ لأنه الذي إذا سلم سلمت الجوارح، وإذا فسد فسدت سائر الجوارح. وقد تقدّم في أول «البقرة»<sup>(١)</sup>. وأختلف في القلب السليم فقيل: من الشك والشرك، فأما الذنوب فليس يسلم منها أحد؛ قاله قتادة وابن زيد وأكثر المفسرين. وقال سعيد بن المسيب: القلب السليم الصحيح هو قلب المؤمن؛ لأن قلب الكافر والمنافق مريض؛ قال الله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ وقال أبو عثمان السياري: هو القلب الخالي عن البدعة المطمئن إلى السنة. وقال الحسن: سليم من آفة المال والبنين. وقال الجنيد: السليم في اللغة اللديغ؛ فمعناه أنه قلب كاللديغ من خوف الله. وقال الضحاك: السليم الخالص.

(١) راجع ١٨٧/١ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة.

قلت: وهذا القول يجمع شتات الأقوال بعمومه وهو حسن، أي الخالص من الأوصاف الذميمة، والمتصف بالأوصاف الجميلة؛ والله أعلم. وقد روي عن عروة أنه قال: يا بني لا تكونوا لعانين فإن إبراهيم لم يلعن شيئاً قط، قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾. وقال محمد بن سيرين: القلب السليم أن يعلم أن الله حق، وأن الساعة قائمة، وأن الله يبعث من في القبور. وفي «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يدخل الجنة أقوامٌ أفئدتهم مثل أفئدة الطير» يريد - والله أعلم - أنها مثلها في أنها خالية من كل ذنب، سليمة من كل عيب، لا خبرة لهم بأمور الدنيا؛ كما روى أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: «أكثر أهل الجنة البهلاء» وهو حديث صحيح. أي البهلاء عن معاصي الله. قال الأزهري: الأبله هنا هو الذي طبع على الخير وهو غافل عن الشر لا يعرفه. وقال القتيبي: البله هم الذين غلبت عليهم سلامة الصدور وحسن الظن بالناس.

[٩٠] ﴿وَأَزَلَّتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ٩٠.

[٩١] ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ ٩١.

[٩٢] ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَنْزِلُوا مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ ٩٢.

[٩٣] ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ﴾ ٩٣.

[٩٤] ﴿فَكَبَّكُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ ٩٤.

[٩٥] ﴿وَحَنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ ٩٥.

[٩٦] ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ ٩٦.

[٩٧] ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ٩٧.

[٩٨] ﴿إِذْ نُسَوِّكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ٩٨.

[٩٩] ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ ٩٩.

[١٠٠] ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ ١٠٠.

[١٠١] ﴿وَلَا صِدِّيقِينَ﴾ ١٠١.

[١٠٢] ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةٌ فَنَتُخَرِّقُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ١٠٢.

[١٠٣] ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ١٠٣.

[١٠٤] ﴿وَلَوْ أَنَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ١٠٤.

قوله تعالى: ﴿وَأَزَلَّتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي قربت وأدנית ليدخلوها. وقال الزجاج:

قرب دخولهم إياها. ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ﴾ أي أظهرت ﴿الْجَحِيمُ﴾ يعني جهنم. ﴿لِلْغَاوِينَ﴾

أي الكافرين الذين ضلوا عن الهدى. أي تظهر جهنم لأهلها قبل أن يدخلوها حتى يستشعروا الروح والحزن، كما يستشعر أهل الجنة الفرح لعلمهم أنهم يدخلون الجنة ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الأصنام والأنداد ﴿هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ﴾ من عذاب الله ﴿أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾ لأنفسهم. وهذا كله توبيخ. ﴿فَكُبِّكِبُوا فِيهَا﴾ أي قلبوا على رؤوسهم. وقيل: دهوروا وألقى بعضهم على بعض. وقيل: جمعوا. مأخوذ من الكَبْكَبَة وهي الجماعة؛ قاله الهروي. وقال النحاس: هو مشتق من كَوَّكَب الشيء أي مُعْظَمَه. والجماعة من الخيل كَوَّكَب وكَبْكَبَة. وقال ابن عباس: جمعوا فطرحوا في النار. وقال مجاهد؛ دهوروا. وقال مقاتل: قذفوا. والمعنى واحد. تقول: دهورت الشيء إذا جمعته ثم قذفته في مَهْوَاة. يقال: هو يدهور اللقم إذا كبرها. ويقال: في الدعاء كب الله عدو المسلمين ولا يقال أكبه. وكبكبه، أي كبه وقلبه. ومنه قوله تعالى: ﴿فَكُبِّكِبُوا فِيهَا﴾ والأصل كُبِّبُوا فأبدل من الباء الوسطى كاف استثقالا لاجتماع الباءات. قال السدي: الضمير في ﴿كُبِّكِبُوا﴾ لمشركي العرب ﴿وَالْغَاوُونَ﴾ الآلهة. ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ﴾ من كان من ذريته. وقيل: كل من دعاه إلى عبادة الأصنام فأتبعه. وقال قتادة والكلبي ومقاتل: ﴿الْغَاوُونَ﴾ هم الشياطين. وقيل: إنما تلقى الأصنام في النار وهي حديد ونحاس ليعذب بها غيرهم. ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ يعني الإنس والشياطين والغاوين والمعبودين اختصموا حينئذ. ﴿تَاللَّهِ﴾ حلفوا بالله ﴿إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي في خسار وتبار وحيرة عن الحق بينة إذا اتخذنا مع الله آلهة فعبدناها كما يعبد؛ وهذا معنى قوله: ﴿إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي في العبادة وأنتم لا تستطيعون الآن نصرنا ولا نصر أنفسكم. ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ يعني الشياطين الذين زينوا لنا عبادة الأصنام. وقيل: أسلافنا الذين قلدناهم. قال أبو العالية وعكرمة: ﴿المجرمون﴾ إبليس وأبن آدم القاتل هما أول من سنّ الكفر والقتل وأنواع المعاصي. ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ أي شفعاء يشفعون لنا من الملائكة والنبيين والمؤمنين. ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ أي صديق مشفق؛ وكان عليّ رضي الله عنه يقول: عليكم بالإخوان فإنهم عدّة الدنيا وعدّة الآخرة؛

ألا تسمع إلى قول أهل النار ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾. الزمخشري: وجمع الشافع لكثرة الشافعين ووجد الصديق لقلته؛ ألا ترى أن الرجل إذا أمتحن بإرهاق ظالم مضت جماعة وافرة من أهل بلده لشفاعته؛ رحمة له وحسبة وإن لم تسبق له بأكثرهم معرفة؛ وأما الصديق فهو الصادق في وداده الذي يهيمه ما يهيمك فأعز من بيض الأنوق؛ وعن بعض الحكماء أنه سئل عن الصديق فقال: أسم لا معنى له. ويجوز أن يريد بالصديق الجمع. والحميم القريب والخاص؛ ومنه حامة الرجل أي أقرباؤه. وأصل هذا من الحميم وهو الماء الحار؛ ومنه الحَمَام والحُمَى؛ فحامة الرجل الذين يحرقهم ما أحرقه؛ يقال: هم حُزَانَتُهُ أي يحزنهم ما يحزنه. ويقال: حَمَ الشيءُ وأَحَمَّ إذا قرب، ومنه الحُمَى؛ لأنها تقرب من الأجل. وقال علي بن عيسى: إنما سمي القريب حميماً؛ لأنه يَحْمَى لغضب صاحبه، فجعله مأخوذاً من الحمية. وقال قتادة: يذهب الله عز وجل يوم القيامة مودة الصديق ورقة الحميم. ويجوز ﴿وَلَا صَدِيقٌ حَمِيمٌ﴾ بالرفع على موضع ﴿مِنْ شَافِعِينَ﴾؛ لأن ﴿مِنْ شَافِعِينَ﴾ في موضع رفع. وجمع صديق أصدقاء وصدقاء وصادق. ولا يقال صُدُق للفرق بين النعت وغيره. وحكى الكوفيون: أنه يقال في جمعه صُدْقَان. النحاس: وهذا بعيد؛ لأن هذا جمع ما ليس بنعت نحو رَغِيف ورُغْفَان. وحكوا أيضاً صديق وأصادق. وأفاعل إنما هو جمع أفْعَل إذا لم يكن نعتاً نحو أشجع وأشاجع. ويقال: صديق للواحد والجماعة وللمرأة؛ قال الشاعر<sup>(١)</sup>:

نَصَبَنَ الْهُوَى ثُمَّ أَرْتَمِينَ قُلُوبَنَا      بِأَعْيُنٍ أَعْدَاءٍ وَهُنَّ صَدِيقُ

ويقال: فلان صُدِيقِي أي أخص أصدقائي، وإنما يصغر على جهة المدح؛ كقول حُبَاب بن المنذر؛ (أَنَا جُذَيْلُهَا<sup>(٢)</sup> المحكك، وَعُذَيْقُهَا المرجَّب) ذكره الجوهري. النحاس: وجمع حميم أَحِمَاءٌ وَأَحِمَّةٌ وكرهوا أفعلاء للتضعيف. ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ ﴿أَنَّ﴾ في موضع رفع، المعنى ولو وقع لنا رجوع إلى الدنيا لآمنا حتى يكون لنا شفعاء. تمنوا حين لا ينفعهم التمني.

(١) هو جرير. (٢) عنى بجذيلها المحكك الأصل من الشجرة - أو عود ينصب - تحتك به الإبل فتشتفى به؛ أي قد جريتني الأمور ولي علم ورأي يشفي بهما كما تشتفي هذه الإبل الجربى بهذا الجذيل. والتريج هنا إرفاد النخلة من جانب ليمنعها من السقوط؛ أي إن لي عشيرة تعضدني وتمنعني. والعذيق تصغير عذق (بالفتح) وهي النخلة يحملها.

وإنما قالوا ذلك حين شفع الملائكة والمؤمنون. قال جابر بن عبد الله قال النبي ﷺ: «إن الرجل ليقول في الجنة ما فعل فلان وصديقه في الجحيم فلا يزال يشفع له حتى يشفعه الله فيه فإذا نجا قال المشركون ﴿مَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾». وقال الحسن: ما أجمع ملا على ذكر الله، فيهم عبدٌ من أهل الجنة إلا شفعه الله فيهم، وإن أهل الإيمان ليشفع بعضهم في بعض وهم عند الله شافعون مشفعون. وقال كعب: إن الرجلين كانا صديقين في الدنيا، فيمر أحدهما بصاحبه وهو يجر إلى النار، فيقول له أخوه: والله ما بقي لي إلا حسنة واحدة أنجو بها، خذها أنت يا أخي فتنجو بها مما أرى، وأبقى أنا وإياك من أصحاب الأعراف. قال: فيأمر الله بهما جميعاً فيدخلان الجنة. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ تقدم والحمد لله.

- [١٠٥] ﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ نُوحَ الْمُرْسَلِينَ﴾ .  
 [١٠٦] ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نَبْقُونَ﴾ .  
 [١٠٧] ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ .  
 [١٠٨] ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ .  
 [١٠٩] ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .  
 [١١٠] ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ .  
 [١١١] ﴿قَالُوا اتَّوَيْنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ .  
 [١١٢] ﴿قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .  
 [١١٣] ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ .  
 [١١٤] ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .  
 [١١٥] ﴿إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ .  
 [١١٦] ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنشُرْ لَتَكُونَ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ .  
 [١١٧] ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ .  
 [١١٨] ﴿فَأَفْتَحَ يَدَيَّ وَيَسَّرَ لَهُمْ فَتَحًا وَبَحْنًا وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .  
 [١١٩] ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَاحِ الْمَشْحُونِ﴾ .  
 [١٢٠] ﴿ثُمَّ أَعْرَفْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ﴾ .  
 [١٢١] ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ .  
 [١٢٢] ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ .

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ قال ﴿كَذَّبَتْ﴾ والقوم مذكر؛ لأن المعنى كذبت جماعة قوم نوح، وقال ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ لأن من كذب رسولا فقد كذب الرسل؛ لأن كل رسول يأمر بتصديق جميع الرسل. وقيل: كذبوا نوحاً في النبوة وفيما أخبرهم به من مجيء المرسلين بعده. وقيل: ذكر الجنس والمراد نوح عليه السلام. وقد مضى هذا في ﴿الفرقان﴾<sup>(١)</sup> ﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ أي ابن أبيهم وهي أخوة نسب لا أخوة دين. وقيل: هي أخوة المجانسة. قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾ وقد مضى هذا في ﴿الأعراف﴾<sup>(٢)</sup>. وقيل: هو من قول العرب يا أخا بني تميم. يريدون يا واحداً منهم. الزمخشري: ومنه بيت الحماسة:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في الثائبات على ما قال بُرْهَانَا

﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي ألا تتقون الله في عبادة الأصنام ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي صادق فيما أبلغكم عن الله تعالى. وقيل: ﴿أَمِينٌ﴾ فيما بينكم؛ فإنهم كانوا عرفوا أمانته وصدقه من قبل؛ كمحمد ﷺ في قريش. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي فاستتروا بطاعة الله تعالى من عقابه. ﴿وَأَطِيعُوا﴾ فيما أمركم به من الإيمان. ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي لا طمع لي في مالكم. ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ أي ما جزائي ﴿إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ كرر تأكيداً.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ فيه مسألتان:

الأولى - قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ﴾ أي نصدق قولك .  
﴿وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ الواو للحال وفيه إضمار قد ، أي وقد أتبعك .  
﴿الْأَرْذَلُونَ﴾ جمع الأرذل، المكسر الأراذل والأثنى الرذلى والجمع الرذّل.  
قال النحاس: ولا يجوز حذف الألف واللام في شيء من هذا عند أحد من النحويين علمناه. وقرأ ابن مسعود والضحاك ويعقوب الحضرمي وغيرهم،

(١) راجع ص ٣١ من هذا الجزء.

(٢) راجع ٢٣٥/٧ طبعة أولى أو ثانية.

﴿وَأَتَّبَاعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾. النحاس: وهي قراءة حسنة؛ وهذه الواو أكثرها تتبعها الأسماء والأفعال بقدر. وأتباع جمع تبع وتببع يكون للواحد والجمع. قال الشاعر:

له تبع قد يعلم الناس أنه على من يُداني صيقت وربيع

ارتفاع ﴿أَتَّبَاعَكَ﴾ يجوز أن يكون بالابتداء و﴿الْأَرْذَلُونَ﴾ الخبر؛ التقدير أنؤمن لك وإنما أتباعك الأرذلون. ويجوز أن يكون معطوفاً على الضمير في قوله: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ﴾ والتقدير: أنؤمن لك نحن وأتباعك الأرذلون فنعدهم منهم؛ وحسن ذلك الفصل بقوله: ﴿لَكَ﴾ وقد مضى القول في الأراذل في سورة ﴿هود﴾<sup>(١)</sup> مستوفى. ونزيده هنا بياناً وهي المسألة:

الثانية - فقيل: إن الذين آمنوا به بنوه ونساؤه وكَنَّاته وبنو بنيه. واختلف هل كان معهم غيرهم أم لا. وعلى أي الوجهين كان فالكل صالحون؛ وقد قال نوح: ﴿وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ والذين معه هم الذي أتبعوه، ولا يلحقهم من قول الكفرة شين ولا ذم، بل الأرذلون هم المكذبون لهم. قال السهيلي: وقد أغرى كثير من العوام بمقالة رويت في تفسير هذه الآية: هم الحاكة والحجامون. ولو كانوا حاكة كما زعموا لكان إيمانهم بنبي الله وأتباعهم له مشرفاً كما تشرف بلال وسلمان بسبقهما للإسلام؛ فهما من وجوه أصحاب النبي ﷺ ومن أكابرهم، فلا ذرية نوح كانوا حاكة ولا حجامين، ولا قول الكفرة في الحاكة والحجامين إن كانوا آمنوا بهم أرذلون ما يلحق اليوم بحاكتنا ذماً ولا نقصاً؛ لأن هذه حكاية عن قول الكفرة إلا أن يجعل الكفرة حجة ومقاتلهم أصلاً؛ وهذا جهل عظيم وقد أعلم الله تعالى أن الصناعات ليست بضائرة في الدين.

قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَا عَلَّمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿كَانَ﴾ زائدة؛ والمعنى: وما علمي بما يعملون؛ أي لم أكلف العلم بأعمالهم إنما كلفت أن أدعوهم إلى الإيمان، والاعتبار بالإيمان لا بالحرف والصناعات؛ وكأنهم قالوا: إنما أتبعك هؤلاء الضعفاء طمعاً في العزة والمال. فقال: إني لم أقف على باطن أمرهم وإنما إليّ ظاهرهم. وقيل: المعنى إني

(١) راجع ٢٣/٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

لم أعلم أن الله يهديهم ويضلهم ويرشدهم ويغويهم ويوفقهم ويخذلهم. ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ﴾ أي في أعمالهم وإيمانهم ﴿إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف؛ أي لو شعرت أن حسابهم على ربهم لما عبتهم بصنائعهم. وقراءة العامة ﴿تَشْعُرُونَ﴾ بالتاء على المخاطبة للكفار وهو الظاهر. وقرأ ابن أبي عبلة ومحمد بن السَّمِيعِ ﴿لَوْ يَشْعُرُونَ﴾ بالياء كأنه خبر عن الكفار وترك الخطاب لهم؛ نحو قوله: ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾. وروي أن رجلاً سأل سفيان عن امرأة زنت وقتلت ولدها وهي مسلمة هل يقطع لها بالنار؟ فقال: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾. ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لخساسة أحوالهم وأشغالهم. وكأنهم طلبوا منه طرد الضعفاء كما طلبته قريش. ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ يعني: إن الله ما أرسلني أخص ذوي الغنى دون الفقراء، إنما أنا رسول أبلغكم ما أرسلت به، فمن أطاعني فذلك السعيد عند الله وإن كان فقيراً.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ﴾ أي عن سب آلها وعيب ديننا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ أي بالحجارة؛ قاله قتادة. وقال ابن عباس ومقاتل: من المقتولين. قال الثَّمَالِيُّ: كل مرجومين في القرآن فهو القتل إلا في ﴿مريم﴾: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ أي لأسبئك. وقيل: ﴿مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ من المشتومين؛ قاله السدي. ومنه قول أبي ذؤاد<sup>(١)</sup>: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال ذلك لما يشس من إيمانهم، والفتح الحكم وقد تقدم. ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ يريد السفينة وقد مضى ذكرها. والمشحون المملوء، والشحن ملء السفينة بالناس والدواب وغيرهم. ولم يؤنث الفلك هاهنا؛ لأن الفلك هاهنا واحد لا جمع. ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ﴾ أي بعد إنجائنا نوحاً ومن آمن. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

(١) كذا في جميع نسخ الأصل، وهنا سقط لعله بيت من الشعر أورده المؤلف شاهداً على أن الرجم معناه الشتم؛ كما أورد بيت الجعدي شاهداً على ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمَنَّكَ﴾. راجع ٩١/٩.

- [١٢٣] ﴿كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ .
- [١٢٤] ﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ .
- [١٢٥] ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾﴾ .
- [١٢٦] ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٢٦﴾﴾ .
- [١٢٧] ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾﴾ .
- [١٢٨] ﴿أَتَتَّبِعُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ .
- [١٢٩] ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ .
- [١٣٠] ﴿وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ .
- [١٣١] ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٣١﴾﴾ .
- [١٣٢] ﴿وَاتَّقُوا الَّتِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ .
- [١٣٣] ﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَمٍ وَبَيْنَ ﴿١٣٣﴾﴾ .
- [١٣٤] ﴿وَحَنَنْتِ وَعْيُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ .
- [١٣٥] ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾ .
- [١٣٦] ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ .
- [١٣٧] ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ .
- [١٣٨] ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ .
- [١٣٩] ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ .
- [١٤٠] ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾ .

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ﴾ التائيت بمعنى القبيلة والجماعة. وتكذيبهم المرسلين كما تقدم. ﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾. إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا. وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ. بين المعنى وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿أَتَتَّبِعُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ الريح ما أرتفع من الأرض في قول ابن عباس وغيره، جمع ريعة. وكم ريع أرضك أي كم أرتفاعها. وقال قتادة: الريح الطريق. وهو قول الضحاك والكلبي ومقاتل والسدي. وقاله ابن عباس أيضاً. ومنه قول المسيب بن علس:

في الآل يخفِضُها ويرفعُها ريعٌ يلوُحُ كأنه سخل

شبه الطريق بثوب أبيض. النحاس: ومعروف في اللغة أن يقال لما أرتفع من الأرض ريع وللطريق ريع. قال الشاعر<sup>(١)</sup>:

طَرِيقُ الْخَوَافِي مَشْرِقٌ فَوْقَ رِيْعَةٍ      نَدَى لَيْلِهِ فِي رِيْشِهِ يَتَرَقَّرُ

وقال عمارة: الريع الجبل الواحد رיעة والجمع رِباع. وقال مجاهد: هو الفج بين الجبلين. وعنه: الثنية الصغيرة. وعنه: المنطرة. وقال عكرمة ومقاتل: كانوا يهتدون بالنجوم إذا سافروا، فبنوا على الطريق أمثالا طوالاً ليهتدوا بها؛ يدل عليه قوله: ﴿آيَةٌ﴾ أي علامة. وعن مجاهد: الريع بنيان الحَمَامِ دليله ﴿تَعْبَثُونَ﴾ أي تلعبون؛ أي تبنون بكل مكان مرتفع آية علماً تلعبون بها على معنى أبنية الحمام وبروجها. وقيل: تعبثون بمن يمر في الطريق. أي تبنون بكل موضع مرتفع لتشرفوا على السابلة فتسخروا منهم. وقال الكلبي: إنه عبث العشارين بأموال من يمر بهم؛ ذكره الماوردي. وقال ابن الأعرابي: الريع الصومعة، والريع البرج من الحمام يكون في الصحراء. والريع التل العالي. وفي الريع لغتان: كسر الراء وفتحها وجمعها أرياع؛ ذكره الثعلبي.

قوله تعالى: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ أي منازل؛ قاله الكلبي. وقيل: حصوناً مشيدة؛ قاله ابن عباس ومجاهد. ومنه قول الشاعر:

تَرَكْنَا دِيَارَهُمْ مِنْهُمْ قَفَاراً      وَهَدَمْنَا الْمَصَانِعَ وَالْبُرُوجَا

وقيل: قصوراً مشيدة؛ وقاله مجاهد أيضاً. وعنه: بروج الحمام؛ وقاله السدي.

قلت: وفيه بعد عن مجاهد؛ لأنه تقدّم عنه في الريع أنه بنيان الحمام فيكون تكراراً في الكلام. وقال قتادة: مآجل للماء تحت الأرض. وكذا قال الزجاج: إنها مصانع الماء، واحدها مَصْنَعَةٌ وَمَصْنَعٌ. ومنه قول لبيد:

بَلَيْنَا وَمَا تَبَلَى النُّجُومُ الطَّوَالِ      وَتَبَقِيَ الْجِبَالُ بَعْدَنَا وَالْمَصَانِعُ

(١) هو ذو الرمة يصف بازياً. وفي ديوانه - طبع أوروبا - «واقع» بدل «مشرق».

الجوهري: المصنعة كالحوض يجتمع فيها ماء المطر، وكذلك المصنعة بضم النون. والمصانع الحصون. وقال أبو عبيدة: يقال لكل بناء مصنعة. حكاه المهدوي. وقال عبد الرزاق: المصانع عندنا بلغة اليمن القصور العادية. ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أي كي تخلدوا. وقيل: لعل أستفهام بمعنى التوبيخ أي فهل ﴿تَخْلُدُونَ﴾ كقولك: لعلك تشتمني أي هل تشتمني. روي معناه عن ابن زيد. وقال الفراء: كيما تخلدون لا تتفكرون في الموت. وقال ابن عباس وقتادة: كأنكم خالدون باقون فيها. وفي بعض القراءات ﴿كَأَنَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾<sup>(١)</sup> ذكره النحاس. وحكى قتادة: أنها كانت في بعض القراءات ﴿كَأَنَّكُمْ خَالِدُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ البطش السطوة والأخذ بالعنف. وقد بَطَشَ به يَبِطِشُ وَيَبِطِشُ بَطْشاً. وباطشه مباطشة. وقال ابن عباس ومجاهد: البطش العسف قتلاً بالسيف وضرباً بالسوط. ومعنى ذلك فعلتم ذلك ظلماً. وقال مجاهد أيضاً: هو ضرب بالسياط؛ ورواه مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر فيما ذكر ابن العربي. وقيل: هو القتل بالسيف في غير حق. حكاه يحيى بن سلام. وقال الكلبي والحسن: هو القتل على الغضب من غير تثبت. وكله يرجع إلى قول ابن عباس. وقيل: إنه المؤاخضة على العمد والخطأ من غير عفو ولا إبقاء. قال ابن العربي: ويؤيد ما قال مالك قول الله تعالى عن موسى: ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبِطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ﴾ وذلك أن موسى عليه السلام لم يسئل عليه سيفاً ولا طعنه برمح، وإنما وكزه وكانت منيته في وكزته. والبطش يكون باليد وأقله الوكز والدفع، ويليهِ السوط والعصا، ويليهِ الحديد، والكل مذموم إلا بحق. والآية نزلت خبراً عما تقدم من الأمم؛ ووعظاً من الله عز وجل لنا في مجانبة ذلك الفعل الذي ذمهم به وأنكره عليهم.

قلت: وهذه الأوصاف المذمومة قد صارت في كثير من هذه الأمة، لا سيما بالديار المصرية منذ وليتها البحرية<sup>(٢)</sup>؛ فيبطشون بالناس بالسوط والعصا في غير حق. وقد أخبر ﷺ

(١) مبني للمفعول مخففاً ومشدداً.

(٢) البحرية: هم من المماليك الأتراك الذين استخدمهم الملك الصالح الأيوبي، وأسكنهم جزيرة الروضة. وأول ملوكهم عز الدين أيك. وكانت مدة حكمهم من سنة ٦٤٨ - ٧٨٤هـ.

أن ذلك يكون. كما في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ رُؤُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا وَإِنْ رِيحَهَا لِيُوجِدَ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا». وخرج أبو داود من حديث ابن عمر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ<sup>(١)</sup> وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ وَرَضَيْتُمْ بِالزَّرْعِ وَتَرَكْتُمْ الْجِهَادَ سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذَلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ». ﴿جَبَّارِينَ﴾ قتالين. والجبار القتال في غير حق. وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنْ تُرِيدُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ﴾ قاله الهروي. وقيل: الجبار المتسلط العاتي؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ أي بمسلط. وقال الشاعر:

سَلَبْنَا مِنَ الْجَبَّارِ بِالسَّيْفِ مُلْكَهُ      عَشِيًّا وَأَطْرَافَ الرِّمَاحِ شَوَارِعُ

قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ تقدم. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ أي من الخيرات؛ ثم فسرهما بقوله: ﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ. وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي سخر ذلك لكم وتفضل بها عليكم، فهو الذي يجب أن يعبد ويشكر ولا يكفر. ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ إن كفرتم به وأصررتم على ذلك. ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَزَّتْ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ كل ذلك عندنا سواء لا نسمع منك ولا نلوي على ما نقوله. وروى العباس عن أبي عمرو وبشر عن الكسائي: «أَوَعَزَّتْ» مدغمة الظاء في التاء وهو بعيد؛ لأن الظاء حرف إطباق إنما يدغم فيما قرب منه جداً وكان مثله ومخرجه. ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي دينهم؛ عن ابن عباس وغيره. وقال الفراء: عادة الأولين. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ﴿خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾. الباقون ﴿خُلُقُ﴾. قال الهروي: وقوله عز وجل: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي اختلاقهم وكذبهم، ومن قرأ ﴿خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ فمعناه عاداتهم، والعرب تقول: حدثنا فلان بأحاديث الخلق أي بالخرافات والأحاديث المفتعلة. وقال ابن الأعرابي:

(١) العينة أن تباع من رجل سلعة بثمن معلوم إلى أجل معلوم ثم تشتريها منه بأقل من الثمن الذي بعثها به.

الخلق الدين والخلق الطبع والخلق المروءة. قال النحاس: ﴿خُلِقُ الْأَوَّلِينَ﴾ عند الفراء يعني عادة الأولين. وحكى لنا محمد بن الوليد عن محمد بن يزيد قال: ﴿خُلِقُ الْأَوَّلِينَ﴾ مذهبهم وما جرى عليه أمرهم؛ قال أبو جعفر: والقولان متقاربان، ومنه الحديث عن النبي ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً أي أحسنهم مذهباً وعادة وما يجري عليه الأمر في طاعة الله عز وجل، ولا يجوز أن يكون من كان حسن الخلق فاجراً فاضلاً، ولا أن يكون أكمل إيماناً من السيء الخلق الذي ليس بفاجر. قال أبو جعفر: حكى لنا عن محمد بن يزيد أن معنى ﴿خُلِقُ الْأَوَّلِينَ﴾ تكذيبهم وتخريضهم غير أنه كان يميل إلى القراءة الأولى؛ لأن فيها مدح آبائهم، وأكثر ما جاء القرآن في صفتهم مدحهم لآبائهم، وقولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾. وعن أبي قلابة: أنه قرأ ﴿خُلِقُ﴾ بضم الخاء وإسكان اللام تخفيف ﴿خُلِقُ﴾. ورواها ابن جبير عن أصحاب نافع عن نافع. وقد قيل: إن معنى ﴿خُلِقُ الْأَوَّلِينَ﴾ دين الأولين ومنه قوله تعالى: ﴿فَلْيُغَيِّرَنَّ خُلُقَ اللَّهِ﴾ أي دين الله. و﴿خُلِقُ الْأَوَّلِينَ﴾ عادة الأولين: حياة ثم موت ولا بعث. وقيل: ما هذا الذي أنكرت علينا من البنیان والبطش إلا عادة من قبلنا فنحن نفتدي بهم ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ على ما نفعل. وقيل: المعنى خلق أجسام الأولين؛ أي ما خلقنا إلا كخلق الأولين الذين خلقوا قبلنا وماتوا، ولم ينزل بهم شيء مما تحذرننا به من العذاب. ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ أي بريح صرصر عاتية على ما يأتي في ﴿الحاقة﴾. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ قال بعضهم: أسلم معه ثلثمائة ألف ومؤون وهلك باقيهم. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

[١٤١] ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾.

[١٤٢] ﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تُنْقُونَ﴾.

[١٤٣] ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾.

[١٤٤] ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾.

[١٤٥] ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

[١٤٦] ﴿أَتُنْكِرُونَ فِي مَا هُنَّاءٌ آمِنِينَ﴾.

[١٤٧] ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾.

- [١٤٨] ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلَعَتْ هَاضِمٌ ۝﴾ .  
 [١٤٩] ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا كَهَيْئَةِ الْفُتُوحِ ۝﴾ .  
 [١٥٠] ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۝﴾ .  
 [١٥١] ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ ۝﴾ .  
 [١٥٢] ﴿الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ۝﴾ .  
 [١٥٣] ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ۝﴾ .  
 [١٥٤] ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝﴾ .  
 [١٥٥] ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ۝﴾ .  
 [١٥٦] ﴿وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝﴾ .  
 [١٥٧] ﴿فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ ۝﴾ .  
 [١٥٨] ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۝﴾ .  
 [١٥٩] ﴿وَلَنْ رَيْكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝﴾ .

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ ذكر قصة صالح وقومه وهم ثمود؛ وكانوا يسكنون الحجر كما تقدم في ﴿الحجر﴾<sup>(١)</sup> وهي ذوات نخل وزروع ومياه. ﴿اتَّزَكَوْا فِيمَا هَاهُنَا آمِنِينَ﴾ يعني في الدنيا آمين من الموت والعذاب. قال ابن عباس: كانوا معمرين لا يبقى البنيان مع أعمارهم. ودل على هذا قوله: ﴿وَأَسْتَغْمِرْكُمْ فِيهَا﴾ فقرعهم صالح ووبخهم وقال: أنظنون أنكم باقون في الدنيا بلا موت ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلَعَتْ هَاضِمٌ﴾. الزمخشري: فإن قلت لم قال: ﴿وَنَخْلٍ﴾ بعد قوله: ﴿وَجَنَّاتٍ﴾ والنخل تتناول النخل أول شيء كما يتناول النعم الإبل كذلك من بين الأزواج حتى إنهم ليدكرون الجنة ولا يقصدون إلا النخل؛ كما يذكرون النعم ولا يريدون إلا الإبل قال زهير:

كَأَنَّ عَيْنِي فِي غَرْبَى مُقْتَلَةٍ      من النواضح تَسْقِي جَنَّةً سَحْقًا

يعني النخل؛ والنخلة السَّحُوق البعيدة الطول.

قلت: فيه وجهان؛ أحدهما - أن يخص النخل بإفراده بعد دخوله في جملة سائر الشجر تنبيهاً على أنفراده عنها بفضله عنها. والثاني - أن يريد بالجنات غيرها من الشجر؛ لأن اللفظ

(١) راجع ٤٥/١٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

يصلح لذلك ثم يعطف عليها النخل. والطلعة هي التي تطلع من النخلة كنصل السيف؛ في جوفه شماريخ القنوّ، والقنوّ أسم للخارج من الجذع كما هو بعرجونه وشماريخه. و ﴿هَضِيمٌ﴾ قال ابن عباس: لطيف ما دام في كُفْرَاه. والهضيم اللطيف الدقيق، ومنه قول أمّريء القيس:

عَلَيَّ هَضِيمَ الْكَشْحِ رِيًّا الْمُخْلَخِلِ<sup>(١)</sup>

الجوهري: ويقال للطلع هضيم ما لم يخرج من كُفْرَاه؛ لدخول بعضه في بعض. والهضيم من النساء اللطيفة الكشحيين. ونحوه حكى الهروي؛ قال: هو المنضم في وعائه قبل أن يظهر؛ ومنه رجل هضيم الجنين أي منضمهما؛ هذا قول أهل اللغة. وحكى الماوردي وغيره في ذلك أثني عشر قولاً: أحدها - أنه الرطب اللين؛ قاله عكرمة. الثاني - هو المذنب من الرطب؛ قاله سعيد بن جبيرة. قال النحاس: وروى أبو إسحاق عن يزيد - هو ابن أبي زياد كوفي ويزيد بن أبي مريم شامي - ﴿وَنَخْلٌ طَلَعَهَا هَضِيمٌ﴾ قال: منه ما قد أرطب ومنه مذنب. الثالث - أنه الذي ليس فيه نوى؛ قاله الحسن. الرابع - أنه المتهمش المتفتت إذا مس تفتت؛ قاله مجاهد. وقال أبو العالية: يتهمش في الفم. الخامس - هو الذي قد ضمير بركوب بعضه بعضاً؛ قاله الضحاك ومقاتل. السادس - أنه المتلاصق بعضه ببعض؛ قاله أبو صخر. السابع - أنه الطلع حين يتفرق ويخضر؛ قاله الضحاك أيضاً. الثامن - أنه اليانع النضيج؛ قاله ابن عباس. التاسع - أنه المكتنز قبل أن ينشق عنه القشر؛ حكاه ابن شجرة؛ قال:

كَأَنَّ حَمُولَةً تَجْلِسُ عَلَيْهِ هَضِيمٌ مَا يُحَسُّ لَهُ شُقُوقُ

العاشر - أنه الرخو؛ قاله الحسن. الحادي عشر - أنه الرخص اللطيف أول ما يخرج وهو الطلع النضيد؛ قاله الهروي. الثاني عشر - أنه البرني<sup>(٢)</sup>؛ قاله ابن الأعرابي؛ فاعل أي هنيء مريء من أنهضام الطعام. والطلع أسم مشتق من الطلوع وهو الظهور؛ ومنه طلوع الشمس والقمر والنبات.

(١) صدر البيت:

هضرت بفودي رأسها فتمايلت

(٢) البرني: ضرب من التمر وهو أجوده؛ واحده برنية.

قوله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ النَّحَتِ التَّجَرَّوَالْبَرْي؛ نَحْتُهُ يَنْحِتُهُ (بالكسر) نَحْتًا إِذَا بَرَاهِ وَالنَّحَاتَةُ الْبُرَايَةُ. وَالْمِنْحَتُ مَا يَنْحِتُ بِهِ. وَفِي ﴿وَالصَّافَّاتِ﴾ قَالَ: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾. وَكَانُوا يَنْحِتُونَهَا مِنَ الْجِبَالِ لَمَّا طَالَتْ أَعْمَارُهُمْ وَتَهَدَّم بِنَاؤُهُمْ مِنَ الْمَدَرِ وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو وَنَافِعٌ ﴿فَرِهِينَ﴾ بِغَيْرِ أَلْفٍ. الْبَاقُونَ: ﴿فَارِهِينَ﴾ بِأَلْفٍ وَهُمَا بِمَعْنَى وَاحِدٍ فِي قَوْلِ أَبِي عُبَيْدَةَ وَغَيْرِهِ؛ مِثْلُ ﴿عِظَامًا نَخِرَةً﴾ وَ ﴿نَاخِرَةً﴾. وَحَكَاهُ قَطْرِبُ. وَحَكَى فَرُّهُ يَقْرَهُ فَهُوَ فَارُهُ وَفَرُّهُ يَقْرَهُ فَهُوَ فَرَّةٌ وَفَارُهُ إِذَا كَانَ نَشِيطًا. وَهُوَ نَصَبٌ عَلَى الْحَالِ. وَفَرَقَ بَيْنَهُمَا قَوْمٌ فَقَالُوا: ﴿فَارِهِينَ﴾ حَازِقِينَ بِنَحْتِهَا؛ قَالَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ؛ وَرَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَبِي صَالِحٍ وَغَيْرِهِمَا. وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ شَدَادٍ: ﴿فَارِهِينَ﴾ مُتَجَبِّرِينَ. وَرَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا أَنَّ مَعْنَى ﴿فَرِهِينَ﴾ بِغَيْرِ أَلْفٍ أَشْرِينَ بِطَرِينٍ؛ وَقَالَهُ مُجَاهِدٌ. وَرَوَى عَنْهُ شَرِهَيْنُ. الضَّحَّاكُ: كَيْسَيْنِ. قَتَادَةُ: مَعْجَبَيْنِ؛ قَالَهُ الْكَلْبِيُّ؛ وَعَنْهُ: نَاعِمَيْنِ. وَعَنْهُ أَيْضًا أَمْنَيْنِ؛ وَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ. وَقِيلَ: مُتَخِيرَيْنِ؛ قَالَهُ الْكَلْبِيُّ وَالسُّدِّيُّ. وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

إِلَى فَرِهِ يَمَاجِدُ كُلِّ أَمْرٍ      قَصَدْتُ لَهُ لِأَخْتَبِرَ الطُّبَاعَا

وَقِيلَ: مُتَعَجِّبَيْنِ؛ قَالَهُ تَخْصِيفُ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: أَقْوِيَاءُ. وَقِيلَ: فَرِهِينَ فَرَحَيْنِ؛ قَالَهُ الْأَخْفَشُ. وَالْعَرَبُ تَعَاقَبَ بَيْنَ الْهَاءِ وَالْحَاءِ؛ تَقُولُ. مَدَهْتُهُ وَمَدَحْتُهُ؛ فَالْفَرُّهُ الْأَشْرُ الْفَرِحُ ثُمَّ الْفَرَحُ بِمَعْنَى الْمَرَحِ مَذْمُومٌ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ وَقَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ قِيلَ: الْمُرَادُ الَّذِينَ عَقَرُوا النَّاقَةَ. وَقِيلَ: التَّسْعَةُ الرُّهْطُ الَّذِينَ يَفْسُدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يَصْلَحُونَ. قَالَ السُّدِّيُّ وَغَيْرُهُ: أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى صَالِحٍ: إِنَّ قَوْمَكَ سَيَعْقِرُونَ نَاقَتَكَ؛ فَقَالَ لَهُمْ ذَلِكَ، فَقَالُوا: مَا كُنَّا لِنَفْعَلَ. فَقَالَ لَهُمْ صَالِحٌ: إِنَّهُ سَيُولَدُ فِي شَهْرِكُمْ هَذَا غُلَامٌ يَعْقَرُهَا وَيَكُونُ هَلَاكُكُمْ عَلَى يَدَيْهِ؛ فَقَالُوا: لَا يُولَدُ فِي هَذَا الشَّهْرِ ذَكَرٌ إِلَّا قَتَلْنَاهُ. فُولَدَ لِتَسْعَةٍ مِنْهُمْ فِي ذَلِكَ الشَّهْرِ فَذَبَحُوا أَبْنَاءَهُمْ، ثُمَّ وَلَدَ لِلْعَاشِرِ فَأَبَى أَنْ يَذْبَحَ ابْنَهُ وَكَانَ لَمْ يُولَدَ لَهُ قَبْلَ ذَلِكَ. وَكَانَ ابْنُ الْعَاشِرِ أَزْرَقُ أَحْمَرُ فَنَبَتَ نَبَاتًا سَرِيعًا، وَكَانَ إِذَا مَرَّ بِالتَّسْعَةِ فَرَأَوْهُ قَالُوا: لَوْ كَانَ أَبْنَاؤُنَا أَحْيَاءَ لَكَانُوا مِثْلَ هَذَا.

وغيض التسعة على صالح؛ لأنه كان سبب قتلهم أبناءهم فتعصبوا وتقاسموا بالله لنبيته وأهله. قالوا: نخرج إلى سفر فترى الناس سفرنا فنكون في غار، حتى إذا كان الليل وخرج صالح إلى مسجده أتيناه فقتلناه، ثم قلنا ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون؛ فيصدقوننا ويعلمون أنا قد خرجنا إلى سفر. وكان صالح لا ينام معهم في [القرية وكان يأوي إلى] <sup>(١)</sup> مسجده، فإذا أصبح أتاهم فوعظهم، فلما دخلوا الغار أرادوا أن يخرجوا فسقط عليهم الغار فقتلهم، فرأى ذلك ناس ممن كان قد أطلع على ذلك، فصاحوا في القرية: يا عباد الله! أما رضي صالح أن أمر بقتل أولادهم حتى قتلهم؛ فأجمع أهل القرية على قتل الناقة. وقال ابن إسحاق: إنما أجمع التسعة على سب صالح بعد عقربهم الناقة وإنذارهم بالعذاب على ما يأتي بيانه في سورة النمل <sup>(٢)</sup> إن شاء الله تعالى. ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ هو من السحر في قول مجاهد وقتادة على ما قال المهدوي. أي أصبت بالسحر فبطل عقلك؛ لأنك بشر مثلنا فلم تدع الرسالة دوننا. وقيل: من المعلنين بالطعام والشراب؛ قاله ابن عباس والكلبي وقتادة ومجاهد أيضاً فيما ذكر الثعلبي. وهو على هذا القول من السحر وهو الرثة أي بشر لك سحر أي رثة تأكل وتشرب مثلنا كما قال [ليبد] <sup>(٣)</sup>:

فإن تسألينا فيم نحن فإننا عصابير من هذا الأنام المُسَحَّر

وقال [أمرؤ القيس]:

وَتُسَحَّرُ بِالطَّعَامِ وَبِالشَّرَابِ <sup>(٤)</sup>

﴿فَأَتِ بَايَةَ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في قولك. ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ قال ابن عباس: قالوا إن كنت صادقاً فأدع الله يخرج لنا من هذا الجبل ناقة حمراء عشراء <sup>(٥)</sup> فتضع ونحن ننظر، وترد هذا الماء فتشرب وتغذو علينا بمثله لبناً. فدعا الله

(١) الزيادة من «قصص الأنبياء» للثعلبي. (٢) في تفسير قوله تعالى: «وكان في المدينة تسعة رهط».

(٣) في نسخ الأصل: أمرؤ القيس؛ والتصويب من ديوان ليبد. (٤) صدر البيت:

أرانا موضعين لأمر غيب

موضعين: مسرعين. وأمر غيب يزيد الموت وأنه قد غيب منا وقته ونحن نلهي عنه بالطعام والشراب

(٥) ناقة عشراء: مضى لحملها عشرة أشهر.

وفعل الله ذلك ف ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ﴾ أي حظ [من الماء]<sup>(١)</sup>؛ أي لكم شرب يوم ولها شرب يوم؛ فكانت إذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله أول النهار وتسقيهم اللبن آخر النهار، وإذا كان يوم شربهم كان لأنفسهم ومواشيهم وأرضهم، ليس لهم في يوم ورودها أن يشربوا من شربها شيئاً، ولا لها أن تشرب في يومهم من مائهم شيئاً. قال الفراء: الشُّرب الحظ من الماء. قال النحاس: فأما المصدر فيقال فيه شرب شرباً وشرباً وشرباً وأكثرها المضمومة؛ لأن المكسورة والمفتوحة يشتركان مع شيء آخر فيكون الشُّرب الحظ من الماء، ويكون الشُّرب جمع شارب كما قال<sup>(٢)</sup>:

فَقُلْتُ لِلشُّرْبِ فِي دُرْنَا وَقَدْ ثَمَلُوا

إلا أن أبا عمرو بن العلاء والكسائي يختاران الشُّرب بالفتح في المصدر، ويحتجان برواية بعض العلماء أن النبي ﷺ قال: «إنها أيام أكل وشرب». ﴿وَلَا تَمَسُّوْهَا بِسُوءٍ﴾ لا يجوز إظهار التضعيف هاهنا؛ لأنها حرفان متحركان من جنس واحد. ﴿فَيَأْخُذْكُمْ﴾ جواب النهي، ولا يجوز حذف الفاء منه، والجزم كما جاء في الأمر إلا شيئاً روي عن الكسائي أنه يجيزه. ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَضَبُّوهَا نَادِمِينَ﴾ أي على عقرها لما أيقنوا بالعذاب. وذلك أنه أنظرهم ثلاثاً فظهرت عليهم العلامة في كل يوم، وندموا ولم ينفعهم الندم عند معاينة العذاب. وقيل: لم ينفعهم الندم لأنهم لم يتوبوا، بل طلبوا صالحاً عليه السلام ليقتلوه لما أيقنوا بالعذاب. وقيل: كانت ندامتهم على ترك الولد إذ لم يقتلوه معها. وهو بعيد. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ إلى آخره تقدّم. ويقال: إنه ما آمن به من تلك الأمم إلا ألفان وثمانمائة رجل وأمرأة. وقيل: كانوا أربعة آلاف. وقال كعب: كان قوم صالح أثني عشر ألف قبيل كل قبيل نحو أثني عشر ألفاً من سوى النساء والذرية، ولقد كان قوم عاد مثلهم ست مرات.

(١) زيادة يقتضيها المعنى.

(٢) هو الأعشى وتمامه:

شيموا فكيف يشيم الشارب الثميل

ودرنا (بضم الدال والفتح) موضع زعموا أنه بناحية اليمامة. اللسان.

- [١٦٠] ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ .  
 [١٦١] ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ .  
 [١٦٢] ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ .  
 [١٦٣] ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ .  
 [١٦٤] ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .  
 [١٦٥] ﴿أَتَأْتُونَ الذَّكَرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ .  
 [١٦٦] ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ .  
 [١٦٧] ﴿قَالُوا لَنْ نَمْنَعَكَ بِلُوطٍ لَتَكُونَ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ .  
 [١٦٨] ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ .  
 [١٦٩] ﴿رَبِّ بَنِي وَاهِلٍ مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ .  
 [١٧٠] ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ .  
 [١٧١] ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ .  
 [١٧٢] ﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ﴾ .  
 [١٧٣] ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ .  
 [١٧٤] ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ .  
 [١٧٥] ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْ أَعِزُّ الرَّحِيمِ﴾ .

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ ماضى معناه وقصته في  
 ﴿الأعراف﴾<sup>(١)</sup> و ﴿هود﴾ مستوفى والحمد لله .

قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الذَّكَرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ كانوا ينكحونهم في أدبارهم  
 وكانوا يفعلون ذلك بالغرباء على ما تقدم ﴿في الأعراف﴾ . ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ  
 لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ يعني فروج النساء فإن الله خلقها للنكاح . قال  
 إبراهيم بن مهاجر: قال لي مجاهد كيف يقرأ عبد الله ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ  
 رَبُّكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ قلت: ﴿وتدرون ما أصلح لكم ربكم من أزواجكم﴾ قال:  
 الفرج؛ كما قال: ﴿فَاتَّوهُنَ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ . ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ أي  
 متجاوزون لحدود الله . ﴿قَالُوا لَنْ نَمْنَعَكَ بِلُوطٍ﴾ عن قولك هذا . ﴿لَتَكُونَنَّ

مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١﴾ أَي من بلدنا وقريننا. ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ﴾ يعني اللواط ﴿مِنَ الْقَالِينَ﴾ أي المبغضين والقلى البغض؛ قلبته أقلية قلّى وقلاء. قال (١):

فَلَسْتُ بِمَقْلِي الْخِلَالِ وَلَا قَالِي

وقال آخر (٢):

عَلَيْكَ السَّلَامُ لَا مِلَّتْ قَرْيَةٌ وَمَالِكٍ عِنْدِي إِنْ نَأَيْتَ قَلَاءُ  
﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أَي من عذاب عملهم. دعا الله لما آيس من إيمانهم  
ألا يصيبه من عذابهم.

قال تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ ولم يكن إلا أبتاه على ما تقدّم في  
﴿هُود﴾. ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ روى سعيد عن قتادة قال: غبرت في عذاب الله  
عز وجل أي بقيت. وأبو عبيدة يذهب إلى أن المعنى من الباقيين في الهرم أي بقيت  
حتى هُرمّت. قال النحاس: يقال للذهاب غابر والباقي غابر كما قال (٣):

لَا تَكْسَعُ الشَّوْلَ بِأَغْبَارِهَا إِنَّكَ لَا تَذَرِي مَنِ النَّاتِجُ

وكما قال (٢):

فَمَا وَتَى مُحَمَّدٌ مَذْأَنُ غَفَرٍ لَهُ إِلَهُ مَا مَضَى وَمَا غَبَرَ

أي ما بقي. والأغبار بقيات الألبان. ﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ﴾ أي أهلكناهم بالخسف  
والحصب؛ قال مقاتل: خسف الله بقوم لوط وأرسل الحجارة على من كان خارجاً من  
القرية. ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ يعني الحجارة ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾. وقيل: إن  
جبريل خسف بقريتهم وجعل عاليها سافلها، ثم أتبعها الله بالحجارة. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ  
لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ لم يكن فيها مؤمن إلا بيت لوط وأبنتاه.

(١) هو أمرؤ القيس؛ وصدر البيت:

صرفت الهوى عنهن من خشية الردى

(٢) هو الحرث بن حلزة؛ وكسع الناقة يغيرها ترك في ضرعها بقية من اللبن. وبعده:

وأحلب لأضيافك ألبانها فإن شر اللبن الوالج

يقول: لا تغزز إبلك تطلب بذلك قوة نسلها، وأحلبها لأضيافك، فلعل عدواً يغير عليها فيكون نتاجها له  
دونك. (٣) هو العجاج.

- [١٧٦] ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ .  
 [١٧٧] ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ .  
 [١٧٨] ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ .  
 [١٧٩] ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ .  
 [١٨٠] ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .  
 [١٨١] ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ .  
 [١٨٢] ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ .  
 [١٨٣] ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ .  
 [١٨٤] ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِيلَ الْأَوَّلِينَ﴾ .  
 [١٨٥] ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ .  
 [١٨٦] ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ .  
 [١٨٧] ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ .  
 [١٨٨] ﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ .  
 [١٨٩] ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ .  
 [١٩٠] ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ .  
 [١٩١] ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ .

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ الأيك الشجر الملتف الكثير الواحدة أيك. ومن قرأ ﴿أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ فهي الغيضة. ومن قرأ ﴿لَيْكَةِ﴾ فهو أسم القرية. ويقال: هما مثل بكة ومكة؛ قاله الجوهري. وقال النحاس: وقرأ أبو جعفر ونافع ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ وكذا قرأ في ﴿ص﴾. وأجمع القراء على الخفض في التي في سورة ﴿الحجر﴾ والتي في سورة ﴿ق﴾ فيجب أن يرد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه إذ كان المعنى واحداً. وأما ما حكاه أبو عبيد من أن ﴿ليكة﴾ هي أسم القرية التي كانوا فيها وأن ﴿الأيكة﴾ أسم البلد فشيء لا يثبت ولا يعرف من قاله فيثبت علمه، ولو عرف من قاله لكان فيه نظر؛ لأن أهل العلم جميعاً من أهل التفسير والعلم بكلام العرب على خلافه.

وروى عبد الله بن وهب عن جرير بن خازم عن قتادة قال: أرسل شعيب عليه السلام إلى أمتين: إلى قومه من أهل مدين، وإلى أصحاب الأيكة؛ قال: والأيكة غيضة من شجر ملتف. وروى سعيد عن قتادة قال: كان أصحاب الأيكة أهل غيضة وشجر وكانت عامة شجرهم الدوم وهو شجر المقل. وروى ابن جبير عن الضحاك قال: خرج أصحاب الأيكة - يعني حين أصابهم الحرّ - فأنضموا إلى الغيضة والشجر، فأرسل الله عليهم سحابة فاستظلوا تحتها، فلما تكاملوا تحتها أحرقوا. ولو لم يكن في هذا إلا ما روي عن ابن عباس قال: و﴿الأيكة﴾ الشجر. ولا نعلم بين أهل اللغة اختلافاً أن الأيكة الشجر الملتف، فأما احتجاج بعض من أحتج بقراءة من قرأ في هذين الموضعين بالفتح أنه في السواد ﴿ليكة﴾ فلا حجة له؛ والقول فيه: إن أصله الأيكة ثم خففت الهمزة فألقيت حركتها على اللام فسقطت وأستغنت عن ألف الوصل؛ لأن اللام قد تحركت فلا يجوز على هذا إلا الخفض؛ كما تقول بالأحمر تحقق الهمزة ثم تخففها فتقول بلخمر؛ فإن شئت كتبه في الخط على ما كتبه أولاً، وإن شئت كتبه بالحذف؛ ولم يجر إلا الخفض، قال سيبويه: وأعلم أن ما لا ينصرف إذا دخلت عليه الألف واللام أو أضيف أنصرف؛ ولا نعلم أحداً خالف سيبويه في هذا. وقال الخليل: ﴿الأيكة﴾ غيضة تنبت السدر والأراك ونحوهما من ناعم الشجر. ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ ولم يقل أخوهم شعيب؛ لأنه لم يكن أخا لأصحاب الأيكة في النسب، فلما ذكر مدين قال: ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْباً﴾؛ لأنه كان منهم. وقد مضى في ﴿الأعراف﴾<sup>(١)</sup> القول في نسبه. قال ابن زيد: أرسل الله شعيباً رسولاً إلى قومه أهل مدين، وإلى أهل البادية وهم أصحاب الأيكة؛ وقاله قتادة. وقد ذكرناه. ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ تخافون الله ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا. الآية. وإنما كان جواب هؤلاء الرسل واحداً على صيغة واحدة؛ لأنهم متفقون على الأمر بالتقوى، والطاعة والإخلاص في العبادة، والامتناع من أخذ الأجر على تبليغ الرسالة. ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ الناقصين للكيل

والوزن. ﴿وَزَنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ أي أعطوا الحق. وقد مضى في ﴿سُبْحَانَ﴾ وغيرها. ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعَثُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ تقدم في ﴿هود﴾ وغيرها. ﴿وَأَتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولِينَ﴾ قال مجاهد: الجبلة هي الخليفة. وجبل فلان على كذا أي خلق؛ فالخلق جبلة وجبلة وجبلة وجبلة وذكره النحاس في «معاني القرآن». ﴿وَالْجِبِلَّةَ﴾ عطف على الكاف والميم. قال الهروي: الجبلة والجبلة والجبل والجبل والجبل لغات؛ وهو الجمع ذو العدد الكثير من الناس؛ ومنه قوله تعالى: ﴿جِبِلًّا كَثِيرًا﴾. قال النحاس في كتاب «إعراب القرآن» له: ويقال جبلة والجمع فيهما جبائل، وتحذف الضمة والكسرة من الباء، وكذلك التشديد من اللام؛ فيقال: جبلة وجبل، ويقال: جبلة وجبائل؛ وتحذف الهاء من هذا كله. وقرأ الحسن باختلاف عنه ﴿وَالْجِبِلَّةَ الْأُولِينَ﴾ بضم الجيم والباء؛ وروي عن شيبة والأعرج. الباقون بالكسر. قال:

والموتُ أعظمُ حادثٍ فيما يمرُّ على الجبلة

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ الذين يأكلون الطعام والشراب على ما تقدم. ﴿وَأَنْ نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي ما نظنك إلا من الكاذبين في أنك رسول الله تعالى. ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا<sup>(١)</sup> مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي جانباً من السماء وقطعة منه، فننظر إليه؛ كما قال: ﴿وَأَنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾. وقيل: أرادوا أنزل علينا العذاب. وهو مبالغة في التكذيب. قال أبو عبيدة: الكسف جمع كسفة مثل سدر وسدر. وقرأ السلمي وحفص ﴿كِسْفًا﴾ جمع كسفة أيضاً وهي القطعة والجانب تقديره كسرة وكسر. قال الجوهري: الكسفة القطعة من الشيء؛ يقال أعطني كسفة من ثوبك والجمع كسفت وكسفت. ويقال: الكسف والكسفة واحد. وقال الأخفش: من قرأ ﴿كِسْفًا﴾ جعله واحداً ومن قرأ ﴿كِسْفًا﴾ جعله جمعاً. وقد مضى هذا في سورة ﴿سبحان﴾<sup>(٢)</sup>. وقال الهروي: ومن قرأ ﴿كِسْفًا﴾ على التوحيد فجمعه أكساف وكسوف؛ كأنه قال أو تسقطه علينا طبقاً واحداً،

(١) ﴿كسفا﴾ بإسكان السين قراءة نافع. (٢) راجع ٣٣٠/١٠ طبعة أولى أو ثانية.

وهو من كسفت الشيء كسفا إذا غطيته. ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ قَالَ رَبِّي  
أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٧٦﴾ تهديد؛ أي إنما عليّ التبليغ وليس العذاب الذي سألتني إليّ  
وهو يجازيكم. ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ قال ابن عباس: أصابهم  
حر شديد، فأرسل الله سبحانه سحابة فهربوا إليها ليستظلوا بها، فلما صاروا  
تحتها صبح بهم فهلكوا. وقيل: أقامها الله فوق رؤوسهم، وألهبها حراً حتى  
ماتوا من الرُّند. وكان من أعظم يوم في الدنيا عذاباً. وقيل: بعث الله عليهم  
سُمُوماً فخرجوا إلى الأيكة يستظلون بها فأضرمها الله عليهم ناراً فأحترقوا.  
وعن ابن عباس أيضاً وغيره: إن الله تعالى فتح عليهم باباً من أبواب جهنم،  
وأرسل عليهم هَذَّةً وحرّاً شديداً فأخذ بأنفاسهم، فدخلوا بيوتهم فلم ينفعهم  
ظل ولا ماء فأنضجهم الحر، فخرجوا هرباً إلى البرية، فبعث الله عز وجل  
سحابة فأظلتهم فوجدوا لها برداً وروحاً وريحاً طيبة، فنادى بعضهم بعضاً، فلما  
اجتمعوا تحت السحابة أهبها الله تعالى عليهم ناراً، ورجفت بهم الأرض،  
فأحترقوا كما يحترق الجراد في المقلَى، فصاروا رماداً؛ فذلك قوله: ﴿فَأَصْبَحُوا  
فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ﴾. كَأَنَّ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴿١٧٧﴾ وقوله: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ  
كَانَ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. وقيل: إن الله تعالى حبس عنهم الريح سبعة أيام،  
وسلط عليهم الحرّ حتى أخذ بأنفاسهم، ولم ينفعهم ظل ولا ماء فكانوا يدخلون  
الأسراب؛ ليتبردوا فيها فيجدوها أشدّ حرّاً من الظاهر، فهربوا إلى البرية،  
فأظلتهم سحابة وهي الظلّة، فوجدوا لها برداً ونسيماً، فأمطرت عليهم ناراً  
فأحترقوا. وقال يزيد الجُرَيْرِي: سلط الله عليهم الحرّ سبعة أيام ولياليهن ثم رفع  
لهم جبل من بعيد، فأتاه رجل فإذا تحته أنهار وعيون وشجر وماء بارد،  
فاجتمعوا كلهم تحته، فوقع عليهم الجبل وهو الظلّة. وقال قتادة: بعث الله  
شعبياً إلى أمتين: أصحاب مدين وأصحاب الأيكة فأهلك الله أصحاب الأيكة  
بالظلّة، وأما أصحاب مدين فصاح بهم جبريل صيحة فهلكوا أجمعين. ﴿إِنَّ فِي  
ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ قيل: آمن بشعيب من الفتيين تسعمائة نفر.

- [١٩٢] ﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .  
 [١٩٣] ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ .  
 [١٩٤] ﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ .  
 [١٩٥] ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ .  
 [١٩٦] ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ عاد إلى ما تقدم بيانه في أول السورة من إعراض المشركين عن القرآن. ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ ﴿نَزَلَ﴾ مخففاً قرأ نافع وأبن كثير وأبو عمرو. الباقون ﴿نَزَلَ﴾ مشدداً ﴿بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ نصباً وهو اختيار أبي حاتم وأبي عبيد لقوله؛ ﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ﴾ وهو مصدر نزل. والحجة لمن قرأ بالتخفيف أن يقول ليس هذا بمقدر؛ لأن المعنى وإن القرآن لتنزيل رب العالمين نزل به جبريل إليك؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ أي يتلوه عليك فيعيه قلبك. وقيل: ليثبت قلبك. ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ أي لئلا يقولوا لسنا نفهم ما تقول. ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ أي وإن ذكر نزوله لفِي كتب الأولين يعني الأنبياء. وقيل: أي إن ذكر محمد عليه السلام في كتب الأولين؛ كما قال تعالى: ﴿يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ والزُّبُر الكتب الواحد زُبُور كرسول ورسول؛ وقد تقدم.

- [١٩٧] ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ .  
 [١٩٨] ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ .  
 [١٩٩] ﴿فَفَرَّامُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ .  
 [٢٠٠] ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ .  
 [٢٠١] ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ .  
 [٢٠٢] ﴿فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ .  
 [٢٠٣] ﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾ .

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ قال مجاهد: يعني عبد الله بن سلام وسلمان وغيرهما من أسلم. وقال ابن عباس: بعث أهل مكة إلى اليهود وهم بالمدينة

يسألونهم عن محمد عليه السلام؛ فقالوا: إن هذا لزمانه، وإنا لنجد في التوراة نعته وصفته. فيرجع لفظ العلماء إلى كل من كان له علم بكتبهم أسلم أو لم يسلم على هذا القول. وإنما صارت شهادة أهل الكتاب حجة على المشركين؛ لأنهم كانوا يرجعون في أشياء من أمور الدين إلى أهل الكتاب؛ لأنهم مظنون بهم علم. وقرأ ابن عامر ﴿أَوْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ آيَةً﴾. الباقون ﴿أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً﴾ بالنصب على الخبر وأسم يكن ﴿أَنْ يَعْلَمَهُ﴾ والتقدير أو لم يكن لهم علم علماء بني إسرائيل الذين أسلموا آية واضحة. وعلى القراءة الأولى أسم كان ﴿آيَةً﴾ والخبر ﴿أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾. وقرأ عاصم الجحدري ﴿أَنْ تَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾. وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ أي على رجل ليس بعربي اللسان ﴿فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ﴾ بغير لغة العرب لما آمنوا ولقالوا لا نفقه. نظيره ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا﴾. الآية. وقيل: معناه ولو نزلناه على رجل ليس من العرب لما آمنوا به أنفة وكبراً. يقال: رجل أعجمي وأعجمي إذا كان غير فصيح وإن كان عربياً، ورجل عجمي وإن كان فصيحاً ينسب إلى أصله؛ إلا أن الفراء أجاز أن يقال رجل عجمي بمعنى أعجمي. وقرأ الحسن ﴿عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِيِّينَ﴾ مشددة بياءين جعله نسبة. ومن قرأ ﴿الْأَعْجَمِينَ﴾ ف قيل: إنه جمع أعجم. وفيه بعد؛ لأن ما كان من الصفات الذي مؤنثه فعلاء لا يجمع بالواو والنون، ولا بالالف والتاء؛ لا يقال أحمررون ولا حمراوات. وقيل: إن أصله الأعجمين كقراءة الجحدري ثم حذفت ياء النسب، وجعل جمعه بالياء والنون دليلاً عليها قاله أبو الفتح عثمان بن جني. وهو مذهب سيويه.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ﴾ يعني القرآن أي الكفر به ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾. لا يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴿وقيل: سلطنا التكذيب في قلوبهم؛ فذلك الذي منعهم من الإيمان قاله يحيى بن سلام. وقال عكرمة: القسوة. والمعنى متقارب وقد مضى في ﴿الحجر﴾<sup>(١)</sup>. وأجاز الفراء الجزم في ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ لأن فيه معنى الشرط والمجازاة. وزعم أن من شأن العرب إذا وضعت لا موضع كي لا في مثل هذا ربما جزمت ما بعدها وربما رفعت؛ فتقول: ربطت

الفرس لا ينفلت بالرفع والجزم؛ لأنَّ معناه إن لم أربطه ينفلت، والرفع بمعنى كيلا ينفلت وأنشد لبعض بني عُقيل:

وحتى رأينا أحسنَ الفعلِ بيننا      مُسَاكِنَةً لا يَعرِفُ الشرَّ قَارِفُ

بالرفع لما حذف كي. ومن الجزم قول الآخر:

لَطَالَمَا حَلَأْتُهَا لَا تَرِدُ      فخلَّيَاها والسَّجَالُ تَبْتَرِدُ<sup>(١)</sup>

قال النحاس: وهذا كله في ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ خطأ عند البصريين؛ ولا يجوز الجزم بلا جازم، ولا يكون شيء يعمل عملاً فإذا حذف عمل عملاً أقوى من عمله وهو موجود؛ فهذا احتجاج بَيْنَ، ﴿حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً أَي الْعَذَاب. وقرأ الحسن ﴿فَتَأْتِيهِمْ﴾ بالياء؛ والمعنى: فتأتيهم الساعة بغتة فاضمرت لدلالة العذاب الواقع فيها، وكثرة ما في القرآن من ذكرها. وقال رجل للحسن وقد قرأ ﴿فَتَأْتِيهِمْ﴾: يا أبا سعيد إنما يأتيهم العذاب بغتة. فانتهره وقال: إنما هي الساعة تأتيهم بغتة أي فجأة. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانها. ﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾ أي مؤخرون وممهلون. يطلبون الرجعة هنالك فلا يجابون إليها. قال القشيري: وقوله: ﴿فَيَأْتِيهِمْ﴾ ليس عطفا على قوله: ﴿حَتَّى يَرَوْا﴾ بل هو جواب قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فلما كان جواباً للنفي انتصب، وكذلك قوله: ﴿فَيَقُولُوا﴾.

[٢٠٤] ﴿أَفِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾.

[٢٠٥] ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾.

[٢٠٦] ﴿ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾.

[٢٠٧] ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَعُونَ﴾.

[٢٠٨] ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ﴾.

[٢٠٩] ﴿ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ قال مقاتل: قال المشركون للنبي ﷺ يا محمد إلى متى تعدنا بالعذاب ولا تأتي به! فنزلت ﴿أَفِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾. ﴿أَفَرَأَيْتَ﴾

(١) حلاها: منعها من ورود الماء. والسجال: (جمع سجل) وهي الدلو الضخمة المملوءة ماء. وتبرد: تشرب الماء لتبرد به كبدها. والبيت قاله بعض النسوة لبعض لما زرن امرأة قد تزوجت من رجل كان عاشقاً لها.

أَنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٤﴾ يعني في الدنيا والمراد أهل مكة في قول الضحاك وغيره. ﴿ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب والهلاك ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾. ﴿مَا﴾ الأولى أستفهام معناه التقرير، وهو في موضع نصب بـ ﴿أَغْنَى﴾ و ﴿مَا﴾ الثانية في موضع رفع، ويجوز أن تكون الثانية نفيًا لا موضع لها. وقيل: ﴿مَا﴾ الأولى حرف نفي، و ﴿مَا﴾ الثانية في موضع رفع بـ ﴿أَغْنَى﴾ والهاء العائدة محذوفة. والتقدير: ما أغنى عنهم الزمان الذي كانوا يمتعونه. وعن الزهري: إن عمر بن عبد العزيز كان إذا أصبح أمسك ببلحيته ثم قرأ ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ. ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ. مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ ثم يبكي ويقول:

نهارك يا مغرور سهوٌ وغفلةٌ      وليك نومٌ والرّدى لك لازمٌ  
فلا أنت في الأيقاظ يقظانٌ حازمٌ      ولا أنت في الثّوام ناجٍ فسالمٌ  
تُسّرُّ بما يَفْنَى وتفرحُ بالمنى      كما سُرَّ باللذات في النوم حالٌ  
وتسعى إلى ما سوف تكره غِبَّةٌ      كذلك في الدنيا تعيشُ البهائمُ

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾ ﴿مِنْ﴾ صلة؛ المعنى: وما أهلكنا قرية. ﴿إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ﴾ أي رسل. ﴿ذِكْرَى﴾. قال الكسائي: ﴿ذِكْرَى﴾ في موضع نصب على الحال. النحاس: وهذا لا يحصل، والقول فيه قول الفراء وأبي إسحاق أنها في موضع نصب على المصدر؛ قال الفراء: أي يذكرون ذكرى؛ وهذا قول صحيح، لأن معنى ﴿إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ﴾ إلا لها مذكرون. و ﴿ذِكْرَى﴾ لا يتبين فيه الإعراب؛ لأن فيها ألفاً مقصورة. ويجوز ﴿ذِكْرَى﴾ بالتثنية، ويجوز أن يكون ﴿ذِكْرَى﴾ في موضع رفع على إضمار مبتدأ. قال أبو إسحاق: أي إنذارنا ذكرى. وقال الفراء: أي ذلك ذكرى، وتلك ذكرى. وقال ابن الأنباري قال بعض المفسرين: ليس في ﴿الشعراء﴾ وقف تام إلا قوله: ﴿إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ﴾ وهذا عندنا وقف حسن؛ ثم يتبدى ﴿ذِكْرَى﴾ على معنى هي ذكرى أي يذكرهم ذكرى، والوقف على ﴿ذِكْرَى﴾ أجود. ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ في تعذيبهم حيث قدمنا الحجة عليهم وأعدنا إليهم.

- [٢١٠] ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ .  
 [٢١١] ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ .  
 [٢١٢] ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾ .  
 [٢١٣] ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ يعني القرآن بل ينزل به الروح الأمين. ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾. إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾ أي برمي الشهب كما مضى في سورة ﴿الحجر﴾<sup>(١)</sup> بيانه. وقرأ الحسن ومحمد بن السَّمِيعُ ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطُونُ﴾ قال المهدي: وهو غير جائز في العربية ومخالف للخط. وقال النحاس: وهذا غلط عند جميع النحويين؛ وسمعت علي بن سليمان يقول سمعت محمد بن يزيد يقول: هذا غلط عند العلماء، إنما يكون بدخول شبهة؛ لما رأى الحسن في آخره ياء ونوناً وهو في موضع رفع أشبهه عليه بالجمع المسلم فغلط، وفي الحديث: «أحذروا زلّة العالم» وقد قرأ هو مع الناس ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ ولو كان هذا بالواو في موضع رفع لوجب حذف النون للإضافة. وقال الثعلبي قال الفراء: غلط الشيخ - يعني الحسن - فقليل ذلك للنضر بن شُمَيْل فقال: إن جاز أن يحتج بقول رؤية والمعجاج وذويهما جاز أن يحتج بقول الحسن وصاحبه مع أنا نعلم أنهما لم يقرأ بذلك إلا وقد سمعا في ذلك شيئاً؛ وقال المؤرّج: إن كان الشيطان من شاط يشيط كان لقراءتهما وجه. وقال يونس بن حبيب: سمعت أعرابياً يقول دخلنا بساتين من ورائها بساتون؛ فقلت: ما أشبه هذا بقراءة الحسن.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾ قيل: المعنى قل لمن كفر هذا. وقيل: هو مخاطبة له عليه السلام وإن كان لا يفعل هذا؛ لأنه معصوم مختار ولكنه خوطب بهذا والمقصود غيره. ودل على هذا قوله: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ أي لا يتكلمون على نسبهم وقرباتهم فيدعون ما يجب عليهم.

(١) راجع ١٠/١٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

- [٢١٤] ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ ﴿٢١٤﴾ .  
 [٢١٥] ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢١٥﴾ .  
 [٢١٦] ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٢١٦﴾ .  
 [٢١٧] ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿٢١٧﴾ .  
 [٢١٨] ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ ﴿٢١٨﴾ .  
 [٢١٩] ﴿وَتَقَلُّبِكَ فِي السَّجْدِينَ﴾ ﴿٢١٩﴾ .  
 [٢٢٠] ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٢٢٠﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ فيه مسألتان:

الأولى - قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ خصّ عشيرته الأقربين بالإنذار؛ لتنحسم أطماع سائر عشيرته وأطماع الأجانب في مفارقتها إياهم على الشُّرك. وعشيرته الأقربون قريش. وقيل: بنو عبد مناف. ووقع في «صحيح مسلم»: «وأنذر عشيرتك الأقربين ورهطك منهم المخلصين». وظاهر هذا أنه كان قرآنًا يتلى وأنه نسخ؛ إذ لم يثبت نقله في المصحف ولا تواتر. ويلزم على ثبوته إشكال؛ وهو أنه كان يلزم عليه ألا ينذر إلا من آمن من عشيرته؛ فإن المؤمنين هم الذين يوصفون بالإخلاص في دين الإسلام وفي حب النبي ﷺ لا المشركون؛ لأنهم ليسوا على شيء من ذلك، والنبي ﷺ دعا عشيرته كلهم مؤمنهم وكافرهم، وأنذر جميعهم ومن معهم ومن يأتي بعدهم ﷺ؛ فلم يثبت ذلك نقلاً ولا معنى. وروى مسلم من حديث أبي هريرة قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشاً فأجتمعوا فعمّ وخصّ فقال: «يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار يا بني مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار يا فاطمة أنقذي نفسك من النار فإني لا أملك لكم من الله شيئاً غير أن لكم رَحِمًا سَابَّهَا بِلَالُهَا»<sup>(١)</sup>.

(١) «سابلها بِلَالُهَا»: أي أصلكم في الدنيا ولا أغني عنكم من الله شيئاً.

الثانية - في هذا الحديث والآية دليل على أن القرب في الأنساب لا ينفع مع البعد في الأسباب، ودليل على جواز صلة المؤمن الكافر وإرشاده ونصيحته؛ لقوله: «إِنْ لَكُمْ رَحِمًا سَابِلُهَا بِلَالُهَا» وقوله عز وجل: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ الآية، على ما يأتي بيانه هناك.

قوله تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ تقدم في سورة «الحجر» و «سبحان» يقال: خفض جناحه إذا لَانَ. ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ أي خالفوا أمرك. ﴿فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي برىء من معصيتكم إياي؛ لأن عصيانهم إياه عصيان لله عز وجل؛ لأنه عليه السلام لا يأمر إلا بما يرضاه، ومن تبرأ منه فقد تبرأ الله منه.

قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ أي فوض أمرك إليه فإنه العزيز الذي لا يغالب، الرحيم الذي لا يخذل أوليائه. وقرأ العامة ﴿وَتَوَكَّلْ﴾ بالواو وكذلك هو في مصاحفهم.

وقرأ نافع وأبن عامر ﴿فَتَوَكَّلْ﴾ بالفاء وكذلك هو في مصاحف المدينة والشام. ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي حين تقوم إلى الصلاة في قول أكثر المفسرين: ابن عباس وغيره. وقال مجاهد: يعني حين تقوم حيثما كنت. ﴿وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ قال مجاهد وقتادة: في المصلين. وقال ابن عباس: أي في أصلاب الآباء آدم ونوح وإبراهيم حتى أخرجه نبياً. وقال عكرمة: يراك قائماً وراكعاً وساجداً؛ وقاله ابن عباس أيضاً. وقيل: المعنى؛ إنك ترى بقلبك في صلاتك من خلفك كما ترى بعينيك من قدامك. وروي عن مجاهد؛ ذكره الماوردي والثعلبي. وكان عليه السلام يرى من خلفه كما يرى من بين يديه، وذلك ثابت في الصحيح وفي تأويل الآية بعيد. ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ تقدم.

[٢٢١] ﴿هَلْ أَتَيْتُكُمْ عَلَىٰ مَن نَّزَّلُ الشَّيْطَانُ﴾.

[٢٢٢] ﴿نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾.

[٢٢٣] ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَذِبُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ. تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ إنما قال: ﴿تَنَزَّلُ﴾ لأنها أكثر ما تكون في الهواء، وأنها تمر من الريح. ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ تقدم في ﴿الحجر﴾. فـ ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾ صفة الشياطين ﴿وَأَكْثُرُهُمْ﴾ يرجع إلى الكهنة. وقيل: إلى الشياطين.

[٢٢٤] ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾.

[٢٢٥] ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾.

[٢٢٦] ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾.

[٢٢٧] ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسِعَعُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ فيه ست مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ﴾ جمع شاعر مثل جاهل وجهلاء؛ قال ابن عباس: هم الكفار ﴿يَتَّبِعُهُمُ﴾ ضلال الجن والإنس. وقيل: ﴿الْغَاوُونَ﴾ الزائلون عن الحق، ودل بهذا أن الشعراء أيضاً غاؤون؛ لأنهم لو لم يكونوا غاوين ما كان أتباعهم كذلك. وقد قدمنا في سورة ﴿النور﴾<sup>(١)</sup> أن من الشعر ما يجوز إنشاده، ويكره، ويحرم. روى مسلم من حديث عمرو بن الشريد عن أبيه قال: ردت رسول الله ﷺ [يوماً]<sup>(٢)</sup> فقال: «هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء؟» قلت: نعم. قال: «هيه» فأنشدته بيتاً. فقال: «هيه» ثم أنشدته بيتاً. فقال: «هيه» حتى أنشدته مائة بيت. هكذا صواب هذا السند وصحيح روايته. وقد وقع لبعض رواة كتاب مسلم: عن عمرو بن الشريد عن الشريد أبيه؛ وهو وهم؛ لأن الشريد هو الذي أرفده رسول الله ﷺ. وأسم أبي الشريد سويد. وفي هذا دليل على حفظ الأشعار والاعتناء بها إذا تضمنت الحكم والمعاني المستحسنة شرعاً وطبعاً، وإنما أستكثر النبي ﷺ من شعر أمية؛ لأنه

(١) راجع ٢٧١/١٢ طبعة أولى أو ثانية.

(٢) الزيادة من «صحيح مسلم».

كان حكيماً؛ ألا ترى قوله عليه السلام: «وكاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم» فأما ما تضمن ذكر الله وحمده والثناء عليه فذلك مندوب إليه؛ كقول القائل:

الحمد لله العليّ المثنان صار الثريد في رؤوس العيدان<sup>(١)</sup>

أو ذكر رسول الله ﷺ أو مدحه كقول العباس:

من قبلها طبت في الظلال وفي مُنًى  
ثم هبطت البلاد لا بشر أن  
بل نطفة تركب السفين وقد أل  
تنقل من صالب إلى رحيم  
تودع حيث يُخَصَفُ الورق  
ست ولا مُضغّة ولا عَلَقُ  
جَم نَسراً وأهله الغرق  
إذا مَضَى عالمٌ بدا طَبَقُ<sup>(٢)</sup>

فقال له النبي ﷺ: «لا يَفْضُصُ الله فاك». أو الذب عنه كقول حسان:

هجوتَ محمداً فأجبتُ عنه وعند الله في ذاك الجزاء

وهي أبيات ذكرها مسلم في صحيحه وهي في السير أتم. أو الصلاة عليه؛ كما روى زيد بن أسلم؛ خرج عمر ليلة يحرس فرأى مصباحاً في بيت، وإذا عجوز تنفث صوفاً وتقول:

على محمد صلاة الأبرار  
قد كنت قواماً بكأ بالأسحار  
صلى عليه الطيِّبون الأخيار  
يا ليت شِعري والمنايا أطوار  
هل يَجْمَعُنِي وَحْيِي الدار

يعني النبي ﷺ؛ فجلس عمر يبكي. وكذلك ذكر أصحابه ومدحهم رضي الله عنهم؛ ولقد أحسن محمد بن سابق حيث قال:

إنِّي رَضِيتُ عَلِيًّا لِلْهُدَى عِلْماً  
وقد رَضِيتُ أبا حفص وشيعته  
كلُّ الصحابة عندي قُدوةٌ عَلَمٌ  
إن كنت تعلم أنِّي لا أُحِبُّهُمْ  
كما رَضِيتُ عَتِيقاً صَاحِبَ الْغَارِ  
وما رَضِيتُ بقتل الشيخ في الدارِ  
فهل عليّ بهذا القول من عارٍ  
إلا من أجلك فاعتقني من النار

(١) كذا في «الأصول». (٢) طبق: قرن. أراد إذا مضى قرن ظهر قرن آخر.

وقال آخر فأحسن:

حُبُّ النبيِّ رسولِ الله مُفْتَرَضٌ	وَحُبُّ أصحابِهِ نورٌ بِيْرهَانٍ
مَنْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ اللهَ خَالِقَهُ	لَا يَرمِيَنَّ أبَا بَكْرٍ بِيَهْتَانٍ
وَلَا أَبَا حَفْصٍ الْفَارُوقَ صَاحِبَهُ	وَلَا الْخَلِيفَةَ عُثْمَانَ بْنَ عَفَانٍ
أَمَا عَلَيَّ فَمَشْهُورٌ فَضَائِلُهُ	وَالْبَيْتَ لَا يَسْتَوِي إِلَّا بِأَرْكَانٍ

قال ابن العربي: أما الاستعارات في التشبيهات فمأذون فيها وإن أسترقت الحد وتجاوزت المعتاد: فبذلك يضرب الملك الموكل بالرؤيا المثل، وقد أنشد كعب بن زهير النبي ﷺ:

بَانَتْ سَعَادُ قَلْبِي الْيَوْمَ مَتْبُولٌ	مُتَيِّمٌ إِنْ رَهَا لَمْ يُقَدَّ مَكْبُولٌ
وَمَا سَعَادُ غَدَاةِ الْيَتْنِ إِذْ رَحَلُوا	إِلَّا أَغْنُ غَضِيضُ الطَّرْفِ مَكْحُولٌ
تَجَلَّبَوْ عَوَارِضَ ذِي ظَلَمٍ إِذَا ابْتَسَمَتْ	كَأَنَّهُ مُنْهَلٌ بِالرَّاحِ مَغْلُولٌ

فجاء في هذه القصيدة من الاستعارات والتشبيهات بكل بديع، والنبي ﷺ يسمع ولا ينكر في تشبيهه ريقها بالراح. وأنشد أبو بكر رضي الله عنه<sup>(١)</sup>:

فَقَدْنَا الْوَحْيَ إِذْ وَلَّيْتَ عَنَّا	وَوَدَّعْنَا مَنْسَ اللهِ الْكَلَامُ
سَوَى مَا قَدْ تَرَكْتَ لَنَا رَهِينًا	تَوَارَثَهُ الْقَرَّاطِيْسُ الْكَرَامُ
فَقَدْ أَوْرَثْنَا مِيرَاثَ صَدَقٍ	عَلَيْكَ بِهِ التَّحِيَّةُ وَالسَّلَامُ

فإذا كان رسول الله ﷺ يسمعه وأبو بكر ينشده، فهل للتقليد والافتداء موضع أرفع من هذا. قال أبو عمر: ولا ينكر الحسن من الشعر أخذ من أهل العلم ولا من أولي النهى، وليس أحد من كبار الصحابة وأهل العلم وموضع القدوة إلا وقد قال الشعر، أو تمثل به أو سمعه فرضيه ما كان حكمة أو مباحاً، ولم يكن فيه فحش ولا خنا ولا لمسلم أذى، فإذا كان كذلك فهو والمشور من القول سواء لا يحل سماعه ولا قوله؛ وروى أبو هريرة قال

(١) قال ذلك في رثاء النبي ﷺ.

سمعت رسول الله ﷺ على المنبر يقول: «أصدق كلمة - أو أشعر كلمة - قالتها العرب قول لبيد:

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ»

أخرجه مسلم وزاد «وكاد أمية بن أبي الصلت أن يُسلم» وروي عن ابن سيرين أنه أنشد شعراً فقال له بعض جلسائه: مثلك ينشد الشعر يا أبا بكر. فقال: ويلك يا لكع! وهل الشعر إلا كلام لا يخالف سائر الكلام إلا في القوافي، فحسنه حسن وقبيحه قبيح! قال: وقد كانوا يتذكرون الشعر. قال: وسمعت ابن عمر ينشد:

يُحِبُّ الخمرَ من مال النَّدامَى ويكره أن يفارقه الغُلوسُ

وكان عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أحد فقهاء المدينة العشرة ثم المشيخة السبعة شاعراً مجيداً مقدماً فيه. وللزبير بن بكار القاضي في أشعاره كتاب، وكانت له زوجة حسنة تسمى عثمة فعتب عليها في بعض الأمر فطلقها، وله فيها أشعار كثيرة؛ منها قوله:

تَغْلُغَلْ حُبَّ عَثْمَةَ فِي فَوَادِي	فبأديه مع الخافي يسيرُ
تَغْلُغَلْ حَيْثُ لَمْ يَبْلُغْ شَرَابٌ	ولا حزنٌ ولم يبلغ سرورُ
أَكَادَ إِذَا ذَكَرْتُ الْعَهْدَ مِنْهَا	أطير لو أن إنساناً يطيرُ

وقال ابن شهاب: قلت له تقول الشعر في نسكك وفضلك! فقال: إن المصدور إذا نفث براً.

الثانية - وأما الشعر المذموم الذي لا يحل سماعه وصاحبه ملوم، فهو المتكلم بالباطل حتى يفضلوا أجبن الناس على عنترة، وأشجعهم على حاتم، وأن يبهتوا البريء ويفسقوا التقى، وأن يفرطوا في القول بما لم يفعله المرء؛ رغبة في تسليية النفس وتحسين القول؛ كما روي عن الفرزدق أن سليمان بن عبد الملك سمع قوله:

فَبِشْنِ بَجَانِبِي مُصَرَّعَاتٍ<sup>(١)</sup> وَبِئْتُ أَفْضُرُّ أَغْلَاقَ الْخِتَامِ

فقال: قد وجب عليك الحد. فقال: يا أمير المؤمنين قد درأ الله عني الحد بقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾. وروي أن النعمان بن عدي بن نضلة كان عاملاً لعمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال:

مَنْ مُبْلِغُ الْحَسَنَاءِ أَنْ حَلِيلَهَا	بِمَيْسَانَ يُسْقَى فِي زُجَاجٍ وَحَتِّمٍ
إِذَا شِئْتُ غَتَّنِي دَهَاقِينُ قَرِيبَةٍ	وَرَقَاصَةٌ تَجْذُو <sup>(١)</sup> عَلَى كُلِّ مَنَسِمٍ
فَإِنْ كُنْتُ نَذْمَانِي فَبِالْأَكْبَرِ أَسْقِي	وَلَا تَسْقِنِي بِالصَّغِيرِ الْمُتَمَلِّمِ
لَعَلَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَسُوَّهُ	تَنَادَمْنَا بِالْجَوْسِقِ <sup>(٢)</sup> الْمُتَهَدِّمِ

فبلغ ذلك عمر فأرسل إليه بالقدوم عليه. وقال: إي والله إني ليسوءني ذلك. فقال: يا أمير المؤمنين ما فعلت شيئاً مما قلت؛ وإنما كانت فضلة من القول، وقد قال الله تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ. أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ. وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ فقال له عمر: أما عذرک فقد درأ عنک الحد؛ ولكن لا تعمل لي عملاً أبداً وقد قلت ما قلت. وذكر الزبير بن بكار قال: حدثني مصعب بن عثمان أن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة لم يكن له همٌّ إلا عمر بن أبي ربيعة والأحوص فكتب إلى عامله على المدينة: إني قد عرفت عمر والأحوص بالشر والخبث فإذا أتاك كتابي هذا فأشدد عليهما وأحملهما إلي. فلما أتاه الكتاب حملهما إليه، فأقبل على عمر؛ فقال: هيه!

فَلَمْ أَرَ كَالْتَّجْمِيرِ مَنْظَرَ نَاطِرٍ	وَلَا كَلِيَالِي الْحِجِّ أَفْلَتَنَ ذَا هَوًى
وَكَمْ مَالِي عَيْنِيهِ مِنْ شَيْءٍ غَيْرِهِ	إِذَا رَاحَ نَحْوَ الْجَمْرَةِ الْبَيْضِ كَالدُّمَى

أما والله لو أهتممت بحجك لم تنظر إلى شيء غيرك؛ فإذا لم يفلت الناس منك في هذه الأيام فمتى يفلتون! ثم أمر بنفيه. فقال: يا أمير المؤمنين! أو خير من ذلك؟ فقال: ما هو؟ قال: أعاهد الله أني لا أعود إلى مثل هذا الشعر، ولا أذكر النساء في شعر أبداً، وأجدد توبة؛ فقال: أو تفعل؟ قال: نعم؛ فعاهد الله على توبته وخلاه؛ ثم دعا بالأحوص، فقال هيه!

اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَ قِيَمِهَا	يَقِرُّ مَنِّي بِهَا وَأَتْبِعُ
------------------------------------	---------------------------------

(٢) الجوسق: القصر؛ فارسي معرب.

(١) تجذو: تقوم على أطراف الأصابع.

بل الله بين قيمها وبينك ! ثم أمر بنفيه ؛ فكلمه فيه رجال من الأنصار فأبى ، وقال : والله لا أردّه ما كان لي سلطان ، فإنه فاسق مجاهر . فهذا حكم الشعر المذموم وحكم صاحبه ، فلا يحل سماعه ولا إنشاده في مسجد وفي غيره ، كمنثور الكلام القبيح ونحوه . وروى إسماعيل بن عيَّاش عن عبد الله بن عون عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « حَسَنُ الشعر كحَسَنِ الكلام وقبيحه كقبيح الكلام » رواه إسماعيل عن عبد الله الشامي وحديثه عن أهل الشام صحيح فيما قال يحيى بن معين وغيره . وروى عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله ﷺ : « الشعر بمنزلة الكلام حسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام » .

الثالثة - روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «لأنَّ يمتلئ جوفُ أحدكم قبحاً حتى يَرِيهَ خيرٌ من أن يمتلئ شعراً» وفي «الصحيح» أيضاً عن أبي سعيد الخدري قال : بينا نحن نسير مع رسول الله ﷺ إذ عرض شاعر يُشدد فقال رسول الله ﷺ : «خذوا الشيطان - أو أمسكوا الشيطان - لأنَّ يمتلئ جوفُ رجلٍ قبحاً خيرٌ له من أن يمتلئ شعراً» قال علماؤنا : وإنما فعل النبي ﷺ هذا مع هذا الشاعر لما علم من حاله ؛ فلعل هذا الشاعر كان ممن قد عرف من حاله أنه قد اتخذ الشعر طريقاً للتكسب ، فيفرط في المدح إذا أُعطي ، وفي الهجو والذم إذا مُنع ، فيؤذي الناس في أموالهم وأعراضهم . ولا خلاف في أن من كان على مثل هذه الحالة فكل ما يكتسبه بالشعر حرام . وكل ما يقوله من ذلك حرام عليه ، ولا يحل الإصغاء إليه ؛ بل يجب الإنكار عليه ؛ فإن لم يمكن ذلك لمن خاف من لسانه قطعاً تعين عليه أن يداريه بما أستطاع ، ويدافعه بما أمكن ، ولا يحل له أن يعطي شيئاً ابتداء ، لأن ذلك عون على المعصية ؛ فإن لم يجد من ذلك بدءاً أعطاه بنية وقاية العرض ؛ فما وَقَى به المرءُ عرضه كُتِبَ له به صدقة . قوله : «لأنَّ يمتلئ جوفُ أحدكم قبحاً حتى يَرِيهَ القبيح المِدَّة يخالطها دم . يقال منه : قاح الجُرْح يَتَقَيح وتَقَيح وقَيح . و«يريه» قال الأصمعي : هو من الوزِي على

مثال الرمي وهو أن يَذْوَى جوفه، يقال منه: رجل مَوْرِيّ مشدّد غير مهموز. وفي «الصحيح»: وَرَى القَيْحُ جوفه يَرِيه ورِيّاً إذا أكله. وأنشد البيهقي:

قَالَتْ لَهُ وَزِيّاً إِذَا تَنَحَّنَا

وهذا الحديث أحسن ما قيل في تأويله: إنه الذي قد غلب عليه الشعر، وأمتلاً صدره منه دون علم سواء ولا شيء من الذكر ممن يخوض به في الباطل، ويسلك به مسالك لا تحمد له، كالمكثر من اللفظ والهذر والغيبة وقبيح القول. ومن كان الغالب عليه الشعر لزمته هذه الأوصاف المذمومة الدنية، لحكم العادة الأدبية. وهذا المعنى هو الذي أشار إليه البخاري في «صحيحه» لما بَوَّبَ على هذا الحديث «باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر». وقد قيل في تأويله: إن المراد بذلك الشعر الذي هُجِيَ به النبي ﷺ أو غيره. وهذا ليس بشيء؛ لأن القليل من هجو النبي ﷺ وكثيره سواء في أنه كفر ومذموم، وكذلك هجو غير النبي ﷺ من المسلمين محرّم قليله وكثيره، وحينئذ لا يكون لتخصيص الذم بالكثير معنى.

الرابعة - قال الشافعي: الشعر نوع من الكلام حسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام، يعني أن الشعر ليس يكره لذاته وإنما يكره لمضمّناته، وقد كان عند العرب عظيم الموقع. قال الأول منهم:

وَجُرِحَ اللِّسَانُ كَجُرْحِ الْيَدِ

وقال النبي ﷺ في الشعر الذي يرّد به حسان على المشركين: «إنه لأسرع فيهم من رَشَقِ النَّبْلِ» أخرجه مسلم. وروى الترمذي وصححه عن ابن عباس أن النبي ﷺ دخل مكة في عمرة القضاء وعبد الله بن رَوَاحَةَ يمشي بين يديه ويقول:

خَلُّوا بَنِي الْكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ      الْيَوْمَ نَضْرِبُكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ  
ضَرْباً يَزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ      وَيُذْهِلُ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ

فقال عمر: يا ابن رَوَاحَةَ! في حرم الله وبين يدي رسول الله ﷺ! فقال رسول الله ﷺ: «خَلُّ عَنْهُ يَا عُمَرُ فَلَهُوَ أَسْرَعُ فِيهِمْ مِنْ نَضْحِ النَّبْلِ».

الخامسة - قوله تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ لم يختلف القراء في رفع ﴿وَالشُّعْرَاءُ﴾ فيما علمت. ويجوز النصب على إضمار فعل يفسره ﴿يَتَّبِعُهُمُ﴾ وبه قرأ عيسى بن عمر؛ قال أبو عبيد: كان الغالب عليه حب النصب؛ قرأ ﴿وَالسَّارِقَ وَالسَّارِقَةَ﴾ و ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ و ﴿سُورَةَ أَنْزَلْنَاهَا﴾. وقرأ نافع وشيبة والحسن والسلمي ﴿يَتَّبِعُهُمُ﴾ مخففاً. الباقون ﴿يَتَّبِعُهُمُ﴾ وقال الضحاك: تهاجى رجلان أحدهما أنصاري والآخر مهاجري على عهد رسول الله ﷺ مع كل واحد غواة قومه وهم السفهاء فنزلت؛ وقاله ابن عباس. وعنه هم الرواة للشعر. وروى عنه علي بن أبي طلحة أنهم هم الكفار يتبعهم ضلال الجن والإنس؛ وقد ذكرناه. وروى غُضَيْفٌ<sup>(١)</sup> عن النبي ﷺ: «من أحدث هجاء في الإسلام فاقطعوا لسانه» وعن ابن عباس أن النبي ﷺ لما أفتتح مكة رَنَ<sup>(٢)</sup> إبليس رنة وجمع إليه ذريته؛ فقال أيسوا أن تريدوا أمة محمد على الشرك بعد يومكم هذا؛ ولكن أفشوا فيهما - يعني مكة والمدينة - الشعر.

السادسة - قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ إِدٍ يَهِيمُونَ﴾ يقول: في كل لغو يخوضون، ولا يتبعون سَنَنَ الحق؛ لأن من أتبع الحق وعلم أنه يكتب عليه ما يقوله تثبت، ولم يكن هاهنا يذهب على وجهه لا يبالي ما قال. نزلت في عبد الله بن الزبيري ومُسَافِع بن عبد مناف وأمّية بن أبي الصلت. ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ يقول: أكثرهم يكذبون؛ أي يدلون بكلامهم على الكرم والخير ولا يفعلونه. وقيل: إنها نزلت في أبي عزة الجُمَحِيّ حيث قال:

أَلَا أبلغا عني النبيّ محمداً      بأئكَ حقّ والمليك حميدُ  
ولكن إذا دُكرتُ بذراً وأهلُهُ      تَأوّه منّي أعظم وجلودُ

ثم أستثنى شعر المؤمنين: حسان بن ثابت وعبد الله بن رَوَاحَة وكعب بن مالك وكعب بن زهير ومن كان على طريقهم من القول الحق؛ فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ في كلامهم ﴿وَأَنْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ وإنما يكون الانتصار بالحق،

(١) في نسخة: خصيف.

(٢) رن: صاح صيحة حزينة.

ومما حده الله عز وجل، فإن تجاوز ذلك فقد أنتصر بالباطل. وقال أبو الحسن المبرد: لما نزلت ﴿وَالشُّعْرَاءُ﴾ جاء حسان وكعب بن مالك وابن رَوَاحَةَ يَبْكُون إلى النبي ﷺ؛ فقالوا: يا نبي الله! أنزل الله تعالى هذه الآية، وهو تعالى يعلم أنا شعراء؟ فقال: «أَقْرءُوا ما بعدها ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ - الآية - أنتم ﴿وَأَنْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ أنتم» أي بالرد على المشركين. قال النبي ﷺ: «انْتَصِرُوا وَلَا تَقُولُوا إِلَّا حَقًّا وَلَا تَذْكُرُوا الْآبَاءَ وَالْأُمَهَاتِ» فقال حسان لأبي سفيان:

هجوتَ محمداً فأجبتُ عنه	وعندَ الله في ذاك الجزاءُ
وإنَّ أبي ووالدتي وعِرضي	لِعِرضِ محمدٍ منكم وقاءُ
أشتمه ولسْتُ له بكفٍ	فشركما لخيركما الفداءُ
لساني صارمٌ لا عيبَ فيه	ويحري لا تُكذِّره الدُّلاءُ

وقال كعب يا رسول الله! إن الله قد أنزل في الشعر ما قد علمت فكيف ترى فيه؟ فقال النبي ﷺ: «إن المؤمن يجاهد بنفسه وسيفه ولسانه والذي نفسي بيده لكان ما ترمونهم به نضح الثَّبل». وقال كعب:

جاءت سَخِينَةٌ<sup>(١)</sup> كي تُغالبَ ربَّها      وليُغلبَنَّ مُغالبُ الغَلابِ

فقال النبي ﷺ: «لقد مدحك الله يا كعب في قولك هذا». وروى الضحاك عن ابن عباس أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ منسوخ بقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾. قال المهدوي: وفي «الصحيح» عن ابن عباس أنه استثناء. «وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ» في هذا تهديد لمن أنتصر بظلم [أي]<sup>(٢)</sup> سيعلم الظالمون كيف يخلصون من بين يدي الله عز وجل؛ فالظالم ينتظر العقاب، والمظلوم ينتظر النصرة. وقرأ ابن عباس ﴿أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ بالفاء والتاء ومعناها واحد. الثعلبي: ومعنى ﴿أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ أي مصير يصيرون وأي مرجع يرجعون؛ لأن مصيرهم إلى

(١) السخينة: طعام حار يتخذ من دقيق وسمن - وقيل من دقيق وتمر - أغلظ من الحساء وأرق من العصيدة، وكانت قريش تكثر من أكلها فعبرت بها حتى سموها سخينة. (٢) زيادة يقتضيها السياق.

النار، وهو أقبح مصير، ومرجعهم إلى العقاب وهو شر مرجع. والفرق بين المنقلب والمرجع أن المنقلب الانتقال إلى ضد ما هو فيه، والمرجع العود من حال هو فيها إلى حال كان عليها فصار كل مرجع منقلباً، وليس كل منقلب مرجعاً؛ والله أعلم؛ ذكره الماوردي. و﴿أَيَّ﴾ منصوب بـ ﴿يَنْقَلِبُونَ﴾ وهو بمعنى المصدر، ولا يجوز أن يكون منصوباً بـ ﴿سَيَعْلَمُ﴾ لأن أياً وسائر أسماء الاستفهام لا يعمل فيها ما قبلها فيما ذكر النحويون؛ قال النحاس: وحقيقة القول في ذلك أن الاستفهام معنى وما قبله معنى آخر فلو عمل فيه ما قبله لدخل بعض المعاني في بعض.

### سورة النمل

مكية كلها في قول الجميع، وهي ثلاث وتسعون آية وقيل: أربع وتسعون آية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- [١] ﴿طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾.
- [٢] ﴿هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.
- [٣] ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.
- [٤] ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾.
- [٥] ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسُونَ﴾.
- [٦] ﴿وَإِنَّكَ لَلنَّاقِی الْقُرْآنَاتِ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ مضى الكلام في الحروف المقطعة في «البقرة» وغيرها. و﴿تِلْكَ﴾ بمعنى هذه؛ أي هذه السورة آيات القرآن وآيات كتاب مبين. وذكر القرآن بلفظ المعرفة، وقال: ﴿وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ بلفظ النكرة وهما في معنى المعرفة؛ كما تقول: فلان رجل عاقل وفلان الرجل العاقل. والكتاب هو القرآن، فجمع له بين الصفتين: بأنه قرآن وأنه كتاب؛ لأنه ما يظهر بالكتاب، ويظهر بالقراءة. وقد مضى





فمحال أن يضم الشيء إلى نفسه، وإنما يضاف الشيء إلى الشيء ليتبين به معنى الملك أو النوع، فمحال أن يتبين أنه مالك نفسه أو من نوعها. و ﴿شِهَابٍ قَبَسٍ﴾ إضافة النوع والجنس، كما تقول: هذا ثوبٌ خزٌّ، وخاتمٌ حديدٌ وشبهه. والشهاب كل ذي نور؛ نحو الكوكب والعود الموقد. والقَبَسُ أَسَمٌ لما يقتبس من جمر وما أشبهه؛ فالمعنى بشهاب من قبس. يقال: أقبست قبساً؛ والاسم قبس. كما تقول: قبضت قبضاً. والاسم القبض. ومن قرأ ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ جعله بدلاً منه. المهدوي: أو صفة له؛ لأن القبس يجوز أن يكون اسماً غير صفة، ويجوز أن يكون صفة؛ فأما كونه غير صفة فلأنهم قالوا قبسته أقبسه قبساً والقبس المقبوس؛ وإذا كان صفة فالأحسن أن يكون نعتاً. والإضافة فيه إذا كان غير صفة أحسن. وهي إضافة النوع إلى جنسه كخاتم فضة وشبهه. ولو قرئ بنصب قبس على البيان أو الحال كان أحسن. ويجوز في غير القرآن بشهابٍ قبساً على أنه مصدر أو بيان أو حال. ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أصل الطاء تاء فأبدل منها هنا طاء؛ لأن الطاء مطبقة والصاد مطبقة فكان الجمع بينهما حسناً، ومعناه يستدفنون من البرد. يقال: أصطلى يصطلي إذا أستدفأ. قال الشاعر:

النارُ فاكهةُ الشتاءِ فمن يُرْدُ      أكلَ الفواكِه شاتياً فليصطلي

الزجاج: كل أبيض ذي نور فهو شهاب. أبو عبيدة: الشهاب النار. قال أبو النجم:

كأنما كان شهاباً واقداً      أضواء ضوءاً ثم صار خامداً

أحمد بن يحيى: أصل الشهاب عود في أحد طرفيه جمرة والآخر لا نار فيه؛ وقول النحاس فيه حسن: والشهاب الشعاع المضيء ومنه الكوكب الذي يمد ضوءه في السماء. وقال الشاعر:

في كفه صَعْدَةٌ<sup>(١)</sup> مثقفةٌ      فيها سِنَانٌ كشغلةِ القَبَسِ

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا﴾ أي فلما جاء موسى الذي ظن أنه نار وهي نور؛ قاله وهب بن منبه. فلما رأى موسى النار وقف قريباً منها، فرآها تخرج من فرع شجرة خضراء شديدة الخضرة يقال لها العُلَيْقُ، لا تزداد النار إلا عظماً وتضرماً، ولا تزداد الشجرة

(١) الصعدة: القناة التي تنبت مستقيمة.

إلا خضرة وحسناً؛ فعجب منها وأهوى إليها بضغت في يده ليقبس منها؛ فمالت إليه؛ فخافها فتأخر عنها؛ ثم لم تزل تطمعه ويطمع فيها إلى أن وضع أمرها على أنها مأمورة لا يدري من أمرها، إلى أن ﴿نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾. وقد مضى هذا المعنى في ﴿طه﴾ ﴿نُودِيَ﴾ أي ناداه الله؛ كما قال: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾. ﴿أَنْ بُورِكَ﴾ قال الزجاج: ﴿أَنْ﴾ في موضع نصب؛ أي بأنه. قال: ويجوز أن تكون في موضع رفع جعلها أسم ما لم يسم فاعله. وحكى أبو حاتم أن في قراءة أبيّ وأبن عباس ومجاهد ﴿أَنْ بُورِكَ﴾ أن بوركت النار ومن حولها. قال النحاس: ومثل هذا لا يوجد بإسناد صحيح، ولو صح لكان على التفسير، فتكون البركة راجعة إلى النار ومن حولها الملائكة وموسى. وحكى الكسائي عن العرب: باركك الله، وباركك فيك. الثعلبي: العرب تقول باركك الله، وبارك فيك، وبارك عليك، وبارك لك، أربع لغات. قال الشاعر:

فبوركت مولوداً وبوركت ناشئاً      وبوركت عند الشيب إذ أنت أشيب

الطبري: قال ﴿بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ﴾ ولم يقل بورك [في من في] <sup>(١)</sup> النار على لغة من يقول باركك الله. ويقال باركه الله، وبارك له، وبارك عليه، وبارك فيه بمعنى؛ أي بورك على من في النار وهو موسى، أو على من في قرب النار؛ لا أنه كان في وسطها. وقال السدي: كان في النار ملائكة فالتبريك عائد إلى موسى والملائكة؛ أي بورك فيك يا موسى وفي الملائكة الذين هم حولها. وهذا تحية من الله تعالى لموسى وتكرمة له، كما حيّا إبراهيم على السنة الملائكة حين دخلوا عليه؛ قال: رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ. وقول ثالث قاله ابن عباس والحسن وسعيد بن جبیر: قُدَّسَ مَنْ فِي النَّارِ وهو الله سبحانه وتعالى، عنى به نفسه تقدس وتعالى. قال ابن عباس ومحمد بن كعب: النار نور الله عز وجل؛ نادى الله موسى وهو في النور؛ وتأويل هذا أن موسى عليه السلام رأى نوراً عظيماً فظنه ناراً؛ وهذا لأن الله تعالى ظهر لموسى بآياته وكلامه من النار لا أنه يتحيز في جهة ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾

(١) الزيادة من تفسير الطبري.

لا أنه يتحيز فيهما، ولكن يظهر في كل فعل فيعلم به وجود الفاعل. وقيل على هذا: أي بورك من في النار سلطانه وقدرته. وقيل: أي بورك ما في النار من أمر الله تعالى الذي جعله علامة.

قلت: ومما يدل على صحة قول ابن عباس ما خرّجه مسلم في «صحيحه»، وأبن ماجه في «سننه» واللفظ له عن أبي موسى قال قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض<sup>(١)</sup> القسط ويرفعه حجاب النور لو كشفها لأحرقت سُبحات وجهه كل شيء أدركه بصره» ثم قرأ أبو عبيدة ﴿أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أخرجه البيهقي أيضاً. ولفظ مسلم عن أبي موسى قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات؛ فقال: «إن الله عز وجل لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه يُرفَعُ إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل حجاب النور - وفي رواية أبي بكر النار - لو كشفه لأحرقت سُبحات وجهه ما أنتهى إليه بصره من خلقه» قال أبو عبيد: يقال السُّبحات إنها جلال وجهه، ومنها قيل: سبحان الله إنما هو تعظيم له وتنزيه. وقوله: «لو كشفها» يعني لو رفع الحجاب عن أعينهم ولم يشتهم لرؤيته لاحترقوا وما أستطاعوا لها. قال ابن جريج: النار حجاب من الحجب وهي سبعة حجب؛ حجاب العزة، وحجاب الملك، وحجاب السلطان، وحجاب النار، وحجاب الثور، وحجاب الغمام، وحجاب الماء. وبالْحَقِيقَةُ فالمخلوق المحجوب والله لا يحجبه شيء؛ فكانت النار نوراً وإنما ذكره بلفظ النار؛ لأن موسى حسبه ناراً، والعرب تضع أحدهما موضع الآخر. وقال سعيد بن جبیر: كانت النار بعينها فأسمعه تعالى كلامه من ناحيتها، وأظهر له ربوبيته من جهتها، وهو كما روي أنه مكتوب في التوراة: «جاء الله من سيناء وأشرف من ساعير وأستعلى من جبال فاران». فمجيئه من سيناء بعثه موسى منها، وإشرافه من ساعير بعثه المسيح منها، وأستعلاؤه من فاران بعثه محمداً ﷺ، وفاران مكة. وسيأتي في «القصص» بإسماعه سبحانه كلامه من الشجرة زيادة بيان إن شاء الله تعالى.

(١) لعل تأنيث الضمير بتأويل النور بالأنوار. (هامش ابن ماجه).

قوله تعالى: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تنزيهاً وتقديساً لله رب العالمين . وقد تقدّم في غير موضع ، والمعنى : أي ويقول من حولها ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ فحذف . وقيل : إن موسى عليه السلام قاله حين فرغ من سماع النداء ؛ أستعانة بالله تعالى وتنزيهاً له ؛ قاله السدي . وقيل : هو من قول الله تعالى . ومعناه : وبورك فيمن سبّح الله تعالى رب العالمين ؛ حكاة ابن شجرة .

قوله تعالى : ﴿يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الهاء عماد وليست بكناية في قول الكوفيين . والصحيح أنها كناية عن الأمر والشأن . ﴿أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي ليس كمثله شيء ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أمره وفعله . وقيل : قال موسى يا رب من الذي نادى ؟ فقال له : ﴿إِنَّهُ﴾ أي إني أنا المنادي لك ﴿أَنَا اللَّهُ﴾ .

قوله تعالى : ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ قال وهب بن منبه : ظن موسى أن الله أمره أن يرفضها فرفضها . وقيل : إنما قال له ذلك ليعلم موسى أن المكلّم له هو الله ، وأن موسى رسوله ؛ وكل نبي لا بدّ له من آية في نفسه يعلم بها نبوته . وفي الآية حذف : أي وألق عصاك فآلقاها من يده فصارت حية تهتز كأنها جانّ ، وهي الحية الخفيفة الصغيرة الجسم . وقال الكلبي : لا صغيرة ولا كبيرة . وقيل : إنها قلبت له أولاً حية صغيرة فلما أنس منها قلبت حية كبيرة . وقيل : أنقلبت مرة حية صغيرة ، ومرة حية تسعى وهي الأنثى ، ومرة ثعباناً وهو الذكر الكبير من الحيات . وقيل : المعنى أنقلبت ثعباناً تهتز كأنها جانّ لها عظم الثعبان وخفة الجانّ وأهتزازه وهي حية تسعى . وجمع الجانّ جِثَانٌ ؛ ومنه الحديث «نهى عن قتل الجِثَانِ التي في البيوت» . ﴿وَلَّى مُذَبِّراً﴾ خائفاً على عادة البشر ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي لم يرجع ؛ قاله مجاهد . وقال قتادة : لم يلتفت . ﴿يَا مُوسَى لَا تَخَفْ﴾ أي من الحية وضررها . ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ وتم الكلام ثم أستثنى استثناء منقطعاً فقال : ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ . وقيل : إنه استثناء من محذوف ؛ والمعنى : إني لا يخاف لديّ المرسلون وإنما يخاف غيرهم ممن ظلم ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ﴾ فإنه لا يخاف ؛ قاله الفراء .

قال النحاس: استثناء من محذوف محال؛ لأنه استثناء من شيء لم يذكر ولو جاز هذا لجاز إني لأضرب القوم إلا زيدا بمعنى إني لا أضرب القوم وإنما أضرب غيرهم إلا زيدا؛ وهذا ضدّ البيان، والمجيء بما لا يعرف معناه. وزعم الفراء أيضاً: أن بعض النحويين يجعل إلا بمعنى الواو أي ولا من ظلم؛ قال:

وكلُّ أخٍ مفارقُهُ أخوهُ      لَعَمْرُ أبيكَ إلا الفَرَقْدَانِ

قال النحاس: وكون ﴿إِلَّا﴾ بمعنى الواو لا وجه له ولا يجوز في شيء من الكلام، ومعنى ﴿إِلَّا﴾ خلاف الواو؛ لأنك إذا قلت: جاءني إخوانك إلا زيدا أخرجت زيدا مما دخل فيه الإخوة فلا نسبة بينهما ولا تقارب. وفي الآية قول آخر: وهو أن يكون الاستثناء متصلاً والمعنى إلا من ظلم من المرسلين بإتيان الصغائر التي لا يسلم منها أحداً، سوى ما روي عن يحيى بن زكريا عليه السلام، وما ذكره الله تعالى في نبينا عليه السلام في قوله: ﴿لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ ذكره المهدوي وأختره النحاس؛ قال: علم الله من عصى منهم [يُسْرُ الخيفة]<sup>(١)</sup> فاستثناء فقال: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ﴾ فإنه يخاف وإن كنت قد غفرت له. الضحاك: يعني آدم وداود عليهما السلام. الزمخشري: كالذي فرط من آدم ويونس وداود وسليمان وإخوة يوسف، ومن موسى عليه السلام بوكزه القبطي. فإن قال قائل: فما معنى الخوف بعد التوبة والمغفرة؟ قيل له: هذه سبيل العلماء بالله عز وجل أن يكونوا خائفين من معاصيهم وجلين، وهم أيضاً لا يأمنون أن يكون قد بقى من أشرط التوبة شيء لم يأتوا به، فهم يخافون من المطالبة به. وقال الحسن وأبن جريج: قال الله لموسى إني أخفكتك لقتلك النفس. قال الحسن: وكانت الأنبياء تذب فتعاقب. قال الثعلبي والقشيري والماوردي وغيرهم: فالاستثناء على هذا صحيح؛ أي إلا من ظلم نفسه من النبيين والمرسلين فيما فعل من صغيرة قبل النبوة. وكان موسى خاف من قتل القبطي وتاب منه. وقد قيل: إنهم بعد النبوة معصومون من الصغائر والكبائر. وقد مضى هذا في ﴿البقرة﴾<sup>(٢)</sup>.

(١) الزيادة من «إغراب القرآن» للنحاس. (٢) راجع ٣٠٨/١ وما بعدها طبعة ثانية وثالثة.

قلت: والأول أصح لتصلهم من ذلك في القيامة كما في حديث الشفاعة، وإذا أحدث المقرَّب حدثاً فهو وإن غفر له ذلك الحدث فآثر ذلك الحدث باق، وما دام الأثر والتهمة قائمة فالخوف كائن لا خوف العقوبة ولكن خوف العظمة، والمتهم عند السلطان يجد للتهمة حزاة تؤديه إلى أن يكدر عليه صفاء الثقة. وموسى عليه السلام قد كان منه الحدث في ذلك الفرعوني، ثم أستغفر وأقر بالظلم على نفسه، ثم غفر له، ثم قال بعد المغفرة ﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾ ثم أبتلي من الغد بالفرعوني الآخر وأراد أن يبطش به، فصار حدثاً آخر بهذه الإرادة. وإنما أبتلي من الغد لقوله: ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾ وتلك كلمة أقتدار من قوله لن أفعل، فعوقب بالإرادة حين أراد أن يبطش ولم يفعل، فسلط عليه الإسرائيلي حتى أفشى سره؛ لأن الإسرائيلي لما رآه تشر للبطش ظن أنه يريد، فأفشى عليه ف ﴿قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ﴾ فهرب الفرعوني وأخبر فرعون بما أفشى الإسرائيلي على موسى، وكان القتل بالأمس مكتوماً أمره، لا يدري من قتله، فلما علم فرعون بذلك، وجه في طلب موسى ليقتله، وأشدت الطلب وأخذوا مجامع الطرق؛ جاء رجل يسعى ف ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ الآية. فخرج كما أخبر الله. فخوف موسى إنما كان من أجل هذا الحدث؛ فهو وإن قرَّبه ربه وأكرمه وأصطفاه بالكلام فالتهمة الباقية ولت به ولم يعقب.

قوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ تقدم في ﴿طه﴾<sup>(١)</sup> القول فيه. ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ﴾ قال النحاس أحسن ما قيل فيه أن المعنى: هذه الآية داخلية في تسع آيات. المهدوي: المعنى ﴿أَلْقَى عَصَاكَ﴾ ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ فهما آيتان من تسع آيات. وقال القشيري معناه: كما تقول خرجت في عشرة نفر وأنت أحدهم. أي خرجت عاشر عشرة. ف ﴿فِي﴾ بمعنى ﴿مِنْ﴾ لقرَّبها منها كما تقول خذ لي عشرة من الإبل فيها فحلان أي منها. وقال الأصمعي في قول امرئ القيس: وهل يَنْعَمَنَّ<sup>(٢)</sup> من كان آخر عهده ثلاثين شهراً في ثلاثة أحوال

(١) راجع ١٩١/١١ طبعة أولى أو ثانية. (٢) وفي رواية: «وهل يعمن».































































































































































































































































































































































































































